موسوعة الفكر القومي العربي

الجزء الأول

د. نبيل راغب



١٩٨٨

منهج الموسوعة

لعل أكبر خطأ ارتكبناه ـ كعرب ـ فى حق القومية العربية أننا ركزنا على الجانب العاطفى الذاتى لها أكثر من تركيزنا على المفهوم العلمى والموضوعى لها برغم وجودها كحقيقة موضوعية ملموسة فى حياة الأمة العربية . ونحن لا ننكر أن العاطفة الوطنية ـ عندما تتحول الى عاطفة قومية ـ يمكن أن تتحول بالتالى الى طاقة متدفقة تفعل الأعاجيب فى حياة الأمم . لكن العاطفة القومية لا يمكن أن تظل مجرد مادة خام أو فورات تلقائية ، ذلك أنه من الصعب التنبؤ بالمسار الذى تسلكه تلك الفورات أو الطفرات العاطفية ، بل انها يمكن أن تكون سلبية بنفس القدر الذى يمكن أن تكون به ايجابية . فهى سلاح ذو حدين فعال للغاية فى مجال البناء والتعمير كما هو فعال فى عمليات الانقسام والتدمير . ومما يدعو للأسف أن العرب اشتهروا فى عالمنا المعاصر بأن عود ثقاب يمكن أن يؤجج عاطفتهم التى سرعان ما تخبو بفعل بضع قطرات من ماء الواقع الراسخ .

وبرغم كل هذا الاحباط فان القوميـــة العربية أثبتت أنها أقــوى القوميات رسوخا فى عالمنا المعاصر ، ذلك أن الدول التى تنضوى تحت لواء قوميات أخرى نجدها تسعى سعيا حثيثا لترسيخ جذور قوميتها من خلال المنهج العلمى والدراسة الموضوعية الشاملة التى تستوعب العوامل الايجابية من وحدة اللغة أو العقيدة أو الأرض أو التاريخ أو الكفاح .. الخ . وحتى فى حالة غياب بعض هذه العناصر ، أو فى حالة حداثة الأمة تاريخيا ـ كما نجد فى حالة الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ـ فان نظم التعليم ووسائل الثقافة والاعلام والترفيه تتجه جميعا نحو تأصيل مفهوم القومية الجديدة فى أذهان المواطنين ووجدانهم . وقد نجح الأمريكيون الى حد كبير فى هذا المضمار ، ولولا جهـــودهم العلمية والعملية المستمرة لما شعر الأمريكى بأنه ينتمى الى ما يسمى بالأمة الأمريكية المتميزة الملامح

وخاصة أن الأمريكيين يشكلون مزيجا من معظم جنسيات العالم التى لم تنصهر بعد فى بوتقة القومية الجديدة انصهارا تاما نظرا لحداثة تاريخها الذى لا يزيد على قرنين من الزمان ٠

وقبل أن يهتم الأمريكيون بالجانب العاطفى فى قوميتهم ، ركزوا أساسا على الجانب الموضوعى العملى وخاصة فيما يتصل بالنظام الاقتصادى القومى الذى يربط الجميع بآلة الانتاج الضخم على جميع المستويات ٠ ولسنا هنا بصدد تقييم سلبيات أو ايجابيات هذا البناء الرأسمالى العملاق ، فان أهم ما يلفت انتباهنا الدور الحيوى الذى يلعبه فى تشكيل ملامح القومية ٠ بل ان الأمريكيين لا يجدون أى انتهاك للديمقراطية فى عملية توجيه نظم التعليم ووسائل الثقافة والتربية والاعلام والترفيه من أجل ترسيخ القومية الأمريكية ٠ ويجب ألا نصدق ما يقال عن الحرية المطلقة التى تتمتع بها وسائل الاعلام الأمريكى ، اذ أن هناك استراتيجية قومية تتبعها هذه الوسائل فى التأثير على عقل الجماهير كى تفكر بأسلوب معين ، بل نستطيع القول بأن وسائل الاعلام أصبحت تقوم بعملية التفكير نيابة عن المواطنين الذين تصنع لهم الأفكار والاتجاهات وتقدم لهم بأسلوب جاهز يجعلهم يظنون أنها من بنات أفكارهم ٠ واذا كانت هناك حرية لوسائل الاعلام الأمريكى ، فهى حرية الحصول على أكبر عائد ممكن من الارباح التجارية المرتبطة بالاعلان وغير ذلك من وسائل الكسب الرأسمالى الضخم ٠

واستشهادنا هنا بمحاولات الولايات المتحدة لتأصيل مفهوم القومية الجديدة على أرضها ، جاء على سبيل المثال لتوضيح أن القومية ليست ظاهرة طبيعية محضة شأنها فى ذلك شأن الجبال والمحيطات والصحارى والغابات ، بل هى ظاهرة تلعب فيها ارادة الانسان دورا أساسيا وريادياً٠ وكلما كانت هذه الظاهرة أصيلة وراسخة ، فان مهمة الانسان تصبح سهلة وميسرة وحاسمة وسريعة المفعول الى حد كبير ٠ وهذا ينطبق تماما على مفهوم القومية العربية التى كان لها نصيب ضخم من الدراسات النظرية والاجتهادات الفكرية على مر ما يزيد على قرن من الزمان كما تثبت هذه الموسوعة ، لكن هذه القومية نفسها لم يكن لها سوى نصيب هزيل من الارادة الانسانية والتطبيق العملى فى شتى مجالات حياتنا وفى جميع أرجاء الوطن العربى ، وخاصة أن هذه الدراسات والاجتهادات شبه الشاملة كانت كفيلة بدفع القومية العربية دفعات متجددة لشق طريقها فى عالمنا المعاصر واثبات وجودها على المستوى العلمى التطبيقى ٠

لكننا ــ كعرب ــ لازلنا نجد راحة كبيرة فى مجال النظريات والأقوال ، فهو مجال سهل أقصى ما يكلفنا به اعمال التفكير والقيام

بمقارنة قوميتنا بالقوميات الأخرى وتحليل عناصرها الأساسية وعواملها الايجابية والسلبية • أما ميدان التطبيقات والأعمال والانجازات الحاسمة فان أول عقبة تقابلنا فيه كفيلة بأن نعود القهقهرى الى مجال الجدل العقيم والسفسطة الفارغة • لذلك ظلت آراء هؤلاء الرواد والشراح والمفسرين حبيسة الكتب والأبحاث التى وردت فيها برغم قيمتها وعمقها وموضوعيتها العلمية • ومن ثم ظل الواقع العربى على ما هو عليه من التناقضات والصراعات التى مزقت نسيجه ، وأفقدته تناغمه ، وجعلت عالمنا المعاصر ينكر وجود ما يسمى بالقومية العربية ، ذلك أنه عالم لا يؤمن الا بالنتائج الايجابية المادية الملموسة • أما النظريات والمثاليات – فى نظره – فلا وجود لها اذا لم تخرج الى حيز التنفيذ الفعلى • كما أنه عالم يرى فى الشطحات العاطفية رفاهية لا يقدر عليها اذا ما جاءت ساعة الحسم ، لأنها ساعة تقتضى حسابات علمية وعملية دقيقة للغاية ، بحيث يمكن تحقيق الهدف الاستراتيجى بأقصر الطرق دون تضييع للوقت ، ولا تشتيت للطاقة والجهد والفكر •

وقد أثبتت الدراسات التى انجزها المفكرون الذين ضمتهم هذه الموسوعة أن القومية العربية ليست ظاهرة استاتيكية ثابتة نستكين اليها ، ونستند الى جدارها ، ونحتمى فى ظله بينما نتابع مجريات الأمور فى عالمنا المعاصر البعيد تماما عن الثوابت ، والذى تحمل متغيراته فى كل دقيقة تطورا جديدا يلهث الجميع وراء استكشاف أبعاده • ان القومية العربية الحقيقية مفهوم ديناميكى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ودلالات • فنحن لا نستطيع أن نعزل أمتنا العربية عن مجريات الأمور فى عالمنا المعاصر الذى أصبح عالما صغيرا جدا بفعل ثورة المواصلات ، ومن ثم أصبحت العلاقة العضوية القائمة على التأثير والتأثر ، الأخذ والعطاء ، هى السمة المميزة للعلاقات بين مختلف الأمم والدول • لذلك أصبح من الضرورى بالنسبة للأمة العربية أن تتصرف وتسلك بناء على استراتيجية حضارية تطبيقية نابعة من مسئوليتها تجاه قوميتها حتى لا تضل الطريق وسط هذه الغابات الكثيفة والأدغال المتشعبة للعلاقات الدولية فى عالم اليوم • فقد أصبحت عمليات الشد والجذب على أشدها ، وخاصة بين القوتين العظميين • وهى تحولات ينتج عنها الكثير من المتغيرات الديناميكية ، واذا ركنت الأمة العربية الى النظرة الاستاتيكية الثابتة تجاه قوميتها ، فان قوميتها ستصبح مجرد نظرية أو أيديولوجية تنتمى الى مجال التاريخ أكثر من انتمائها الى عالم الواقع ، وفى الوقت نفسه تفقد الأمة العربية قدرتها على مواكبة عصرها ، بل وتجرفها التيارات المتصارعة الى حيث لا تملك لنفسها ارادة •

ولا يعني هذا وضع القومية العربية تحت رحمة متغيرات العصر بحيث يمكن أن تفقد خصائصها الجوهرية مع انجرافها فى تيارات عالمنا المتعارضة • فلا شك أن كل نظرية فى القومية لها جانب من الثوابت وجانب آخر من المتغيرات • وكلنا نعرف الثوابت فى قوميتنا العربية : اللغة والدين والاقليم والتاريخ المشترك والثقافة المشتركة والمصلحة الاقتصادية ، هذا طبعا بالاضافة الى العوامل المعنوية التى تتمثل فى الوحدة الفكرية وارادة العيش المشترك أو المشيئة ، والتجانس الشعورى واللا شعورى على حد سواء • ومهما اختلف المفكرون القوميون العرب حول تفسير هذه الثوابت ، فان الاختلاف زاد من الأضواء الملقاة على جوانبها المتعددة ، وأكد رسوخها فى الشخصية العربية • وكثيرا ما تغنينا بهذه الثوابت ، لكننا لم نبذل الجهد الكافى لاخراجها الى حيز التنفيذ العملى الشامل • ومع ذلك ظلت موجودة وملموسة بطريقة أو بأخرى ، وخاصة بين أبناء الأقطار العربية المختلفة بعيدا عن صراعات الزعماء والسياسيين • فالقومية العربية لا تعانى الا من مواقف الحكومات العربية واتجاهات رؤسائها المتناقضة سعيا وراء الزعامة والبقاء فى منطقة الأضواء أطول مدة ممكنة • وكان صمود القومية العربية نتيجة مباشرة لتمكنها من كيان الانسان العربى حيثما كان ، بحيث اتخذت منه قاعدة راسخة لمواجهة صراعات الحكومات وخلافات الرؤساء والزعماء • وهذا أكبر دليل على أصالة القومية العربية التى لم تجد من يرعاها عند السلطات المسئولة فأصرت على اثبات وجودها من خلال قاعدة الجماهير العربية العريضة • فى حين أن بعض القوميات الأخرى تعيش على مساندة السلطة لها ، أما تواجدها الفعلى فى وجدان الجماهير وعقلها فأمر مرتهن بارادة هذه السلطة فى الاستمرار فى مساندتها •

أما جانب المتغيرات فى القومية العربية فيرتبط أساسا بالمنهج التطبيقى ، لأن الثوابت تنهض على النظرية الشاملة •• ومن الواضح أن تقصيرنا فى مواكبة المتغيرات يبلغ حدا خطيرا لا يمكن السكوت عليه وخاصة أن الوقت يمر ضد صالحنا القومى العام • ولعل هذا يرجع الى أن معظم الدراسات النظرية التى تناولت بالتحليل ظاهرة القومية العربية ونظريتها دارت أساسا حول ما كان ، ولم تحاول التنبؤ العلمى بما سيكون فى عالم أصبح فيه المستقبل من أخطر العلوم التى يتوافر على دراستها العلماء والمفكرون • لذلك يجب أن نعترف أن نظرتنا الى مستقبل الأمة العربية نظرة قاصرة غائمة فى الوقت الذى تدرس فيه بلاد العالم المتحضر المستقبل بكل أبعاده المحتملة والممكنة كى تضع استراتيجيتها على أساس خال من المفاجآت التى قد تعوق المسيرة الحضارية • لكننا فى العالم العربى نقع أسرى اللحظة الراهنة التى يمكن أن تستغرقنا تماما ، ونعجز

أحيانا عن تخطيها وتجاوزها . في مثل هذه اللحظة نتبادل الاتهامات ونلقى باللوم على بعضنا بعضا بدلا من التسلح بالمنهج العلمى الموضوعى الذى يمنحنا القدرة على النقد الذاتى دون حرج أو حساسية .

ان مفهومنا للقومية العربية ـ على مستوى المتغيرات ـ لا بد أن يملك من الديناميكية ما يمكنه من مواكبة العصر الذى نعيشه ، وخاصة أن المرحلة التى نحياها الآن هى مرحلة تحول مصيرى جذرى يضع القومية العربية فى مواجهة اختبار من أصعب الاختبارات التى اجتازتها بطول تاريخها . ان المتغيرات العالمية أصبحت أسرع وأكثر تعقيدا من ذى قبل ، والأمة العربية بموقعها فى قلب الشرق الأوسط ـ القلب الجغرافى والاستراتيجى للعالم كله ـ وبثرواتها الطبيعية والبشرية الهائلة ، لا يمكن أن تقف بمعزل عن هذه المتغيرات التى تجتاح شواطئها من جميع الجهات . واذا لم تتسلح بالوعى القومى الأصيل وبالمنهج العلمى الموضوعى ، فانها ستجد نفسها مثل ريشة فى مهب الرياح . وعندئذ سيتحول موقعها الجغرافى والاستراتيجى وثرواتها الطبيعية والبشرية الى وبال عليها بدلا من أن تكون هذه العوامل الايجابية المثمرة خيرا وبركة لها .

هنا يبرز الدور الريادى للمثقفين العرب فى جميع أنحاء العالم العربى . هؤلاء المثقفون الذين يأتى فى طليعتهم المفكرون الذين ضمتهم هذه الموسوعة . ذلك أن نشر الوعى القومى الناضج ينهض على أكتافهم أولا وأخيرا . أما ما يسمى بالاختلافات الأيديولوجية بين المثقفين والمفكرين العرب ، وهى التى سيلحظ القارىء نماذج منها فى هذه الموسوعة ، فيجب أن تنصهر فى بوتقة الأيديولوجية الشاملة للقومية العربية والتى تجمع دائما بين مفهومى الأصالة والمعاصرة ، فهى لا تتخلى عن سماتها وخصائصها الجوهرية ، كما أنها تسعى لمواكبة عصرها الراهن . لكن هذه المهمة لن تتم بنجاح ، أو لن تتم على الاطلاق اذا لم يقم المثقفون والمفكرون العرب بدورهم الريادى فى استشراف آفاق المستقبل العربى وشحن الجماهير بالقدرات الخلاقة على العمل بكل طاقاتها وامكاناتها من أجل تحقيق الآمال المرتبطة به .

واصرارنا على تكامل أيديولوجية شاملة للقومية العربية يحتم بدوره عدم الانقياد الأعمى وراء التيارات الفكرية والعقائد الواردة من خارج الأمة العربية . ذلك أن الفكر ـ بصفة عامة ـ نبات يرتبط بالتربة التى استمد منها جذوره ، ومن الطبيعى أن يحمل خصائصها . واذا حاولنا فرضه على تربة مغايرة فلا بد أن يفسدها أو أن يموت . والنتيجة فى الحالتين سلبية ومدمرة . واذا كان لا بد أن نستعين بالعلوم الحديثة ـ فالعلم مشاع وملك لجميع البشر ـ فاننا فى الوقت نفسه يجب أن نضع هذه

العلوم فى خدمة حياتنا المادية والفكرية والثقافية حتى نصل بها الى آفاق العصر · واذا كانت العلوم الحديثة هى السفينة التى نركبها كى نشق عباب الحياة المعاصرة ولججها ، فان قوميتنا العربية هى الدفة التى توجه هذه السفينة الى شواطىء المستقبل العربى كى نتبين ملامحه الأصيلة وسماته الحقيقية ·

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الدور الريادى للمثقفين والمفكرين العرب لن يكمل الا اذا ارتبط عضويا بالأجهزة التنفيذية والمؤسسات السياسية فى الوطن العربى · فلا خير فى اجتهادات فكرية قومية تظل حبيسة فى بطون الكتب · واذا لم يكن متاحا — فى جميع الأحوال — أن يكون المفكر المنظر هو الزعيم السياسى ، فلا أقل من أن يستفيد الزعيم السياسى من اجتهادات المفكر المنظر ، ذلك أن أى انفصال بين النظريـة والتطبيق لا بد أن يؤدى الى اصابة الأمة بانفصام الشخصية الناتج عن الفجوة الواسعة بين الأقوال والأعمال · والعلم الحديث يركز الانتباه ويحصر العناية دائما فى تطبيقات العلم ، فلا يعترف أن غايته ينبغى دائما أن تكون المعرفة لذاتها · فالغاية النظرية والغاية العمليـــة متـــلازمتان متكاملتان · لذلك لا يصح أن نناقض بين المعرفة التطبيقية والمعرفـــة العلمية ، بحيث نقول ان المعرفة التطبيقية تنصب على المحسوس وهدفها العمل ، فى حين تبعد المعرفة العلمية عن كل اهتمام عملى تطبيقى ، وتبغى ادراك الحقيقة على مستوى الأفكار الخالصة المجردة — فليس هناك اختلاف فى الطبيعة بين النظرية والتطبيق ، اذ أن فى احداهما كما فى الأخرى ، يبدأ الانسان من الاحساسات والأفكار ويكتشف بين الكيفيات التى يدركها علاقات ثابتة أو قوانين ، وتتيح له هذه القوانين بالتالى أن يمارس نشاطه العملى · لذلك فان استمرار العلاقة العضوية بين العلم والعمل هو أكبر ضمان لاخراج مفهوم القومية العربية الى حيز التنفيذ العملى ·

فاذا قام مفهومنا للقومية العربية على هذا الأساس العلمى ، فاننا بذلك نتجنب الدخول فى متاهات جانبية وطرق مسدودة تشتت الانتباه ، وتضيع الهدف ؛ وتعتم الرؤية · والدراسات القومية بالذات مثيرة بطبيعتها للجدل وحافلة بالمتاهات التى يتعرض لها دارسوها كما حدث للقوميات الأوروبية فى القرن الماضى مثلا · أما فى الربع الأخير من القرن الحالى فان تعقيدات العلم وتناقض النظريات قد يغرى الباحث فى مجال القومية بالجرى وراء التفاصيل الثانوية ، وترك جوهر القضية دون أن يتناوله بالمعالجة · لذلك يجب على الباحث والمنظر فى القومية العربية أن يمتازا بوضوح الفكر واتساق النظرة نحو المستقبل قبل أن يتبحرا فى تفاصيلها

وتفريعاتها • وخاصة أن القومية من النظريات الفكرية والعلمية التى تحتاج الى تطبيق مستمر على الواقع • وهو واقع يتغير من يوم لآخر • والمفكر القومى الذى يترك المعنى والجوهر كى يتمسك بالحرف والشكل لا بد أنه سيجد نفسه عاجزا عن استيعاب المتغيرات المتلاحقة والمتشابكة للمشكلات والقضايا الراهنة • وهذا يؤكد أن القوميات التى تعجز عن ملاحقة تيار الحياة لا بد أن توضع فى المتحف ، لأن القومية — فى جوهرها — محاولة منهجية أصيلة لفهم الحياة وادراك أبعادها بالنسبة لمجموعة من البشر •

واذا كان البعض يظن أن عصر القوميات قد انتهى بانتهاء القرن الماضى ، فذلك يرجع الى أنها قد أصبحت واقعا فعليا مطبقا من خلال الممارسة اليومية للأفراد والمؤسسات والسلطات ، كما نجد فى القوميات الأوروبية مثلا ، تلك القوميات التى حل فيها العمل محل القول • أما نحن فى العالم العربى فاننا لم ندخل مجال التطبيق وخاصة على مستوى المؤسسات والسلطات • ومن هنا كان استمرار حديثنا عن القومية العربية ومناداتنا بها على أساس أن لكل قومية منهجها الخاص بها والذى يتيح لها أن تحصل على المعرفة الصحيحة عن طريق دراستها للواقع وبحثها عن الحقيقة •

وعند دراسة سلوك الانسان العربى تبرز ضرورة الاحاطة بكل الارتباطات بين احساسات الانسان وانفعالاته وعواطفه ورغباته • وبين ما ينبغى أن يكون عليه سلوكه الانسانى من نضج واتساق وضبط فليس من المستطاع تخيل الانسان وقد خلا من الرغبة والانفعال والعاطفة ، فلو فعلنا ذلك لفات علينا دقة تقدير السلوك الانسانى تقديرا علميا سليما • فاذا كانت حياة الانفعال حياة خطرة على الانسان العربى فردا وجماعة ، فليس فى وسعنا مع ذلك أن ننكر ما للشحنة الانفعالية فى الانسان من قيمة عظيمة ، اذ لو وجهت التوجيه الصحيح لأفضت به الى اعادة الحضارة العربية الى سابق عهدها المجيد • ان الانسان العربى يقف بين طرفين : طرف العاطفة والانفعال والاندفاع وطرف العقل والحكمة والانضباط ، وتقدمه الحضارى مرهون بتحقيق التوازن داخله بين الطرفين •

ومن الواضح أن أمتنا العربية تمر بحالة من المخاض العظيم بكل ما يتبعه من آلام ومعاناة • وفى مراحل التحول الخطير والمصيرى تبدو الأمم فى أشد الحاجة الى العلامات المضيئة التى توضح لها الطريق الى آفاق المستقبل • وقد كان الفكر القومى العربى بمثابة هذه العلامات المضيئة على جانبى الطريق الطويلة الممتدة من ماضى الأمة العربية صوب

مستقبلها الذى نرجوه جميعا ٠ ولعلنا الآن فى أشد الحاجة الى اعادة النظر فى كل ما كتبه رواد الفكر القومى العربى وشراحه ومفسروه كى نتلمس المدى الذى بلغوه فى انجازاتهم الفكرية ، والى أى حد تأكد صمودها فى مواجهة تحديات العصر ، والمتغيرات التى يمكن اضافتها الى تفريعاتها النظرية بناء على ما يجرى على أرض الواقع ٠ وذلك حتى تكتسب القومية العربية من الديناميكية والمرونة ما يساعدها على بلورة أيديولوجيتها ٠

ان القومية العربية لم تعد تقنينا للماضى ، وابرازا لعناصر التوافق والتناغم بين أجزاء الأمة العربية ٠ فهذه أمور أصبحت بدهية ونظرية الى حد كبير ، ولا ينقصها سوى التطبيق العملى المخلص ٠ والتطبيق لا يعنى سوى المستقبل الذى أصبح علما مستقلا بذاته عند أمم الحضارة المعاصرة٠ لذلك يجب أن تتحول القومية العربية الى العلم الذى يدرس المستقبل العربى بكل امكاناته واحتمالاته حتى لا يجد العرب أنفسهم وسط موجات محيط عالمى بدون بوصلة ترشد سفينتهم وسط العواصف والأنواء ٠

من هنا كانت هذه الموسوعة التى نقدمها عن رواد الفكر القومى العربى وشراحه ومفسريه الذين بذلوا كل جهدهم لتبين معالم الطريق نحو المستقبل العربى ٠ وعلينا الآن أن نواصل المسيرة على هدى أفكارهم التى يمكن أن نضيف اليها تحليلاتنا النابعة من متغيرات العصر ، وذلك بعد أن أثبتت القومية العربية قدرتها على الصمود فى وجه كل الضربات التى وجهت اليها من الداخل والخارج ٠ هذه الضربات المتلاحقة والعنيفة التى لو وجهت الى أية قومية أخرى لكان من الممكن أن تقضى عليها تماما ٠ ولذلك كانت هذه الموسوعة بمثابة تكريس لهذا الصمود الباهر ، بل ان عملية تأليفها على مدى أربع سنوات متصلة كانت ممارسة عملية لهذا الصمود فى وجه التيارات الطارئة ٠

وفى اعتقادى أن من حق القارىء العربى العزيز أن يلم ببعض الأسباب التى أدت الى تأليف هذه الموسوعة والعقبات التى حاولت الوقوف فى هذا السبيل ٠ والعجيب أن الأسباب لم تكن منفصلة على الاطلاق عن العقبات ٠ فمثلا اكتشفت أن كثيرين من المثقفين العرب أصبحوا يتصورون أن ما كتب عن القومية العربية أصبح ينتمى الى فترة تاريخية معينة ، وانتهت قيمته الفكرية بانتهاء تلك الفترة ٠ وكانت النتيجة أن معظم ما كتب فى هذا المجال لم يطبع سوى مرة واحدة ، مما شكل عقبة كأداء فى سبيل الباحث عن تلك المراجع ٠ بل ان أحد الأصدقاء عندما علم بشروعى فى

تأليف الموسوعة نصحني بعدم الاستمرار في هذا الجهد غير المجدى لأن القومية العربية « موضة » انتهت • وهكذا جاء اليوم الذى سمعنا فيه أن القومية مجرد « موضة » أو موجة نركبها عندما تأتى من تلقاء نفسها ، ونتركها عندما تضطرها الظروف السياسية المؤقتة والطارئة الى الانحسار •

لذلك عملت هذه الموسوعة أقصى ما في وسعها كي تجمع هذه الكتابات والدراسات بطريقة مكثفة ومركزة حتى تكون تحت يدى الدارس العربى كدليل للفكر القومى وفلسفته • وبالطبع لم تستطع الموسوعة أن تضم كل الكتابات بطريقة جامعة مانعة ، بل حاولت أن تجمع كل الاتجاهات الممثلة للفكر القومى على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والروحية ، كما حاولت تمثيل كل الأقطار العربية من خلال مفكريها القوميين وان كانت قد عانت من الحصول على مؤلفات الكتاب القوميين فى بلاد المغرب العربى : الجزائر وتونس ، وليبيا ، وبلاد الخليج العربى ، والسودان • فلم تستطع سوى الحصول على كاتب أو مفكر واحد يمثل كل منها بطريقة أو بأخرى • ومع كل هذه العقبات والاحباطات ، فاننى عند الانتهاء من الموسوعة أدركت مدى روعة هذه السيمفونية القومية التى تعزفها هذه الكوكبة من الكتاب والمفكرين والقادة • صحيح أن هناك نغمات متعارضة ومتوازية قد توحى بالتناقض والاختلاف لأول وهلة ، لكنها فى النهاية تبدو دليلا على الخصوبة والتنوع • وهذا ما أكده المايسترو العظيم ساطع الحصرى الذى قاد هذه السيمفونية على مدى نصف قرن من الزمان وشاركه فيها أمهر العازفين الذين ضمتهم هذه الموسوعة •

وفى هذه الفترة التى بلغ فيها العالم العربى حدا من التمزق والضياع لم يبلغه من قبل ، بدا تأليف هذه الموسوعة وكأنه سباحة ضد التيار • ولكننى لهذا السبب خصيصا قمت بهذا العمل • فليس بانجاز ذى دلالة أن تصدر موسوعة من هذا النوع فى وقت تزدهر فيه القومية العربية على المستوى العملى • ذلك أنها ستكون بمثابة شمعة مضيئة تحت أشعة الشمس • أما عندما يتكاثف الظلام ويطول الليل فمن الضرورى اضاءة هذه الشمعة بدلا من أن نسب الظلام • ولذلك ترجو هذه الموسوعة أن تكون الشمعة التى تعقبها شموع تالية تضىء معالم الطريق وسط الأحراش المعتمة •

كذلك اهتمت الموسوعة بأن تلقى الأضواء على الجانب الممثل لكل كاتب ومفكر تمثيلا حقيقيا • ففى بعض الأحيان كانت تترك الكتب الضخمة التى ألفها كاتب معين وتركز على بعض مقالات له ترتبط ارتباطا وثيقا بالخط الفكرى للموسوعة • فليست المسألة مجرد تجميع لانجازات كل

مفكر ، وانما هي اختيار ما يمثل نغمة ذات دلالة في الموسوعة · ولذلك لم أحاول التعليق شخصيا على كثير من الآراء والاتجاهات التي وردت في الموسوعة بل تركت عامل الاختيار يوضح التعارض أو التوازي أو الاختلاف بين اتجاهات الكتاب والمفكرين · وهو اختلاف لم يصل في أحيان كثيرة الى حد التناقض والصراع مما يدل على مدى التناغم الذى تتمتع به القومية العربية ·

أما عن تنظيم الموسوعة فقد فكرت في تقسيمها الى أبواب يضم كل منها المفكرين الذين تناولوا جانبا معينا من جوانب القومية العربية ، فهناك باب للذين تناولوها من الناحية السياسية ، وآخر للذين حللوا جوانبها الاقتصادية ، وثالث لأبعادها الاجتماعية أو الفكرية أو الثقافية أو الروحية وهكذا · لكنني اكتشفت أثناء العمل أن هذه الجوانب والأبعاد متداخلة ومتشابكة داخل نسيج معقد بحيث يستحيل الفصل بينها · ومن هنا كان أفضل تقسيم للموسوعة هو الترتيب الأبجدى للكتاب والمفكرين حتى يسهل على القارىء العثور على أى منهم عند طلبه ·

ان اصدار هذه الموسوعة بمثابة محاولة متواضعة لايجاد ما يمكن تسميته « بالجامعة العربية الفكرية المتنقلة » ، ولاثبات أن عوامل الوحدة والترابط والتضامن تفوق كما وكيفا عناصر الفرقة والصراع والتناقض · ولو كان العكس هو الواقع لما أمكن لهذا العدد الوفير من الكتاب والمفكرين أن يجدوا مثل هذه المادة الخصبة النابعة من الاتجاهات القومية المؤمنة بالوحدة والتضامن · فليس من المعقول أنهم يكتبون من فراغ · فالقومية العربية ليست شعارا نرفعه حينا ونصرف النظر عنه حينا آخر ، بل هى حياة متكاملة بمعنى الكلمة ، تنضوى تحتها علوم التاريخ والحضارة والجغرافيا والسياسة والاقتصاد والاجتماع والسلوك والتطور ··· الخ · والنظرة القومية الاستراتيجية تعنى توظيف كل امكانات هذه العلوم وطاقاتها من أجل مستقبل الأمة العربية ، بحيث تكمل بعضها بعضا · والتخلى عن هذه الاستراتيجية القومية يعنى التخلى عن هذه العلوم ، والدخول في متاهات الشعارات الجوفاء والصراعات العقيمة والطرق المسدودة والدوائر المفرغة ، في عالم يتطور من لحظة الى أخرى ·

وقد حاولت هذه الموسوعة اثبات هذه القضايا برغم بدهيتها ، وذلك من خلال أفكار وكتابات المفكرين الذين ضمتهم · فنحن للأسف لا نزال مضطرين الى الحديث عن المسلمات في العالم العربى · لكن الأمر لم يعد يحتمل أكثر من ذلك بعد كل هذه المراحل الطويلة المملة المريرة التى مر بها العرب من التمزق الداخلى والضغط الخارجي · ان اخراج القومية العربية الى حيز التنفيذ لم يعد ميدانا للعب بين المؤيدين والمعارضين ، بل

أصبحت القضية قضية مصير ، وعلى العرب أن يختاروا الآن بين التمزق والضياع ثم الانتحار وبين الترابط والوحدة ثم الانطلاق · ويجب أن يعلم الجميع أنه لا يوجد اختيار ثالث · ولن يجدى رفع أعلام القومية فى حين نسير نحن العرب فى طريق التمزق والانتحار المظلم ، أما طريق القومية فمحدد وواضح ومضىء بالمشاعل التى تقدمها هذه الموسوعة ·

١ سبتمبر ١٩٨٧

د· نبيل راغب

١ ـ فؤاد أباظة « مصر »

سيذكر تاريخ الحركة القومية العربية لفؤاد أباظة أنه كان مؤسس جمعية « الاتحاد العربى » فى القاهرة • ومن حسن الحظ فقد قام هو نفسه بالتأريخ للاتحاد فى كتاب أصدره عام ١٩٤٦ فى القاهرة بعنوان « الاتحاد العربى فى القاهرة : ١٩٤٢ ـ ١٩٤٥ » • وكان « الاتحـــاد العربى » أهم الجمعيات التى آمنت بالعروبة فى مصر وأكثرها نشاطا وتأثيرا• ويعترف فؤاد أباظة أن الاتحاد كان امتدادا للرابطـة الشرقيـة التى تم تشكيلها فى ٢٦ نوفمبر ١٩٢١ فى دار ميرزا مهدى مشكى رئيس تجار العجم بمصر وانتخب عبد الحميد البكرى رئيسا لها ، لكن نشاطها توقف عام ١٩٣٠ • وكانت أولى الجمعيات التى ساعدت على انتشار الفكرة العربية فى مصر ، وضمت أعضاء من عدة أمم من الدول العربية والاسلامية وبلاد المشرق عامة ، وتهدف الى نشر المعارف والآراء والفنون الشرقيـة وتوثيق روابط التعاون ، والتضامن بين أمم الشرق على اختلاف أجناسها وأديانها ، بوسائلها الكثيرة بعيدا عن المجالات الدينية والسياسية • ومن أهم مشروعاتها عقد مؤتمر دورى ينتقل بين حواضر البلاد العربية ويحضره مندوبون من أقطارها للبحث فى وسائل ترقية اللغة العربية حتى تواكب مقتضيات العصر • وقد رحبت به البلاد العربية ، وخاصة مصر وسوريا • وقد أكد عبد الحميد البكرى أن اللغة دعامة قوية فى صرح الوحدة القومية، وأن الاستعمار من وراء دعاة العامية لتحطيم دعامة القومية العربية •

وبتوقف نشاط « الرابطة الشرقية » وجد فؤاد أباظة أن الفكرة العربية فى مصر قد فقدت بذلك قوة دفع كبيرة ، ولذلك اتفق مع جماعة من مؤسسى الرابطة والمؤمنين بالفكرة العربية مثل محمد على علوبة على اقامة « الاتحاد العربى » • وكان فؤاد أباظة قد قام بجولة فى البلاد العربية جعلته يدرك الجذور العميقة للقومية العربية التى لم تكن قد وجدت

لنفسها بعد شكلا محددا من أشكال التعبير عن خصائصـــها ومقوماتها وبالفعل نشر فؤاد أباظة نداء بجريدة « المقطم » فى ١٦ سبتمبر ١٩٤١ دعا فيه الى تجديد فكرة الوحدة وتركيزها فى اتحاد شعبى بين الأقطار العربية قيد ونفى ارتباط الفكرة واقامة الاتحاد بتصريح أنتونى ايدن الذى دعا فيه الى اقامة الجامعة العربية ٠

ويتضح تأثر فؤاد « بالرابطة الشرقية » فى اعتباره اللغة العربية الأساس الذى نهضت عليه الفكرة العربية ، ولذلكوجهت الدعـوة الى الشـــعوب التى تتكلم العربية من المحيط الى الخـــليج للانضـمام الى « الاتحاد العربى » الذى حرص فؤاد أباظة على صبغه بالصبغة القومية البحتة البعيدة عن الطائفية والمذهبية والعصبية ٠ ولذلك استبعدت فكرة البحث فى الخلافة الاسلامية حتى لا تشتت الفكرة العربية ٠ وبالفعل تم انتخاب مجـــلس لادارة الاتحـــاد فى ٢٨ فبراير ١٩٤٢ ، ضم كبـــار الشخصيات العربية الموجودة فى مصر علي النحو التالى : فؤاد أباظة رئيسا ـ أحمد مراد البكرى وخليل ثابت وكيلين ـ أحمد نجيب برادة سكرتيرا ـ توفيق خليل أمين صندوق ، ومن أعضائه على ماهر ومحمد على علوبة وتوفيق دوس وموريس أرقش وأسعد سلهب ومحمد ادريس السنوسى وحقى العظم وعبد الستار الباسل ومحمود عزمى وغيرهم ٠

وفى ٢٥ مايو ١٩٤٢ وضع قانون الاتحاد وحددت أهم أغراضـــه القومية بتنمية العلاقات وتقوية الروابط بين الأفكار العربية والسهر على مصالحها والدفاع عن حقوقها ٠ وانشاء أندية للاتحاد فى البلدان المذكورة تعمل علي تحقيق أغراضه ونشر مبادئه بجميع الوسائل المشروعة ٠ وكان فؤاد أباظة يؤمن بأن الثقافة والاقتصاد هما المدخـــل الطبيعى للقومية العربية ، لذلك نادى مع زملائه من القائمين على « الاتحاد العربى » بالاهتمام والتقارب بين الأفكار العربية ، ثقافيا واقتصاديا ، وأن هذين العاملين يؤديان حتما الى التضامن ٠ وكان ادراك فؤاد أباظة للتناقضات السياسية التى تحكم العالم العربى ادراكا عميقا وواسعا حين جعل قانون الاتحـــاد ينص على أن يكون لكل دولة شخصيتهـــا الدولية ؛ ذلـــك أن « الاتحاد العربى فى مظهره الجديد لا يبغى نظاما واحدا فى الحياة بـــل تبقى كل أمة من أممه مستقلة قائمة بذاتها تختار لنفسها ما يوافقها من نظم الحكم وصور الحياة ٠٠ ثم يضمها جميعا هذا الاتحاد الذى تدعو اليه والذى نريد أن يكون مجموعة شعبية دولية يحسب لها حسابهـــا وليكون الاتحاد قوة تستند اليها الحكومات فى مباحثاتها حول الغايـــة المنشودة » ٠

وقد نجح الاتحاد فى أن يكون لنفسه فروعا فى بغداد ودمشـــق

وبيروت وعمان وصنعاء والمهجر تمهيدا لتحقيق هدفه فى اقامة اتحـاد يضم مصر وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق والسعودية واليمن وليبيا وتونس والجزائر ومراكش • وذلك بالاضافة الى اصدار مجلـة تبشر بالقومية العربية ، وعقد مؤتمرات سنوية لبحث قضايا الأمة العربية، وتبادل الزيارات لتقوية أواصر الأخوة بين الشخصيات العربية والبـلاد العربية • ولم يتوقف نشاط « الاتحاد العربى » وعلى رأسه فؤاد أباظة عند حدود رفع الشعارات والمبادىء بل نجح عمليا فى الدفاع عن حق سوريا ولبنان فى تقرير مصيرهما فى الحرية والاستقلال عام ١٩٤٣ ، كما قام بحملة اعلامية ضد السلطات الفرنسية فى لبنان كما يقول فؤاد أباظة فى مقدمة كتابه « الاتحاد العربى » • كذلك أيد وناصر باستمرار قضية فلسطين فى كل مراحلها ، وندد باستمرار هجرة اليهود اليها ، وطالب بحقوق شعبها • وهاجم الولايات المتحدة الأمريـكية فى عـام ١٩٤٤ ، وناشد حكومة ألمانيا الغربية عدم دفع تعويضات الى اسرائيل عام ١٩٥٣ وذلك بعد أن تحول الاتحاد الى حزب سياسى عربى شعبى • كذلك أمد الفدائيين عام ١٩٤٨ بالمال والسلاح •

أما بالنسبة لمؤتمر الوحدة العربية فقد طـالب الاتحـاد بتمثيل فلسطين بوفدين ، والتمهيد لتمثيل بلاد المغرب العربى باللجنة التحضيرية للمؤتمر وذلك لمقاومة المحاولات الفرنسية الاستعماريـة لطمس معـالمها القومية • وناصر الاتحاد القضية الليبية ووقف بكل قوته خلف وحدتها ، كما قام بحملة اعلامية شعواء ضد المجازر البشرية التى ارتكبتها فرنسا فى بلاد المغرب العربى وطالب بحق تقرير المصير لها والدفاع عن حقوقها القومية المشروعة • وعندما أعلن ميثاق جامعة الدول العربية سارع الى تأييده والترحيب به لأنه يتفق مع مبادئه فى تأكيد الشخصية الدولية لكل دولة ، لكنه عاب عليه عدم النص على استقلال فلسطين ، واستقلال البلاد غير المشتركة فى الجامعة عملا بمبدأ حق تقرير مصـير الشعوب وميثاق الأطلسى •

وبرغم هذا النشاط القومى العظيم الذى قام به فؤاد أباظة على رأس « الاتحاد العربى » فان الاتحاد لم يحاول الانتشار بين الأوساط الشعبية بحيث لم يخرج عن دائرة رؤساء الوزارات السابقين والوزراء ورؤساء مجلس النواب السابقين وأعضاء مجلس الشيوخ • مع العلم بأن دعوة فؤاد أباظة بدأت شعبية قومية وليست حكومية رسمية •

٢ ـ يوسف أبو الحجاج « مصر »

تتمثل انجازات يوسف أبو الحجاج ـ فى مجال الفكر القومى العربى ـ فى كتبه ودراساته وأبحاثه التى دارت حول وحدة الوطن العربى من وجهة النظر الجغرافية والاقتصادية ٠ من كتبه ودراساته نجد : « العالم الاسلامى فى دنيا المواصلات العالمية وفى محيط السياسة الدولية » ١٩٥٨ ، و « العالم الاسلامى ، مكانته فى الاقتصاد العالمى وارتباطها بالأطماع الاستعمارية » ١٩٥٩ ، و « وحدة الوطن العربى : مقوماتها وضرورتها الاقتصادية » ١٩٦٠ ، و « المقومات الجغرافية لوحدة الوطن العربى » ١٩٦٠ ، و « اسرائيل وتحويل مياه الأردن » ١٩٦٤ ، و « بحوث فى العالم العربى » ١٩٦٥ ٠ ولم يقتصر مجهوده على الدراسات العربية بل قدم عام ١٩٥٧ دراسة بعنوان « الكيان الاقتصادى لاسرائيل » حتى يقدم للعرب صورة علمية دقيقة للدوافع الحقيقية وراء المخططات الصهيونية فى المنطقة ، وذلك فى عالم يحكمه الاقتصاد أولا وأخيرا ٠

فى تحديده لمقومات القومية العربية ركز يوسف أبو الحجاج على الأسس البشرية لها ، معترفا فى الوقت نفسه بأن القومية نسيج من خيوط عديدة لا تقبل التحديد الجامع المانع ، وهى كما عبر المفكر والعالم الانجليزى جوليان هكسلى « نتاج لعوامل تفوق الحصر » ، ذكر منها استقرار الجماعة فى قطر ذى حدود جغرافية واضحة ، ووحدة التقاليد ، ووحدة العقيدة ، ووحدة اللغة ، ووحدة الحرفة ، والاعتقاد فى رابطة دم مشترك ، والموقف الموحد ضد التدخل الأجنبى ٠ ولكن العلة الأولى التى يراها يوسف أبو الحجاج فى دراسات القومية علة منهجية تنبثق من اغفال الدارس لتحديد المقصود بلفظ « مقومات » ، أو ايراد التعريف ثم عدم الالتزام به فى ثنايا المكتوب ، مع ما يؤدى اليه ذلك من اهتزاز فى السياق، وخطأ فى النتائج ٠

من هنا التزم أبو الحجاج بتعريف مقومات القومية العربية بأنها العوامل التى كونت مجتمعة هذه القومية ــ أى ذلك « الاحساس » المكين الذى يستقر فى نفوس العرب بأنهم ينتمون الى أمة واحدة لها شخصيتها المتميزة بين الأمم الأخرى ، لا أكثر من ذلك ولا أقـــل ٠ أما المقومات الجغرافية الطبيعية للقومية العربية فى ضوء هذا التعريف فقد حددهـا أبو الحجاج بخمسة عوامل رئيسية هى وحدة الرقعة ، وتوفر حـدود طبيعية واضحة للوطن العربى ، ووحدة الموقع الجغـــرافى ، والوحـدة التضاريسية العامة ، وتنوع البيئات الطبيعية ٠ والنغمة المشتركة بين كل هذه العوامل هى أن كلا منها أسهم فى تيسير الاتصال والتعامل والاختلاط بين سكان الوطن العربى منذ أقدم العصور ٠ كان لا بد أن يتصل هؤلاء السكان بحكم هذه العوامل الطبيعية ، وأن تتشابك مصالحهم ، وأن تختلط دماؤهم ، وأن يتشابه الكثير من مشاكل حياتهم ، وكان لا بد أن يخضعوا لكثير من المؤثرات الواحدة ، ومن ثم كان لا بد أن يتولد هذا الاحساس الراسخ ــ هذا الاقتناع الوجدانى ــ بوحدة الجماعة الذى هو القومية العربية ٠

ويؤكد أبو الحجاج أن ابراز العامل الجغرافى الطبيعى يضفى على سائر مقومات القومية العربية ــ على مقوماتها البشرية بعبارة أخرى ــ طابع الأصالة والرسوخ ٠ انه يثبت « حتمية » القومية العربية : كان لا بد أن توجد قومية أى احساس بوحدة الجماعة وتميز الشخصية فى هـذه المنطقة التى تمتد من الخليج الى المحيط بحدودهـا الأخرى المعروفة ٠ وقوميتنا اذن ليست وليدة حدث تاريخى أو صدفة من الصدف ؛ بل هى من حكم الطبيعة ٠ والوحدة السياسية الشاملة التى تدعو اليها تصبح على هذا الأساس أمرا طبيعيا ــ أى يستند على منطق الطبيعة ، منطق الأسس الجغرافية الثابتة ٠ مع العلم بأنه ليس ثمة ما يبرر قيام أى جدل حول قيمة الوحدة الروحية والوحدة اللغوية ووحدة الأسس الاجتماعية كمقومات أساسية للقومية العربية ٠ ولا يمانع أبو الحجاج أيضا فى ابراز التجانس العنصرى ــ أو وحدة الجنس بمعنى محدد ــ بين سكان الوطن العربى ضمن هذه المقومات ، فهو يعنى توافر « رابطة الدم » بين الغالبية الساحقة من هؤلاء السكان ٠ ورابطة الدم ان وجدت فى أمة من الأمم عامل لا شك فى أثره فى توليد ذلك الشعور الجماعى بالتفرد وتحيز الشخصية ــ أى بالشعور بالقومية عند أبناء هذه الأمة ٠ والواقع أنه كلما ازداد عدد المقومات كانت القومية أعظم رسوخا وكانت الدعوة الى الوحدة السياسية الشاملة ــ وهى التتويج العملى للقومية ــ أكثر يسرا واقرب للنفوس ٠

أما بالنسبة للضرورة الاقتصادية للوحدة العربية فهناك فرق شاسع

بين التعاون الاقتصادى والتكامل الاقتصادى . فالتعاون يمكن أن يتم فى ظل التمزيق السياسى الراهن للعالم العربى ، ويذكر أبو الحجاج بأن هذا التعاون يقصر كثيرا عن تحقيق الحد الممكن من الخير الاقتصادى للأمة العربية ، وبأن الخير الشامل لن يتأتى الا فى كنف الوحدة السياسية الشاملة ، أى فى ظل الدولة العربية الواحدة . ففى ظل هذه الوحدة يتحقق التكتل الاقتصادي الأمثل فى مواجهة العالم الخارجى ، ويتوفر أقصى ما يمكن من مرونة فى انتقال عناصر الانتاج ، وأقصى ما يمكن من تنسيق اقتصادى ، وأكمل استغلال للامكانات ، على نحو يستحيل تحقيقه فى ظل التعاون بين الدول العربية بكياناتها السياسية الراهنة .

ويركز أبو الحجاج بصفة خاصة فى دراساته الاقتصادية عن البترول العربى وما ادخله من تغييرات فى البيئة الجغرافية فى العالم العربى ، وما يمكن أن يحققه فى مجال التنمية الاقتصادية فى الوطن العربى الكبير . كما ألقى أبو الحجاج الضوء على معوقات الاستغلال السليم : المعوقات الطبيعية ، والمعوقات التى تجىء من صدفة استغلال البترول على يد شركات أجنبية عاتية ، وتلك الى تجىء من التمزيق السياسى الراهن الذى تعانيه المنطقة العربية . ولم يعد هناك أدنى شك فى أثر الشركات الأجنبية فى تعطيل الاستفادة المكتملة ، بتهافتها على زيادة الانتاج مما يمثل عملية استنزاف سريع للبترول العربى ، وبتبديدها لكميات الغاز الطبيعى الهائلة التى تنبعث من حقوق البترول ، وبتباطؤها فى زيادة طاقة التكرير بالوطن العربى برغم أهمية هذه الصناعة فى التنمية الاقتصادية ، وبالارتفاع المريب فى نسبة المستخدمين الأجانب بها كما يتضح من الاحصائيات .

لذلك يدعو أبو الحجاج الى وقف عملية استنزاف البترول العربى بتنظيم الانتاج قبل أن يفوت الأوان وخاصة أن البترول سلعة غير قابلة للتعويض . كذلك ينبه الى وقف نزيف اقتصادى آخر ، هو الغاز الطبيعى الثمين الذى يقدم فى معظمه طعاما للنار ، وينبه أيضا الى ضرورة زيادة طاقة التكرير وغير ذلك من مجالات واسعة لمزيد من استرداد الحقوق من الشركات المسيطرة على الانتاج ، وما يمكن تحقيقه من وراء علاج معوقات التمزيق السياسى : بالتعاون الاقتصادى ، أو بما هو خير منه وأبقى ، ألا وهو الوحدة الشاملة للوطن العربى الكبير .

ولا يترك أبو الحجاج الطرف المعادى بدون القاء الأضواء التحليلية عليه حتى يعرف العرب كل الحقائق الموضوعية المتعلقة به بعيدا عن الدعاية الاعلامية المصطنعة . لذلك يقدم دراسة هادئة للبناء الاقتصادى لاسرائيل ، يركز فيها على تفنيد دعاوى اليهود عما حققوه فى أرض فلسطين من

معجزات اقتصادية وعمرانية ، زعموا أنها وليدة التفوق العلمي والامتياز التكنولوجي ، وراحوا يروجون لها بجهود لا تعرف الكلل ، وليدخلوا فى روع الرأى العام العالمى أنهم رسل حضارة وصانعو عمران جديرون بذلك العطف والتأييد • وقد نبه أبو الحجاج الى أنه من الخطر أن نستهين بما ينتجه هذا اللون من ألوان الدعاية من أثر فعال فى كسب الرأى العام العالمى عامة ، والأوروبى والأمريكى خاصة ، والى أن من واجبنا نحن العرب أن نتجه بدورنا الى مخاطبة الفكر العالمى بدلا من الاكتفاء بمخاطبة الضمير العالمى ، شريطة أن نتخذ لهذا الخطاب وسائله الصحيحة •

تلك هى بعض المهام القومية التى يمكن أن تنهض بها وحدة الوطن العربى • وهى فى مجموعها تبرز أن هذه الوحدة ضرورة لا مناص عنها لاستغلال امكانات هذا الوطن كله ، وتحقيق أقصى حد ممكن من الفائدة لجميع أبناء الأمة العربية • ويركز أبو الحجاج بصفة خاصة على عامل الزمن • فنحن لا نملك الا وقتا قصيرا فى الحقيقة ، والعرب يتزايدون باطراد وبسرعة ، وهم يعانون التخلف الذريع فى الوقت الذى يركض فيه العالم المتطور بسرعة مذهلة وبرغم أن الوطن العربى يضم رصيدا كبيرا من البترول والفوسفات وبعض المعادن الأخرى فما ينبغى أن ننسى أن هذا الرصيد ينقص أمام أعيننا عاما بعد عام ليذهب وقودا الى المصانع فى أوروبا وأمريكا ، وهو ينقص بسرعة • والبترول مثلا من المقدر أن ينفد فى خلال مدة لا تزيد كثيرا على قرن واحد • ومن الضرورى أن تستغل موارد العرب الخام فى مراحل التصنيع الأولى فى مختلف أجزاء الوطن العربى ، والا كانت النفقة أفدح والمهمة أصعب •

نحن اذن فى سباق رهيب مع الزمن • والوحـــدة ليست أسرع الوسائل لبلوغ أعظم النتائج فحسب ، بل هى – فيما يرى أبو الحجاج – الوسيلة الوحيدة ، فامكانات الوطن العربى الكاملة لا يمكن استغلالها الا باعتبارها كلا لا يتجزأ ، والتمزيق السياسى الذى لاءم المآرب الاستعمارية وتجاهل الطبيعة والمنطق الاقتصادى ، يقف حجر عثرة فى سبيل استغلال هذه الامكانات طبقا لقواعد التنسيق الاقتصادى الشامل • بالاضافة الى أن هذا التمزيق يجعل منفعة الوطن « المحلى » الخاصة تبدو أكثر ضخامة من مشكلة الوطن الكبير • كما أن النفقات اللازمة للتطوير باهظة تنوء بها أية دولة على حدة • ومن المشروعات اللازمة لتحقيق الاستفادة التامة ما قد تنفق فيه ملايين الجنيهات دون ربح مباشر سريع ، كالمواصلات الطويلة التى تصل الى مناطق الامكانات غير المستغلة ، أو تصل البلاد العربية بعضها بالبعض الآخر ، وعملية غرس الغابات فى بعض الجهات الجبلية فى الوطن العربى • لكن سيأتى الوقت الذى تدر فيه كل هذه

المشروعات دخلا منتظما ، وان كان قد يطول ، الا فى نظر حكومة دولة عربية متحددة تدرك المشكلات من جميع أطرافهـا وفقا لخطة قومية عامة شاملة ٠

ولا شك أن التعاون الاقتصادى بين الدول العربية أمر مفيد ؛ ولكن هذا التعاون لا يمكن أن يحقق النتائج الكاملة سواء اتخذ صورة الاتحاد الجمركى أم غيرها من صـور التعـاون ٠ ان عقـد الاتفاقيات وتمويـل المشروعات المشتركة فى ظل هذا التعاون وحده يحتاج الى موافقة عدد كبير من الحكومات ، وقد لا يضمن الاجماع على الموافقة لسبب من الأسباب ؛ هذا بالاضافة طبعا الى النفوذ الأجنبى الذى يتسرب فى ظـل التقسيم ، والذى يهمه القضاء على هذا التعاون أو وضع العراقيل فى سبيله ٠ ثم هناك المصالح الخاصة لهذه الطائفة أو تلك فى هذا البلد أو ذلك ممن يستفيدون من الوضع الراهن ولا يهمهم المصلحة القومية العامة ٠

لكن هذه العقبات تتضاءل أو تختفى فى اطار الوحدة الشاملة ، تلك الوحدة التى تعنى التكتل الاقتصادى بكل مزاياه ، وتيسر وضع المشروعات كلها وتنفيذها كلها وفقا للخطة الموضوعة ، وحينذاك فقط يتحقق تنفيذ المشروعات التى لا تؤتى أكلها كاملـة فى أى قطر معين الا اذا اتخذت اجراءاتها فى كل الوطن العربى أو فى مجموعة من أقطاره باعتبارها كـلا لا يتجزأ ٠ وحينذاك فقط نطمئن أيضا الى أن موجة البعث الاقتصادى ستعم كل الأقطار ، لأن الضعف الاقتصادى فى أى قطر سيكون بمثابة آلم فى عضو من أعضاء جسم واحد ٠

وينبه يوسف أبو الحجاج الى أن طريق البعث الاقتصادى لن يكون مفروشا بالورد بطبيعة الحال ، حتى مع الوحدة ٠ فان بعث منطقة متخلفة يسودها الفقر والجهل والمرض وأصابها التمزيق السياسى بكثير من شروره مدة غير قصيرة لا يمكن أن تكون مهمة هينة ٠ ولكن المستقبل مضمون ، والتخطيط فى مساحة واسعة وعلى امكانات متنوعة يمـكن أن يخلق المعجزات ٠ وهناك جهات كثيرة فى هذا العالم خرجت بسلوك هذا الطريق من حياة راكدة تبدو فيها الطبيعة قاسية والموارد محدودة الى حياة زاخرة ذللت فيها الطبيعة واكتشفت الموارد الجديدة واستغلت فى ظلهـا كل الامكانات ٠

٣ ـ شكيب ارسلان « لبنان »

يعد شكيب أرسلان من المفكرين العرب الذين تركـوا بصماتهم واضحة على جزء كبير من الرأى العام العربى بصفة خاصة والاسلامى بصفة عامة ، وكان هذا التأثير أوضح ما يكون فى فترة ما بين الحربين العالميتين • وكان شكيب أرسلان قد عاصر أوضاع البلاد العربية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، واستطاع أن يستوعب بوعى كل أبعاد التخلف التى عانت منها هذه البلاد من جراء الجمود العقلى من ناحية ونتيجة للضغوط الاستعمارية المتزايدة التى جثمت على أنفاس هذه البلاد • كما عاش أرسلان ما يقرب من ربع قرن فى أوروبا حيث عايش مظاهر التحضر فى المجتمع الأوروبى ، مما فتح بصره وبصيرته على الفروق الحضارية الشاسعة بين المجتمع العربى والمجتمع الأوروبى • ومن خلال المقارنة والتحليل العلمى لتاريخ نمو المجمعات استطاع أن يبلور فى كتاباته ودراساته أسباب تخلف البلاد العربية والاسلامية •

لكن شكيب أرسلان لم يكن مفكرا قوميا بالمعنى الحديث للقومية العربية ، بل كانت أفكاره تقع فى منطقة ما بين دعوة الأفغانى الى الجامعة الاسلامية ، وفكرة الكواكبى فى احياء الاسلام على أساس من العنصرية العربية ، فقد كتب رأيه صراحة فى محاولات دعاة النهوض القومى الذين يسعون الى فصل الدين عن القومية ، وذلك فى كتابه « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » ١٣٨٥ هـ الذى قال فيه :

« يقول بعض الناس : ما لنا وللرجوع الى القرآن فى ابتعاث همم المسلمين الى التعليم ، فان النهضة لا ينبغى أن تكون دينية ، بل وطنية قومية . كما هى نهضة أهل أوروبا • ونجيبهم : ان المقصود هو النهضة ، سواء كانت وطنية أم دينية ، على شرط أن تتوطن بها النفوس على الحب

فى حلبة العلم · ولكننا نخشى ان جردناها من دعوة القرآن أن تفضى بنا الى الالحاد والاباحة وعبادة الابدان واتباع الشهوات مما ضرره يفوق نفعه . فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنبا الى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ ثم انهم عندما يقولون : فى أوروبا نهضة وطنية ، أو نهضة قومية ، أو جامعة وطنية أو قومية ، لا يكون مرادهم بالوطن ، التراب والماء والشجر والحجر ، ولا بالقوم السلالة التى تنحدر كلها من دم واحد ، وانما الوطن والقوم عندهم ، لفظتان تدلان على وطن وأمة ، بما فيهما من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة ، مجموعا ذلك معا » ·

لذلك نجد أن شكيب أرسلان عندما يتحدث عن البلاد العربية فى مرحلة طويلة من كتاباته ، فانه يتناولها من خلال حديثه عن البلاد الاسلامية بوجه عام · فلم يكن الفرق واضحا فى ذلك الوقت بين البلاد العربية والبلاد الاسلامية وخاصة أن الأمة العربية كانت احدى مناطق نفوذ الامبراطورية العثمانية لمدة أربعة قرون · لذلك يتناول أرسلان أوضاع التخلف فى البلاد العربية والاسلامية فيقول :

« ان حالة المسلمين الحاضرة فى القرن العشرين لا ترضى أشد الناس تحمسا بالاسلام ، لا من جهة الدين ؛ ولا من جهة الدنيا ؛ ولا من جهة المادة ؛ ولا من جهة المعنى ، فهم متأخرون عمن يجاورهم ويساكنهم »·

ويوضح السيد زهرة فى دراسة له عن « ملامح الفكر القومى عند شكيب أرسلان » نشرت فى مجلة « الموقف العربى » يناير ١٩٧٩ ، أن أسباب تخلف البلاد العربية قد بلورها شكيب أرسلان فى عوامل ثلاثة اتخذ فى كل منها موقفا محددا · العامل الأول بطبيعة الحال يتمثل فى الاستعمار ، والعامل الثانى فى الجمود العقلى والموقف المتواطىء لرجال الدين ، أما العامل الثالث والأخير فيأتى نتيجة لواقع التجزئة الذى أحال جسم الأمة العربية الى أشلاء متناثرة · كما أنه لا يغفل أسباب الضعف والتخلف الناتجة عن انفصال العرب عن مقومات فكرهم وأبرزها الأخلاق · فهو يرى أن التجارب من قديم الدهر قد أثبتت أن التربية العلمية لا تنهض بالأمة نهوضا حقيقيا الا اذا حصلت فى دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها · فاذا عزم العرب أمرهم على النهوض ، فليس هناك ما يستعينون به سوى أخلاقهم وفكرهم وعقلهم وقدراتهم الذاتية · أما اذا تخلوا عن هذه الأسلحة فليس أمامهم سوى الفناء والانحلال على حد قول أرسلان ، وخاصة أن هذه الأسلحة هى التى صنعوا بها حضارتهم التى بهرت العالم ·

وكان الوعى السياسى عند شكيب أرسلان من الشمول والنضوج بحيث أدرك كل أبعاد مرحلة الانتقال الخطيرة التى مرت بالأمة العربية عندما دالت دولة العثمانيين وبدأ الاستعمار البريطانى والفرنسى فى التهام التركة العربية فقد رأى أن الهدف الاستراتيجى لكل من بريطانيا وفرنسا لا يخرج عن حدود « ابتلاع الدول الاسلامية فحسب » . لذلك ركز أرسلان معظم كتاباته فى تنوير الرأى العام العربى والاسلامى حتى يتنبه ويواجه المخططات الاستعمارية التى تتربص بالأمة العربية ، وقام بالرد على مزاعم الأوروبيين وقال ان الحضارة التى يحملون مشاعلها للبلاد العربية والاسلامية ولواء العدل الأوروبى ليس سوى الغطاء المبهر والمزيف لأطماعهم الاستعمارية الحقيقية . كان هدفهم ابهار الشباب العربى حتى يشلوا تفكيره تماما ويعمونه عن رؤية حقائق الواقع الراهن ، ومن ثم يسير فى موكبهم فاقد الارادة والاتجاه والهدف .

وأشد ما كان يثير حنق شكيب أرسلان أن هذا الخداع الأوروبى كثيرا ما كان يجوز على الشباب العربى . فأية نظرية أو فكرة أو شطحة أوروبية هى حقيقة رياضية أو قضية مسلمة . لكن حنق أرسلان يزول عندما يحسن الظن بهؤلاء المبهورين الذين يفتقرون الى التوجيه والتنبيه والتمحيص ، وهذ هى مهمة رواد الفكر القومى من أمثال أرسلان نفسه. وتبدو ثقته فى الشباب العربى عندما يوضح أن افتتان الناشئة من الشرقيين بعدل أوروبا وانصافها ومعالى نزعاتها قد خف كثيرا بعد الحرب العالمية الأولى ــ التى يسميها الحرب العامة ، « عندما تجلت عرائس الحقائق على مناص المذابح ، وقشعت غيوم الأوهام التى كانت متبلدة فى الشرق من جهة تلك الفضائل وهاتيك المعالى » .

ويبدو مفهوم أرسلان التقدمى للدين فى كل الآراء التى نادى بها ، وكانت فى وقتها بمثابة ثورة قومية فكرية لأن الأمة العربية كانت خارجة لتوها من قرون التخلف والتحجر والجمود التى عاشتها تحت نير الامبراطورية العثمانية .. ولا غرو فى ذلك فقد تأثر الى حد كبير بآراء الرائدين العظيمين : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فقد التقى بهما فى شبابه ، وصاحبهما مدة ليست بالقصيرة وعلى يديهما تعلم كيف يشرع أسلحته الفكرية ضد الاستعمار والجمود العقلى . وهذا ما يتضح جليا فى كتابه « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » . ويقول السيد زهرة فى دراسته :

« ان أحد أسباب التأخر الأساسية لديه ، الجمود العقلى لدى علماء الدين ومحاربتهم للتفكير العقلانى باسم الدين . ويعجب الرجل كيف يحارب علماء الدين العلوم الطبيعية والرياضة والفلسفة بحجة أنها من

علوم الكفار ؛ ويتهكم على موقفهم هذا فيقول : « وكأن المسلمين لم يوجدوا في الدنيا الا عمله أو أكره (عمالا وأجراء) يشتغلون بأيديهم ولا يشتغلون بعقولهم » ٠

الأمر الثانى الذى يأخذه على رجال الدين هو موقفهم من الامراء « وتشجيعهم لانحطاط هؤلاء الأمراء ، وسكوتهم على الضلال والطغيان » ثم يقول : « هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء وعلو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة ، وآراءهم واثقة بالشريعة ٠ والفساد بذلك يعظم ، ومصالح الأمة تذهب ٠٠ » ويجمل وجهة نظره فى عبارة واحدة فيقول « لقد أضاع الاسلام جاحد وجامد » ٠

ويتجلى ايمان أرسلان العميق بالوحدة العربية فى نظرته سواء الى ماضى الأمة العربية أم الى حاضرها ٠ بالنسبة لماضيها يقول : « ان كل عربى صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه ويتعلم مناقب أجداده ويتدارس معالى هممهم مع اخوانه ، ويترك تراثا خالدا لأعقابه » ٠ فقد كانت الوحدة العربية فى الماضى تعبيرا عن مجموعة من العوامل مثل الدين والحضارة المشتركة والوعى الجماعى لأمة متميزة ٠ أما بالنسبة لحاضر الأمة العربية فيرى أرسلان أن أكبر مأساة قومية تواجهها تتمثل فى واقع التجزئة العربى وعامل الشقاق والخلاف بين البلاد العربية ٠ يقول :

« وانى لأجد هذا الشقاق فى كل أمة ، ولا يخلو منه مكان ٠٠ ولكن اذا كان الشقاق عاما ، فلا شك ان تسعة أعشاره عند المسلمين والعشر الواحد عند سائر الأمم بأجمعها ، وان فسح لى الوقت لأكتب كتابا اسمه الفوضى الاسلامية وما جنته للمسلمين » ٠

كان شكيب أرسلان يعتبر أن الوحدة هى الخطوة الأولى الضرورية لكى يخرج العرب من الدوامات التى أغرقتهم سواء فى ظلام الحكم العثمانى أم فى جحيم الاستعمار التقليدى ٠ فلا يمكن أن يحصل العرب على حريتهم وانطلاقتهم صوب آفاق النهضة والعلم والبعث بدون تحقيق وحدتهم بطريقة أو بأخرى ٠ فقد كانت كل كتب ومقالات ودراسات ارسلان تقع تحت الشعار الذى ردده دائما : « العرب أمة واحدة ، لها تاريخ واحد ؛ ومصالح واحدة ؛ وآمال واحدة » ٠

ويختم السيد زهرة دراسته عن شكيب أرسلان بقوله :

« لقد ترك شكيب أرسلان كما هائلا من الكتب والمقالات والدراسات، بحاجة الى اعادة دراسة من الباحثين لاستكشاف الفكر القومى الأصيل لدى الرجل ، خاصة وأن وضعية التخلف العربى الثلاثية الأبعاد ، والتى

درسنا وتحدث عنها ، مازلنا نعانى منها حتى الآن · فمازلنا نعانى من آثار الاستعمار سواء بمرائه القديم أم بشكله الجديد · ومازلنا نعانى من وضعية الجمود العقلى والتحجر الذهنى · ومازلنا نعانى أيضا من وضعية التجزئة والتشبث العربى » ·

وهذه مأساة قومية تفوق أية مأساة أخرى عرفتها الأمم المختلفة على مر التاريخ الانسانى · اذ كيف يكون السبيل واضحا بهذا الشكل المحدد أمام أمة من الأمم على مدى ما يقرب من القرن ، وتظل مستكينة لكل التيارات المتضاربة والأعاصير الوافدة عليها من خارج حدودها دون أن تتخذ خطوات حاسمة فى سبيل بلورة وحدتها والانطلاق الى مستقبلها ؟! انها ظاهرة مأسوية شاذة تتطلب كل جهود المفكرين العرب المعاصرين على اختلاف مشاربهم لكى يقوموا بدراستها دراسة شاملة مستفيضة ، ويحللوها تحليلا علميا عميقا بهدف الالمام بكل أبعادها والوصول الى جذورها الراسخة فى التربة العربية · فلم يعد لدينا وقت نضيعه أكثر من ذلك . فالزمن يمر سريعا ، والعالم كله يلهث نحو المستقبل ، فى حين نصر نحن على فتح ملفات صراعاتنا الماضية ، والنتيجة أننا مازلنا نسير فى الطرق المسدودة ، وندور فى الحلقات المفرغة ، ونجتر الأوهام القديمة، ونضل فى المتاهات الجانبية ·

٤ ـ أديب اسحق (سوريا)

أديب اسحق كاتب وشاعر وخطيب مشهور ، استطاع أن يستشف آفاق القومية العربية فى مرحلة مبكرة من القرن التاسع عشر • واذا علمنا أنه مات عام ١٨٨٥ ، أى فى وقت كانت ترزح فيه الأمة العربية تحت نير الدولة العثمانية ، فاننا ندرك الى أى حد كان أديب اسحق رائدا فى بلورة هوية الأمة العربية مما جعل الوعى العربى يراجع نفسه ويفكر من جديد فى العلاقة بين الدولة العثمانية المسلمة وبين الأمة العربية التى تجمع الى جانب أغلبيتها المسلمة أقليات مسيحية ويهودية ، وتتفرد بعناصر اللغة والتاريخ والجغرافيا والتراث والآمال والآلام المشتركة التى تمنحها شخصيتها القومية المتميزة فى مواجهة الدولة العثمانية •

وقد عرف أديب اسحق الأمة فقال : « والأمة والجيل فى كل حى من الرجل قومه وفى عرف أهل السياسة الجماعة المتجنسة جنسا واحدا » • وميز أديب اسحق بين أمتين : الأمة العربية وهى قوم واحد فى حد ذاتها ، والأمة الاسلامية وهى عدة أقوام يجمعها دين واحد • قال : « انما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاز الى جنس واحد يتوالدون فيه ويتسمون به » •

ولا شك أننا نستطيع أن نجد ثغرات عديدة فى مفهــوم أديب اسحق للقومية العربية • فمثلا لم يفرق بين القومية والجنسية ، بين وحدة الكيان ووحدة الجنس • كذلك لم يركز على اللغة العربية كعنصر موحد لهذه الأمة لأنه عاش فى عصر الدولة العثمانية حين كانت اللغــة التركية هى اللغة الرسمية المفروضة على الجميع • ولكن اذا وضعنا فى اعتبارنا الظروف التاريخية المظلمة التى عاشها أديب اسحق ، فان ريادته فى مجال الفكر القومى لا يمكن انكارها ، وخاصة أن فكره تطور مع الزمن

بحيث يكاد يلمس كل القضايا العربية المعاصرة التى لازالت شغلنا الشاغل في هذه الأمة ·

كان ايمان أديب اسحق بالقومية العربية ايمـــانا عمليا تطبيقيا · فقد هاجر الى مصر وأسهم بقسط وافر فى نهضتها الحديثة سواء على المستوى الفـكرى السياسى أم الأدبى الفنى · ولم يجد أية فوارق بين الشام ومصر ، فهذه البقاع كلها وطنه · وكان ايمانه بريادة مصر العربية لا يتزعزع ، ذلك أن نهضة مصر لا تعنى سوى نهضة العرب كلهم · ومن يريد أن يكون مؤثرا فى حياة الأمة العربية ، عليه أن يكون ايجابيا فى نظرته وسلوكه تجاه مصر ·

ولحسن الحظ فقد تم جمع منتخبات مما ترك هذا الأديب والشاعر والخطيب فى كتاب باسم « الدرر » برز فيه ايمانه المبكر بالوحدة العربية حين قال :

« ألم يكن فى هذه الأقطار نفر من أولى العزم تبعثهم الغيرة والحمية ، على جمع الكلمة العربية فيتلافون حولها قبل التلاف ·

بل ما ضر زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصـــوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد ·· فهلموا ننشد الضالة ، ونطلب المنهوب · لا نقوم فى ذلك بأمر فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب · فنحن في الوطن اخوان تجمعنا جامعة اللسان : فكلنا وان تعددت الأفراد انسان ·

أيحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد ، أم لا يعلمون أن مثل هذا الاجتماع منزه عن المقاصـــد الدينية ، منحصر فى العصبة الجنسية والوطنية ، مؤلف من أكثر النحل العربية · يزلزل الدنيا اضطرابا ، ويستميل الدول جـــذبا وارهابا ، فتعود للعرب الضالة التى ينشدون ، والحقوق التى يطلبون » ·

ومن الواضح فى هذا المقتطف أن أديب اسحـــق تطور فى فكره القومى العربى لدرجة دعا فيها الى وحدة أمة العرب على اختلاف أديانهم ، وعلى أساس من وحدة لغتهم ، ووحدة تاريخهم وحضارتهم ، وارتباطهم جميعا بمصالح وأهداف قومية عليا ولذلك كان فى نظر الكثير من المؤرخين من كبار التحرريين الاصلاحيين الذين لم يقبلوا الحكومة الاتوقراطية التى كانت قائمة فى أيامهم ، وكانوا مقتنعين تماما بأن التحـــرر من الادارة الحكومية العثمانية ، ضرورة ملحة لرفاهية مواطنيهم وتقدمهم ·

ويرى حازم زكى نسيبة فى كتابه « القومية العربية » أن القومية العربية الحديثة مدينة بولادتها لحركة كان هدفها الرئيسى الاطاحة بحكم الفرد (الأوتوقراطية) • وقد بدأت أول ما بدأت ، احتجاجا على المركزية، وذريعة الى ادخال الوسائل الديمقراطية فى الحكم • وظلت القومية العربية حتى العقد الثانى من هذا القرن ، مجرد عرض طارىء الى جانب الحركة الشاملة العامة فى ذلك الوقت : حركة الاصلاحات الدستورية • ولم تحل النزعة الانفصالية محل النزعة الاصلاحية الا بعد أن تحطمت الآمال فى الاصلاح تحطما عنيفا قاسيا • فالقومية العربية اذن ، وديمقراطية القرن التاسع عشر التحررية كانتا فى بواكيرهما ، متشابكتين أوثق التشابك •

وعلى الرغم من قصر الفترة الى عاشها أديب اسحق (١٨٥٦ — ١٨٨٥) أى أنه لم يتم الثلاثين من عمره ، فان حياته كانت زاخرة بالانجازات القومية الفكرية الوفيرة مثل اصدار عدد من الصحف فى كل من بيروت والقاهرة وباريس ، وترجمة بضع قصص عن الفرنسية ، وكتابة كثير من المقالات والأبحاث فى القومية والوطنية ، تشكل فى الغالب ، أول تناول فكرى منظم لهذه الموضوعات بالعربية • ولذلك أعتبر اسحق أحد الأئمة الأوائل الذين بلوروا مفهوم القومية العربية ، كما كان فى الوقت نفسه من أقوى دعاة التحرر والنزعة الدستورية وأرسخهم ايمانا بها ، فهو يقول مثلا فى بحثه عن الوطنية :

« الوطن فى اللغة محل الانسان مطلقا ، فهو السكن بمعنى أن تقول : استوطن القوم هذه الأرض ، أى اتخذوها سكنا • وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب اليه ، ويحفظ حقك فيه ، ويعلم حقه عليك، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك • ومن أقوالهم فيه : لا وطن الا مع الحرية ولا وطن فى حالة الاستبداد » •

ويستشهد أديب اسحق بتعريف رومانى قديم للوطن ، يعتقد أنه يمكن تطبيقه فى أى زمان وفى أى مكان • يقول التعريف : « حد الوطن المكان الذى للمرء فيه حقوق وواجبات سياسية » ، ثم يوضح أن هذا الحد لا يناقض حتمية ربط الحرية بمفهوم الوطن ، بل هما وجهان لعملة واحدة ، وكل واحد منهما متمم للآخر ، فالحرية فى جوهرها ، انما هى حق القيام بواجبات معينة ، فان لم توجد ، فلا وطن لانعدام الحقوق والواجبات السياسية ، وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق ، وهما شعار الأوطان التى تفتدى بالأموال والأبدان ، وتقدم على الأهل والخلان • وأما السكن الذى لا حق فيه للساكن ولا يتمتع منه بالأمان فان أديب اسحق يصفه بأنه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلا •

ويبدو وعى أديب اسحق العميق والشامل بالعقبات التى تحول دون بناء مجتمع حر ديمقراطى ، ولكننا لا نرى أية اشارة ولو عابرة فى كتابه « الدرر » الى أى تراجع عن ايمانه بهذا المجتمع الحر واعتباره اياه مثلا أعلى يكافح فى سبيل اقامته • ويرى أن نجاح مثل هذا المجتمع ينهض على عدة عوامل ضرورية مثل العادات والقوانين والظـروف والآداب الاجتماعية • ومن هنا كان تحليل اسحق المسهب الدقيق للعـلاقة بين الأخلاق والسياسة ، برغم اعترافه بأن لكل منهما مجاله الخاص المستقل بذاته • أما العلاقة العضوية بين الأخلاق والسياسة فترجع فى نظره الى أن الفلسفة السياسية مرادفة للتقييمات المعنويـة والأخـلاقية ، بمعنى أنهما تنشدان اكتشاف العدالة ، كمقياس ومعيار للفضيلة ، وأن ما من أمة أو دولة تقوم بدون انتظام أخلاقى ذاتى وتربية عامة • يقول فى كتاب « الدرر » :

« ان الحرية التى هى غاية الحياة السياسية والكمال المدنى لا تكمل ولا تحصل الا بالفضيلة ، فان المملكة الحرة ، ان هى الا بلاد تجوز فيها أمور كثيرة محظورة على الناس فى بلد غير حر ، من مثل الاجتماع والخطابة ، والكتابة ، والغدو ، والرواح ؛ الخ ••• فان وجدت هذه الحرية مع فساد الطباع وسفالة النفوس واستحكام الجهل ، كانت مدرجة للخلل والفساد وذهاب الحقوق ؛ وقيام بعض الناس على بعض يتنافسون، فيغلب القوى الضعيف ، وتنقلب الحرية استبدادا بيد الأقوياء وتنـوب التحزبات عن الرأى العمومى • والجملة ، أن السياسة لا تصـلح الا اذا بنيت على الحرية ، والحرية لا تحصل الا بالفضيلة » •

وكان اسحق يشك كثيرا فى جدوى الأشكال والمؤسسات التى تدعى الديمقراطية فى حين أنها لا تستند الى قاعدة راسخة من تأييد الشعب ؛ وقد انتقد اشتراك النواب العرب فى « مجلس المبعوثـان » (البرلمان العثمانى) لأن هذا المجلس كان فى الواقع ، هبة منحت من عل ، بحيث رأى اسحق أن فعاليته تعطلت وأصبحت غير ذات موضوع ، فقد كان فى استطاعة الذين أوجدوه ، طالما أن أحدا لا يحاسبهم ، أن يوقفوا عملياته دون أن يخشوا رقابة الجمهور ، ذلك أن الذى يهب فى امكانه أن يمنع •

وكانت المساواة عند أديب اسحق ضرورة ملحـة لنجـاح النظـام الديمقراطى فى الحكم ، ويؤكد على أنه يعنى بذلك المساواة أمام القانون لا مساواة الحال ، ولم يكن على وفاق مع المتطرفين من دعاة المساواة الذين ينادون بالغاء الطبقات ، ومنع المكافآت عن ذوى الفضل ، فان مثل هذا التفاوت سيظل قائما ما دامت الكائنات البشريـة على ما هى عليه •

والمساواة الحقيقية انما تكون بنبذ التمييز والتحيز ، ونزاهة القوانين ، وتكافؤ الفرص ، وعدالة الحكم التنفيذى ·

ولم تكن مفاهيم أديب اسحق فى الحكم والسلطة مفاهيم مطلقة . بل كان يؤمن بالنسبية ، ويرفض التعميمات التى تدعى الانطباق على جميع الأمكنة والأزمنة :

« لا تفلح الجمهورية فى الصين ، كما لا تفلح الملكية الأوتوقراطية فى انجلترا ، فالنظام الجمهورى الذى هو ، فى جوهره ،حكم الشعب للشعب ، لا يفلح فى بلد يخيم عليه الجهل ، بينما لا تناسب الملكية المطلقة شعبا بلغ درجة عالية فى الحضارة والثقافة ، واذا أتيح لمثل هذه الحكومة أن ترى الوجود ، فانها ستلاقى المصير الذى لقيته حكومات لويس السادس عشر ، وشارل العاشر ، ونابليون الثالث فى فرنسا » ·

أما القيمة المطلقة عند اسحق فتتمثل فى الحرية والعدل · ذلك أن ازدهار بلد ما ، منوط باصدار القوانين العازلة ، وعدم التحيز فى تنفيذها ، وأن من واجب كل حكومة تهتم جديا بتقدم شعبها ورفاهيته ، أن تسن من القوانين العادلة ما يلائم أحواله الخاصة ، وأن حكم الشورى ليس جديدا ، فالتاريخ والعقل كلاهما يؤكدان أن أصوله راسخة فى أعماق الماضى · وكان يؤمن أن انتصار هذا الحكم فى العالم أمر محقق . وتاريخ الفكر القومى العربى يؤكد بدوره هذه الحقيقة الراسخة ·

٥ ـ جورج أنطونيوس « فلسطين »

يعد جورج انطونيوس من الرواد الأول والآباء المؤسسين لبناء الفكر القومى العربى . فقد استطاع فى مرحلة مبكرة أن يؤرخ للقومية العربية بأسلوب منهجى رصين فى كتابه « يقظة العرب » الذى كتبه بالانجليزية ونشره فى لندن عام ١٩٣٨ ، واستعرض فيه تاريخ القومية بوصفها عقيدة وحركة منذ أول نشوئها فى القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٣٦ . وكان على حيدر الركابى قد ترجم الكتاب لأول مرة الى العربية فى عام ١٩٤٦ ، ثم قام ناصر الأسد واحسان عباس بترجمته ترجمة جديدة دقيقة عام ١٩٦٢ مع مقدمة مسهبة تعقبت تاريخ القومية حتى عام ١٩٥٢ كتبها نبيه أمين فارس .

وقبل كتاب « يقظة العرب » لم يحاول أحد وضع دراسة علمية منهجية لفكر القومية العربية الحديثة .. ويبدو أن الباحثين الغربيين المتضلعين فى قضايا العالمين العربى والاسلامى ، يحجمون عـن الاعتراف بأن هذه الحركة قوة خلاقة باقية متمكنة . واذا حاولوا دراستها فانهم يلونون الحقائق باللون الذى يتفق مع أهوائهم ، ويلوون عنق الواقع الراهن فى محاولة لاظهار حركة القومية العربية على أنها ضرب من الوهم القومى أو تقليد أعمى للقوميات التى عرفتها أوروبا ، ولذلك فهم يوحون دائما بل وينادون بأن هذه الحركة عابرة ، مؤقتة ، قصيرة العمر ، سهلة المحق . فقد أدركوا أن هذه الحركة تمثل تهديدا ماديا ملموسا لمصالحهم فى تلك المنطقة الاستراتيجية الحيوية فى عالم اليوم .. ومن هنا كانت الحرب الخفية والظاهرة التى أعلنوها على الفكر القومى العربى .

من هنا كانت ريادة جورج انطونيوس فى ارساء أساس الفـكر القومى فى العالم العربى الحديث . لم يكن يقصد بالقومية مجرد الانتساب

السلبي الى قوم ، ولا مجرد الوعي الجزئي لفريق من العرب في بعض ديارهم بتأثير ظروف خاصة ، بل أراد أن يلم بتاريخ القومية العربية الحديثة منذ ظهورها بوصفها عقيدة وحركة ، عقيدة لها معالمها الظاهرة الثابتة ، وحركة هادفة الى أغراض معينة متمثلة في تقدم الأمة العربية وتطورها وازدهارها ٠

ويرى جورج انطونيوس أن المفكرين القوميين العرب في بيروت ثم في دمشق كان لهم فضل القيام بدور الطليعة في حركة القومية العربية التي بدأت على شكل يقظة أدبية تستعيد أمجاد الأدب العربي الكلاسيكي ٠ من هؤلاء الرواد المعلم ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني والشيخ يوسف الأسير في بيروت والشيخ طاهر الجزائري في دمشق ٠ ولم يكن الهدف الحقيقي من ممارسة الكتابة الأدبية ، المتعة الفنية ، بل كان الكفاح السياسي والبحث عن الهوية العربية الأصيلة هو المقصود بهذه الحركة الأدبية ٠

وقد واكب البعث اللغوي والأدبي والتاريخي في بلاد الشام في تلك الحقبة انشاء المطابع والجمعيات الأدبية ، وتأليف القواميس الحديثة ، وانتشار الصحف والمجلات العربية ، واحتكاك الفكر العربي بالفكر الغربي عن طريق المبشرين ، والمدارس ، والكليات التي اقامتها بعض دول الغرب أو بعض الارساليات الدينية ٠ لذلك يعد هذا البعث الثقافي والفكري المظهر الأول لبروز القومية العربية من حيث كونها عقيدة تجمع أبناء العروبة وتميزهم عن غيرهم من رعايا الدولة العثمانية ٠ ولقد تكونت في هذه الفترة بعض الجمعيات السرية التي طالبت بمنح سوريا الاستقلال والاتحاد مع جبل لبنان ، ودعت الى الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد ، ونادت برفع الرقابة والقيود التي تحد من حرية النشر والتعبير ، وألحت على استخدام القوات المجندة من أهل البلاد في المهام الداخلية فيها فقط ٠ ويقول جورج انطونيوس عن هذه المنشورات التي عبرت عن هذه المبادىء والمطالب انها كانت :

« واضحة في تطورها من التعميم الى التخصيص ، ومن التنديد الخطابي البلاغي بفساد الحكم التركي ، الى صياغة برنامج محدد ذي أهداف وطنية تظهر فيه ظهورا واضحا ، ثمار الجهود التي بذلها اليازجي لرفع شأن اللغة العربية ، والتي بذلها البستاني في محاربة الجهل ٠ وكان ابراهيم اليازجي ، ابن ناصيف ، عضوا في هذه الجمعية ، ومما يزيد في قيمة هذه المنشورات أن كل واحد منها ينتهي ببيت من أبيات القصيدة التي أنشدها قبل اثني عشر عاما في اجتماع سري عقدته الجمعية العلمية السورية » ٠

ويوضح جورج انطونيوس الريادة البطولية التى قام بها اليازجى والبستانى والأسير والجزائرى والكواكبى وغيرهم فى مجال اعادة الوجه العربى الأصيل للأمة العربية وهى تحت وطأة الحكم العثمانى ، فنرى كيف جاهدوا وكافحوا فى مناخ مشبع بضيق أفق التعليم وجمـــوده ، وندرة الكتب التى يمكن أن تدفع عجلة التطور الثقافى ، واضعاف وحدة الفكر بين البلاد العربية ، خاصة وأن آلات الطباعة كانت فى حكم العدم ، ولو أن بعض الأديرة كانت تستعمل المطابع اليدوية منذ القرن الثامن عشر ، لكن انتاج هذه المطابع كان قليلا ويكاد يكون منحصرا فى كتب الصـلاة والعبادة ٠

أما اللغة العربية ذاتها فكانت فى حالة تدهور ، وأصبحت التعبيرات الركيكة الشائعة على ألسنة الناس تهدد اللغة الفصحى بالطغيان عليهـا وتشويهها ، ومما زاد فى خطورة الحال أن الناس أهملوا آداب العصور الذهبية فى الاسلام ، فبقيت فى زوايا النسيـــان ، واختفت التعبيرات الأدبية الرصينة ، وضعف الأثر الروحى لتلك الثقافة الرفيعة ٠ ومما زاد فى اضعاف الوحدة الفكرية بين الشعوب العربية خلال الحكم التركى أن اللغة التركية كانت اللغة الرسمية ولغة التحرير لبعض أنواع المراسلات ، بل وأصبح للتركية خلال القرن التاسع عشر نظام تعليمى رسمى يقوم على تدريسها بالمدارس ، وفضلا على ذلك فان الجرائد والنشرات العربية لم يكن لوجودها أثر قط ٠

كذلك فان فكرة التضامن القومى فى العالم العربى لم تكن قد نضجت بعد ٠ يقول جورج انطونيوس :

« فالانحطاط الذى أصـاب العرب ، وسـوء الادارة التى منى بها العرب خلال قرون طويلة ، أورثت فى روح الجماعة عندهم وهنا ، وأوجدت فى انسجامهم القديم خللا ٠٠ ثم ان القوة الموحدة التى ولدتها عبقريـة النبى محمد بقيت فعالة ما دامت السيطرة العربية قائمة ، فلما مالت هذه السيطرة الى زوال ضعف أثرها الموحد ، وراحت الجماعات المختلفة التى صورتها تلك القوة فى كل فكرى متماسك الأجزاء ، تنفصل بالتدريج ، لتؤلف وحدات اقليمية ومذهبية ، بحسب المنطقة التى تقطنها ، أو المذهب الذى تعتنقه » ٠

يضاف الى ذلك أن العرب فى تلك الحقبة ، وخاصة فى القرن التاسع عشر ، وان كانوا يشعرون بأنهم أمة تختلف عن الاتراك ، فانهم لم يكونوا بعد مهيئين للاقدام على عمل مشترك باسم القومية العربية ضد خليفـة المسلمين ، فى الوقت الذى كان الشعور الدينى فيه هو الغالب على

الشعور القومي • فقد كان من المحتمل أن تكون القومية ضمن عناصر العقيدة الدينية ، أما العكس فكان من رابع المستحيلات • وخاصة أن فكرة الجامعة الاسلامية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني ، كانت في نظر عبد الحميد الذى تولى السلطنة العثمانية في عام ١٨٧٦ ، وسيلة لتمكين نفوذه ومركزه في أذهان رعاياه باعتباره سلطان المسلمين وخليفتهم ، كما أنه وجد في تزعم الدعوة الى انشاء الجامعة الاسلامية أداة لمواجهة الظروف التي أحاطت بالدولة العثمانية ، اذ أنه اعتلى عرش السلطنة في وقت كانت الامبراطورية التركية في أشد حالات الارتباك في الداخل والخارج •

ولم تقتصر دعوة عبد الحميد على الجهود الفكرية ، بل توج هذه الجهود بمد خط حديد الحجاز من دمشق الى المدينة • ويرى انطونيوس أن هذا المشروع كان من نواح عديدة لعبة سياسية رائعة لأنه خلق في جميع أنحاء العالم الاسلامي حماسا كبيرا ، وعمل أكثر من مشاريع عبد الحميد الأخرى على اعلاء شأن الخلافة كما أنه من الناحية العسكرية أوجد له واسطة للنقل البرى تحمل جنوده الى الجزيرة ومنها • وبالطبع فقد أدى كل هذا الى تأخر بزوغ حركة القومية العربية التي طغت عليها حركة الجامعة الاسلامية في تلك الحقبة المضطربة من تاريخ الأمة العربية •

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن طور الانفصال أو التعبير المستقل لحركة القومية العربية لم يحدث فجأة ، بل نما بشكل تدريجي ، وان جاء نموه سريعا وطبيعيا : فقد بدأ أول تعبير له — في نطاق محدود — في النشرات الثورية — التي أشرنا اليها من قبل — وكانت من اعداد الجمعية السرية التي تألفت في بيروت عام ١٨٧٥ • وقد تضمن أحد هذه المنشورات أول برنامج سياسي عربي مدون ، ويبدأ بالتهجم الحماسي على سيئات الحكم التركي واتهامه بسعيه للقضاء على اللغة العربية • كما دعت المنشورات الى اعتبار تولى السلطان الخلافة اغتصابا لحقوق العرب ، واتهمت الاتراك بالتعدى على الشريعة الاسلامية ، كما أنها طالبت بمنح الاستقلال لاتحاد يضم كلا من سوريا ولبنان ، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد ، والغاء الرقابة وكل القيود التي تحول دون حرية الرأى وانتشار العلم • وبذلك كانت دعوة جمعية بيروت السرية بمثابة النواة الأولى التي بعثتها حركة العرب وهي بعد في مهدها ، كما أن الجمعية نفسها كانت أول هيئة تتشكل وهدفها الأول سياسي •

ولم يكن حظ الحركة القومية العربية بعد الحرب العالمية الأولى بأكبر من حظها تحت نير الامبراطورية العثمانية • فقد كانت المحصلة النهائية للحرب التي قاتل فيها العرب الى جانب الحلفاء المنتصرين تحويل أبناء

الأقطار العربية من مواطنين الى رعايا خاضعين • واذا كانت ثورة العرب على الامبراطورية العثمانية بهدف تحررهم القومى ، فالواقع أنهم كانوا داخل الامبرطورية شركاء مواطنين لا رعايا خاضعين ، وظلوا حتى نهاية القرن التاسع عشر ، أى عند بزوغ حركة القومية العربية ، لا يشعرون بذلة فى مواجهة الاتراك أو غيرهم ؛ وكان فى استطاعتهم أن يرتقوا أعلى المناصب فى الدولة وفيهم من ارتقاها •

ولم تكد الحرب العالمية الأولى تلقى أوزارها ؛ حتى وجدت معظم الأقطار العربية نفسها محتلة ، خاضعة ، مجزأة بأيدى حلفائها فى اثناء الحرب ، ثم فرض عليها قسرا وعنوة ، حكم استعمارى تقنع بقناع الانتداب وكانت نتيجته تقطيع أوصال الشرق العربى ، ولا سيما تمزيق سوريا الطبيعية (سوريا وفلسطين ولبنان) ، مما اتسم بأعظم الخطر على حركة القومية العربية ومستقبل الأمة العربية • وكانت المنطقة كلها ــ باستثناء بعض الأراضى الواقعة على شطآن شبه الجزيرة العربية ــ تشكل جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وبما أنها نظمت فى ولايات متساوية من حيث ارتباطها بالادارة المركزية فانها كانت تتمتع بوضع سياسى متماثل • وكان من نتيجة التسوية التى تمت بعد الحرب ، أن نشأ عدد ــ ليس بالقليل ــ من الدول والكيانات الجديدة التى تتراوح أوضاعها السياسية بين استقلال جزئى وتبعية تامة •

وقد عكست النظريات العربية الدستورية وتطبيقاتها العملية فى الحياة السياسية هذه الحالة من التجزئة والتبعية ، وكانت مرتبطة ارتباطا لا انفصام فيه بالعوامل الخارجية التى كانت بدورها متنوعة ومتغيرة ؛ وهكذا تراوحت نظم الحكم العربية بين الملكية الدستورية البريطانية والجمهورية البرلمانية الفرنسية لمجرد وقوع هذه النظم تحت سيطرة الاستعمار البريطانى أو الفرنسى • ومن ثم كان على حركة القومية العربية أن تخوض صراعا أكثر مرارة وقسوة من ذلك الذى خاضته تحت سيطرة الحكم العثمانى • لكن كل هذه الصراعات المتجددة كانت أكبر دليل عملى على أصالة القومية العربية ورسوخها ، فقد استطاعت الصمود والتصدى لكل محاولات تصفيتها من الداخل والخارج لأكثر من قرن كامل •

ويرى جورج انطونيوس أن رحابة فكر القومية العربية كانت من أهم العوامل فى رسوخه واستمراريته • وهذا يعلل الدور الرئيسى الأكيد الذى لعبه المسيحيون العرب فى هذا الفكر القومى وخاصة فى طوره الطليعى الأول • فقد كان للعنصر المسيحى شأن كبير يتركزه فى أكثر البقاع تقدما وسكانا من العالم العربى بحيث تجاوز تأثيره قوته العددية ،

وكان اسهامه فى الحركة القومية فى غاية الأهمية · وقـــد أصبح الآن مقررا ــ لدى قادة الفكر القومى ، على الأقل ــ ضرورة ابعاد الدين عن السياسة ، كى تنصهر الأمة فى بوتقة تقدمية واحدة ، على نحو ما فعل الغرب فى أعقاب الاصلاح الدينى ·

وهذا ليس بالشىء الجديد على الفكر القومى العربى الذى نادى فى القرن التاسع عشر بمبدأ « العروبة الجامعة » على أساس أن العرب ، مسلمين ومسيحيين ، هم غير الترك ، وأنهم بلغتهم الغنية التى أخذت ينابيعها الزاخرة تتدفق من جديد ، وتاريخهم العريق المفعم بالمفاخر الذى أخذ يبدو جليا من جديد ، وأدبهم الرفيع الذى انبعث جديدا ، أحرياء بأن يكون لهم كيانهم القومى الخاص بهم ، المستقل عن الدولة العثمانية ، وبالتالى عن أية قوة أخرى خارجية غير عربية ·

فاذا كان أجدادنا فى القرن الماضى قد توصلوا الى هذا المفهوم القومى التقدمى ، فكم بالحرى بنا أن نوسع من هذا المفهوم من أجـل مستقبل عربى مشرق · ان التاريخ عامل توحيد لا تفرقة ، ولكن بشرط أن يتسلح العرب بالوعى القومى الناضج المسئول · فالمسألة ليست مسألة جعـــل الحاضر على صورة الماضى ، بقدر ما هى جعل الماضى من جديد ، فى صورة الحاضر ·

٦ ـ كامل الباقر « السودان »

كامل الباقر من المفكرين القوميين العرب الذين عالجوا قضايا القومية العربية فى السودان من خلال مشكلات التعليم والثقافة والديمقراطية وكل ما من شأنه بناء الانسان العربى الجديد فكريا وماديا وروحيا ٠ وهو يرى أن القومية العربية لن تنهض الا على أكتاف الشباب العربى الذى يعتبره الطاقة الفياضة القادرة على حمل تبعات المستقبل ٠ ففى كتابه « فى معركة الثقافة » ١٩٦٩ يوضح كامل الباقر أن العلم الذى امتدت يده الى كل ناحية ، لم يعد ينظر الى الشباب كما كان ينظر اليه الشعراء الحالمون ٠ فلم يعد الشباب أحد الزاويا لثالوث المفسدة كما فهمه بعض الأقدمين ، ولم يعد الشباب أحلاما خاوية تعيش فى الفراغ ، بل أصبح الشباب فى نظر العلم الحديث مادة طيبة للبناء ، ورصيدا مركزا من خامات الحياة الانسانية بالغ النفع ٠

والشباب الذى يمثل التربة الخصبة فى حياة الانسان ، لا بد له من زراع مهرة ، وعمال بررة ، يتعهدون جذوره بالسقى حتى تقوى الشجرة وتسمق ، ويشذبون فروعه بالتهذيب حتى تتلاحق وتتناسق ، ويقودون اتجاهاته المتصارعة بالحكمة حتى تنسجم وتسمو ٠ وهنا يظهر دور التربية الخطير فى عملية التشذيب والتهذيب والقيادة ٠ ولا شك أن البيت والمدرسة والمجتمع ـ كل فى محيطه ـ يمثل الثالوث الموجه ، والقوى المهذبة ، والأجهزة المشذبة ، وبمقدار نجاح هذا الثالوث التربوى فى رسالته تستثمر هذه الأرض البكر ٠ غير أن الباقر يأسف لأن هذه الثروة البشرية الطائلة كثيرا ما تتبدد فلا نستغلها فى العالم العربى ، فتكون النتيجة هذا التواكل والكسل والاستسلام والتردد والهروب من مجابهة الواقع ٠

لذلك يرى الباقر أن أجهزة التعليم والتربية والثقافة فى الوطن العربى لم تحقق بعد ما ننتظره منها ، أولا كخدمة قومية تهدف الى دعم مقوماتنا وتأكيد ذاتيتنا ، وثانيا كمصدر للاستثمار يحول الثروات البشرية عندنا الى طاقات متفجرة تعمل وتنتج . ويبدو أننا مازلنا نعانى من آثار فلسفة الاستعمار فى الماضى عندما كانت الموجه لسياسة التعليم عندنا ، واستهدفت اضعاف مقومات قوميتنا العربية ، فكانت تعمل لمحاربة لغة البلاد ، واحلال لغة أخرى محلها . وكانت تحاول تشكيك الناس فى مقدساتنا ، واظهار تلك المقدسات بمظهر التأخر والتخلف ، مما يوقع فى روع النشء الحيرة والارتباك ، حتى يندفعوا الى التلفت غربا وشرقا بحثا عن البديل . وكانت تهدف لمحاربة الثقافة القومية وتشجيع الصراع والنزاع سواء بين القطاعات الداخلية فى القطر العربى الواحد ، أم بين الاقطار العربية على المستوى القومى الشامل .

ويعتبر الباقر الديمقراطية من أهم دعائم البناء القومى العربى ، ذلك أن تبادل المصالح ليس وسيلة فقط لربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض ، بل هو أيضا سبيل للسيطرة الاجتماعية . فالأفراد الذين يشتركون فى المصلحة ويعملون معا يتشربون عادة مبادىء اجتماعية معينة ، لا يمكن استغلالها فى السيطرة عليهم فحسب ، بل فى توجيههم توجيها اجتماعيا صالحا كذلك . كما أن فكرة تبادل العمل والمصلحة بين المجتمعات لا تعنى تحقيق حرية التعامل الضرورى للحياة الديمقراطية فقط ، وانما تؤدى فى النهاية أيضا الى تبدل العادات وتحسنها ، ومن ثم الى التقدم والتكيف المستمرين . ومن مميزات المجتمعات الديمقراطية ـ زيادة على اتساع مجال المصلحة المشتركة ـ تنمية الكفايات الشخصية والاجتماعية . ولا يتأتى كل هذا عن طريق التربية المقصودة فحسب ، وانما هناك العوامل الاجتماعية غير المباشرة التى تلعب دورها فى هذا السبيل . وهناك التراث الاجتماعى الذى ينعكس فى أساليب الصناعة والتجارة والمواصلات وغيرها ، مما يؤدى الى اتساع الآفاق أمام الأفراد وتعدد الوسائل التى تزيد من خبرتهم وتعمل على تحسينها . واذا استطاعت التربية أن تعمل على القضاء على اتجاهات العزلة والانفصال والشعوبية . استطاعت أن تفعل الكثير فى تحقيق المثل الديمقراطية . وبهذا تجعل من المجتمعات المختلفة المنعزلة وحدة متكاملة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وتنمو فيها الاتجاهات الفكرية القومية جنبا الى جنب مع الاتجاهات الاجتماعية .

ولم يترك الباقر اللغة العربية دون أن يلقى عليها الأضواء التحليلية كدعامة راسخة من دعامات القومية العربية . ففى بحث نشره فى مجلة معهد

أم درمان العلمي بعنوان « مستقبل اللغة العربية في السودان » يعالج نفس المشكلات التي تتعرض لها اللغة العربية في معظم أنحاء العالم العربي ، ويتناولها من زوايا ثلاث : أولا : اللغة العربية كجزء لا يتجزأ من الثقافة الاسلامية ، أو النتاج الحضاري الذي خلفه الاسلام ، وثانيا : اللغة العربية كعنصر أساسي للتراث القومي ، الذي يميز شخصيتنا ويقوم عليه كياننا القومي ، وثالثا : الوظيفة التربوية والاجتماعية ، التي تقوم بها اللغة العربية عندنا .

وعندما يتحدث الباقر عن اللغة العربية كجزء من الثقافة القومية ، انما يقصد معناها الشامل كوسيلة من وسائل الاتصال الاجتماعي ، تعبر بها الأمة عن مشاعرها ، وتسجل عن طريقها نتاجها العقلي واليدوي ، ونشاطها العاطفي والوجداني . وهي بهذا المعنى تصبح رمزا لحضارتها ، وعنوانا لتقدمها . ومن ثم فهي ضرورة قومية ما بعدها ضرورة لأننا لا نستطيع أن نتخيل قوميتنا بدون اللغة العربية . فالقومية ـ في نظر الباقر ـ كيان معنوي ، تشترك في بنائه عوامل عدة ، بعضها أساسي وبعضها فرعي . أما العوامل الأساسية فهي اللغة والدين والأرض المشتركة والتاريخ والمصالح المشتركة . وهذه العوامل تختلف في عمق تأثيرها على القومية ، فأحيانا تكون اللغة هي العامل المسيطر في ربط الأمة وتوحيدها، كما هو معروف في أكثر الأمم التي تتكلم لغة واحدة . وأحيانا يزحف الدين الى المكان الأول ، ويبسط نفوذه قويا حتى يكون له سلطان على شكل الدولة ، مما قد يحدث حرجا وضيقا للأقليات الدينية المختلفة كما يقول الباقر :

« ولعلنا نحن في السودان لا نسلم من هذه الظاهرة ، لا سيما اذا تذكرنا أن أغلبية اخواننا في الجنوب لا يدينون بنفس الدين الذي ندين به ، ومن ثم لا يرون من العدالة أن تأخذ دولتنا أية صبغة دينية لطبعها بالطابع القومي الذي لا يشملهم » .

أما مسألة الارض المشتركة أو الحدود الجغرافية ، التي يعيش داخلها أفراد الأمة ، فهي أيضا ذات أثر كبير في بناء القومية . فقد نجد الأمة تشترك في اللغة والدين ، ولكن بعد الشقة المكانية بينها وبين الأخرى ، وتميزها بحدود جغرافية خاصة ، تجعل منها قومية منفصلة . كذلك فان الاشتراك في التاريخ والتراث والمصلحة من شأنه خلق أهداف موحدة تتركز فيها اتجاهات الأمة ، وتلتف حولها أفكارها وعواطفها . واذا ضعفت هذه العناصر فان انعدام التجانس الفكري بين الأفراد أو الفئات أو الأقاليم يمكن أن يهز الكيان القومي للأمة .

لكن الباقر يمنح اللغة أولوية مطلقة لأنه يربطها بعملية بناء الانسان العربى وتربيته • فمما لا شك فيه أن الطفل الذى لا يتلقى لغته ، أو يتشرب روحها فى طفولته ، ينشأ طفلا مفكك الشخصية هزيل التفكير ، لأن الفكر واللغة كوجهى العملة ، لا يمكن أن يتصور أحدهما بدون الآخر • ومن ثم كانت الأمم المتقدمة تهتم بلغتها القومية ، وتضعها فى المكان الأول من مناهجها التعليمية • والسبب فى ذلك يرجع الى أن الطفل ، عن طريق لغته ، يستطيع فى مرحلة مبكرة أن يتقبل المبادىء الدينية والخلقية والاجتماعية ، ويستطيع عن طريق هذه اللغة أن يشارك الكبار فى التشبع بالقيم الموجودة ، والتشرب بالتقاليد القومية • لأن اللغة هى الوسيلة الفعالة لاستقبال هذه الخبرات ، ولا تستطيع أية لغة أجنبية أن تمد الطفل بالقدر اللازم من المعانى التى تسهم فى تربيته تربية قومية •

أما عن الاستراتيجية القومية الشاملة فيرى الباقر أن الثورة العربية الكبرى لم تبدأ • وقد آن لها أن تنطلق لتقضى على الأحقاد والفواصل بأسلوب جديد وأبعاد جديدة ، ذلك أن ثوراتنا فى أشكالها المختلفة ظلت محلية فى أغلب الأحيان ، تحددها الحواجز الاقليمية المفتعلة • تنبع من القطر ، وتسيل فى مجارى القطر ، وتقف عند حدود القطر • ولكننا نريدها ثورة عربية شاملة ، تضم التراب العربى كله ، وتحرك التراث العربى كله ، وتسخر الامكانات العربية كلها • لقد مزق الاستعمار الجسم العربى تمزيقا لدرجة أن العرب ظنوا أن التمزق هو قدرهم الذى لا فكاك منه • وما كان لاسرائيل أن تهزأ بكرامة الشعوب العربية ، وتستهين بسلطان حكوماتها ، لولا أنها أحست فينا ضعفا وتمزقا • هنا يتساءل الباقر :

« ألا يكفى ذلك كله دافعا لنا لكى نعيد تقويمنا لأنفسنا ، وتقويمنا لقدراتنا ، وتقويمنا لمخططاتنا ؟ ألا يقوم ذلك دليلا على خطأ تقديرنا ، وخطل ظننا ، وقصور احساسنا ؟ ألا يكفى ذلك كله حافزا لكى نعود الى صوابنا ، ونحتكم الى ضمائرنا ، ونتعرف على حقيقتنا ؟ نعم ، لقد حان الوقت ، وهنا تبدأ المعركة الحقيقية ؛ معركة جهاد النفس لكى تؤوب الى صوابها ، ومعركة نقد الذات لكى تسمو الى مستوى الأحداث ، ومعركة المصير الحقيقية التى تجعل من العرب أمة ليست فحسب قوة برية وجوية تحمل السلاح ، ولكن تجعل منهم الى جانب ذلك كله قوة معنوية جبارة تحطم السلاح ، وتقتحم الموت ، ولا تأبه للحياة • ومن هنا تبدأ الثورة العربية الكبرى التى نريدها ، والانطلاقة المعنوية العظمى التى ننشدها ، وينبغى ألا نغفل ما فى أيدينا من ذخيرة روحية طائلة ، وألا نهمل ما فى تراثنا من خامات ثورية ، كانت دائما القوة الدافعة لانتصارات العرب ، والروح المسيرة لمخططاتهم ، والمنارة الهادية لنهضاتهم » •

٧ ـ محمد طه بدوى « مصر »

بدأ محمد طه بدوى اجتهاداته فى مجال الفكر القومى العربى بكتاب « الثورة الخلاقة فى المجتمع العربى » عام ١٩٦١ بالاشتراك مع محمد الغنيمى ، وفى عام ١٩٦٥ أصدر كتابه « فلسفة الوحدة العربية : القومية العربية والدولة القومية الكبرى » ، ثم دراسة بعنوان « ثورة يوليو : جذورها التاريخية وفلسفتها السياسية » عام ١٩٦٦ · وفى عام ١٩٧٣ نشر دراسة عن « القضية الفلسطينية : عواملها ووضعها الاستراتيجى الراهن » ·

ولعل القاسم المشترك بين هذه الدراسات أن المؤلف يربط النظرية القومية بالتطبيق العملى من واقع الأحداث التى مرت بالأمة العربية ، وذلك حتى تتضح العلاقة المنطقية بين الأسباب والنتائج · فمثلا فى كتابه عن « ثورة يوليو » يثبت أن القومية العربية فى مصر عانت أساسا من ضغوط الاستعمار البريطانى ومطاردته لها ، وليس بسبب النزعات الشعوبية أو الانعزالية أو الاقليمية · فقد حرص الاستعمار على أن يهمل مواد التاريخ القومى والتربية القومية ، وأن يملأ المناهج بالمواد التى تعظم الاستعمار ·

وفى كتاب « فلسفة الوحدة العربية » أوضح بموضوعية واقعية أنه اذا كان هناك تنويه الى العرق فى بداية الدعوة القومية العربية ، فقد كان هذا على أية حال من قبيل تزكية الدعوة الى الانفصال عن الدولة العثمانية بعيدا عن التعصب البغيض للعرق بحيث أنه مع نهاية الحرب العالمية الأولى لا نكاد نلمس أى وزن يعتد به للعرقيين داخل الدعوة والحركة القومية العربية ·

وبنفس المنهج الموضوعى يمكن أن يقال ان الحركة القومية العربية

كانت بعيدة عن التصور المتوازن لتحقيق هدفها السياسي في الوحدة بدليل تجربة الوحدة المصرية السورية (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) ٠ ولكن يجب الا يذكر هذا الدليل مستقلا عن دروس التجربة ، وبصفة خاصة فى مجال شكل الوحدة على المستوى الاداري والقانوني والدستورى ، وهي الدروس التى وعتها الحركة القومية العربية في أعقاب انهيار الوحدة ٠ والدليل على ذلك الصيغ المقترحة لشكل دولة الوحدة فى كافة المحاولات التى أعقبت الوحدة المصرية السورية ، كمشروع الوحدة الاتحادية الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق فى ابريل ١٩٦٣ ٠

ولعل التشابه الواضح بين أفكار محمد طه بدوى وأفكار غيره من مفكرى القومية العربية فى قضايا الثورة والوحدة ، يجعلنا نركز بصفة خاصة على دراسته للقضية الفلسطينية بصفتها التحدى التاريخى والامتحان العسير الذى يتحتم على الحركة القومية العربية أن تجتازه بطريقة أو بأخرى ٠ يرى طه بدوى فى هذه القضية المصيرية مشكلة من مشكلات علاقات القوى التى تثيرها طبيعة البيئة الدولية التى تتمثل فى عديد من دول (قوى) متميزة ، قد تتعاون فيما بينها ولكنها لا تتكامل ٠ ويرتد ذلك الى أن الجماعة الدولية لا تزال تفتقر الى ظاهرة السلطة العليا القادرة باحتكارها لعوامل القوة فى الجماعة على تحقيق الانسجام الاجتماعى ، ان غيبة السلطة العليا فى الجماعة الدولية لا بد أن يكون من شأنها أن تعمل كل دولة فى هذه الجماعة على تحقيق مصالحها القومية اعتمادا على قوتها الذاتية ، ومن ثم تجعل من علاقات ما بين الدول علاقات قوى فردية فى غيبة حكم أعلى ٠ لذلك فان الدول تلجأ الى القانون الدولى فى حالة الضعف ، وتتنكر لاحكامه على مقتضى المصلحة القومية وارتكازا الى القوة الذاتية التى تنهض عليها طبيعة الجماعة الدولية ٠ ان العلاقات الدولية هى فى حقيقتها علاقات قوى وليست علاقات حقوق ٠

من هذا المنطلق يعالج بدوى القضية الفلسطينية بوصفها قضية دولية ، وواحدة من مشكلات علاقات قوى فى غيبة حكم أعلى ، كما يحلل عواملها ووضعها الاستراتيجى الراهن ٠

تتمثل عوامل القضية الفلسطينية فى استراتيجية الموقع ، والعامل الأيديولوجى ، والعامل الدبلوماسى ٠ ذلك بأن استراتيجية موقع فلسطين ـ مع حالة الضعف التى كان عليها أصحابها قبيل نشأة القضية ـ هيأتها لأن تكون هدفا للقوى الخارجية ومسرحا للاعبى القوى الدولية ، فاستهدفتها أيديولوجية صهيونية قوامها الادعاء « بحق تاريخى » عليها ، ومعتمدة فى ذلك على قوى عالمية تشاركها التطلع الى استراتيجية موقع فلسطين ٠

تحتل فلسطين موقعا جغرافيا خلع عليها منذ القدم وحتى عصرنا أهمية استراتيجية هيأت لتشكيل الجذور التاريخية القديمة للقضية الفلسطينية كما أنها لا تزال تسهم فى ابرازهـا حتى وقتنا هـذا . والصراع حول فلسطين من قوى الامبريالية والصهيونية منذ مطلع هذا القرن تاريخ معروف ، لكن ما يهمنا الآن بصفة خاصة مدى الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط ـ وفلسطين فى قلبها ـ بالنسبة لكل من القوتين العظميين فى العالم الراهن . فالاتحاد السوفييتى يرى ـ منذ لينين ـ أن أقرب الطرق الى باريس هو فى جنوب وجنوب شرق آسيا وفى الشرق الأوسط ، ومن هنا كان على أمريكا أن تحقق لها وجودا فى هذه المناطق ، لذلك منحت كل مساندتها الدبلوماسية لقيام دولة اسرائيل ، ثم تصميمها على مساندتها عسكريا فى صراعها مع العرب ، لأن أمريكا لا تتصور وجودها الاستراتيجى فى المنطقة بدون اسرائيل . أما الاتحاد السوفييتى فوجد أن الاستراتيجيـة العربية فى صراعها مع اسرائل تمثل الباب المفتوح الذى يمكنه الدخول منه وتحقيق وجوده الاستراتيجى هو الآخر .

من هنا ارتبط ميزان القوة بين طرفى الصراع المحلى فى الشرق الأوسط (الصراع العربى الاسرائيلى) ، ميكانيكيا بميزان القوة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ولما كان ميزان القوة بين القوتين العظميين يعتمد على درجة التوازن فى التفـوق النووى ، فـان تجنب الاحتكاك المباشر بينهما أصبح حتميا بالنسبة لكل منهما ، واتخذ الاحتكاك شكلا غير مباشر عن طريق أصدقائهما فى العالم الثالث حيث يساند كل منهما صديقه فى صراعه المحلى شريطة ألا يصل الأمر الى مواجهة مباشرة بينهما . وهذا ينطبق بطبيعة الحال على الصراع العربى الاسرائيلى مما خلع على القضية الفلسطينية درجة من الصـعوبة تحتم توفير القـوة الذاتية للعرب عامة وللفلسطينيين خاصة بحيث يتمـكنون من تحريك ميزان القوة العالمية لصالحهم .

أما الادعاءات الصهيونية بالحق التاريخى فى فلسـطين فانها فى نظر ـ محمد طه بدوى ـ مجرد سند ايديولوجى لعمل استعمارى . فقد استطاع يهود الغرب أن يسيطروا على عالم المـال ، فارتبطت مصالحهم الاقتصادية بحركة الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر ، ومن ثم كان التحالف بين الحركة الصهيونية وبين قادة الدول الغربية الاستعمارية منذ ظهور تلك الحركة ، بل ان هذا التحالف هو الذى هيأ ثم سهر على

تنفيذ هدف الصهيونية في فلسطين . كما أن الفكر الصهيوني وجد في فكرة « الدولة القومية » التي سادت القرن التاسع عشر ايمانا بمبدأ القوميات وبحق الشعوب في تقرير مصيرها ، منطلقا مناسبا يرتكز اليه في المطالبة بالعودة الى فلسطين ، ولكن هذه المرة لا من أجل اعادة بناء الهيكل وانما بقصد اقامة « دولة قومية » لليهود ، وعلى أساس أن الشعوب الأوروبية التي صممت على اعمال حقها في تقرير مصيرها باقامة دول قومية لن تراجع منطقها بالنسبة لليهود .

هنا ينبه بدوى الى أن مطالبة الصهيونية بدولة قومية يهودية اعتمادا على فكرة « القومية » التي انتشرت في القرن التاسع عشر في أوروبا أمر فيه كثير من المغالطة . فالدولة القومية في فلسفة القرن التاسع عشر تعني الوحدة السياسية المتوجة لوحدة طبيعية بأكملها . أما اليهوديه التي تربط هؤلاء جميعا هي دين وأخلاقيات وهذه لا تشكل البتة رباطا للقومية والا لطالب مسلمو العالم جميعا بدولة قومية وطالب مسيحيو العالم بنفس الشيء ، وهذا يقطع بأن دولة اليهود « القومية » المنشودة في فلسطين لم تكن بالنسبة للصهيونية الا مجرد تقنيع لعمل استعماري بحت ، ذلك بأن روح القرن التاسع عشر الاستعمارية التي تسلطت على الدول الرأسمالية حينذاك راحت تداعب اليهود وهم الذين يشتغلون بالمال ويتحكمون في الاقتصاد ، كما كان الاستعمار نتيجة حتمية لظاهرة الرأسمالية الصناعية .

أما العامل الثالث وهو العامل الدبلوماسي في القضية الفلسطينية فقد لعب دورا خطيرا في قيام دولة اسرائيل . فقد قام زعماء اليهود منذ أواخر القرن التاسع عشر باتصالات دبلوماسية بالقوى العظمى بهدف تهيئة المناخ العالمي لاحتلال فلسطين . فعندما كانت الامبراطورية العثمانية قوة عظمى استطاعوا عن طريق اتصالهم بمراكز القوى فيها أن تغمض عينيها عن الهجرة والتوطين اليهودي في فلسطين . وعندما تحكمت بريطانيا في مصير العالم بعد اندثار الامبراطورية العثمانية ، نقلت الصهيونية العالمية نشاطها الى بريطانيا وحصلت على وعد بلفور الشهير . والتحالف البريطاني الصهيوني بطول النصف الأول من القرن العشرين تاريخ معروف للجميع . وعندما هبطت قوة بريطانيا العظمى في المجال الدولي وما استتبعه من احساسها بعدم قدرتها على الاحتفاظ بفلسطين ، من ناحية ، وازاء ضغط القوة العظمى الجديدة (الولايات المتحدة الأمريكية) لحساب الصهيونية المتحالفة معها حديثا ، من ناحية أخرى ، لم يكن أمام الدبلوماسية البريطانية الا أن تتخلى عن انتدابها عن فلسطين ، وعلى

أن يتم ذلك في جو يناسب اعلان قيام الدولة اليهودية التي اعترفت بها الولايات المتحدة فور قيامها ٠

أما الوضع الاستراتيجي الراهن للقضية الفلسطينية فان الفكر الاسرائيلي يختزن في جعبته حصيلة من ايديولوجيات ورثتها الحركة الصهيونية ، منها ايديولوجية المجال الحيوى ، وايديولوجية الحدود التاريخية ، ثم أضاف اليها الساسة الاسرائيليون ايديولوجية الحدود الآمنة ٠ وتذرعا بهذه الايديولوجيات المزيفة المفتعلة لم تكف اسرائيل منذ قيامها عن متابعة الاعتداء على الدول العربية المتاخمة لها ، بقصد ضم أرض جديدة ، انها تريد القدس استجابة لايديولوجية الحدود التاريخية ، وهي تصر على مرتفعات الجولان اعمالا لايديولوجية الحدود الآمنة ، وهكذا فان قيام اسرائيل — بنزعتها الامبريالية ، وبايديولوجياتها التوسعية — يشكل عاملا من عوامل تهديد السلام في المنطقة كلها ، فضلا على أنه يشكل اغتصابا لارض فلسطين وللحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ٠

واذا كانت الاستراتيجية الاسرائيلية تعتمد على تحقيق أيديولوجياتها التوسعية الثلاث ، فان خطوات التنفيذ تنهض على سياسة تكتيكية تربط كل مرحلة من مراحل التطبيق بحدين أقصى وأدنى تبعا لظروف الواقع التاريخي المتغيرة ، فالتصميم ينعقد بالدرجة الأولى على تحقيق الأقصى ، ما لم يكن في ظروف الواقع الاقليمية والعالمية ما يكون من شأنه تهديد الخطة بأكملها ، والا اكتفى بالحد الأدنى انتظارا لقفزة لاحقة في ظروف أكثر ملاءمة ٠

هذا على المستوى المحلي أما على المستوى العالمي فان قيام اسرائيل قد فرض على المنطقة ظاهرة الوجود العالمي لثنائية القوتين العظميين الأمر الذي ربط القضية الفلسطينية بميزان القوة بينهما ، ومن ثم خلع عليها درجة من الصعوبة ٠ ويؤكد بدوى أن العرب لا يستطيعون تصور هذا البعد العالمي للقضية الفلسطينية الا من خلال الصورة التي عليها توزيع القوى في العالم الراهن ، أو بالتعبير العلمي الصحيح : الا من خلال موقع هذه القضية على خريطة توزيع القوى في « النسق الدولى » العالمي الراهن ٠ فلم يكن من المستطاع أن يظل الصراع العربي الاسرائيلي منحصرا داخل نسقه الدولي الصغير ٠ ومن هنا تحتم على السياسة العربية أن تضع في اعتبارها البعد الاستراتيجي المحلي ، ومرحلة الاستراتيجية الاسرائيلية في اعمال ايديولوجياتها التوسعية ، والبعد الاستراتيجي العالمي للقضية الفلسطينية ٠ ففي مقابل الاستراتيجية الاسرائيلية الشاملة الطويلة النفس لا بد من وجود استراتيجية عربية على نفس المستوى

وبنفس القوة والاصرار ، ان لم تكن أكبر وأقـوى • فالقضية متشعبة وحساسة وخطيرة ، وربما استغرق حلها سنوات طويلـــة قد تمتد الى الأجيال التالية والمتتابعة • ولا يعقل أن يقـــابل العرب الاستراتيجية الاسرائيلية بمجرد خطوات تكتيكية مؤقتة قد تتغير من يوم لآخر بسبب خلافاتهم الداخلية ونزاعاتهم العقيمة ، هذا في الوقت الذى أصبحوا فيه يملكون الثقل السياسى والقـــوة الاقتصـــادية التى تمـكنهم من تنفيذ استراتيجية شاملـة وطويلـة النفس ، يمـكن أن تحبـط الاستراتيجية الاسرائيلية على المدى الطويل •

٨ ـ راشد البراوى « مصر »

راشد البراوى من المفكرين السياسيين والاقتصاديين الذين أضافوا الى الفكر القومى العربى اضـــافات قيمة · من كتبه على سبيل المثال « قادة الفكر الاسلامى فى ضوء الفكر الحديث » ، و « حرب البترول فى الشرق الأوسط » ، و « مجموعة الوثائق السياسية : مصر والسودان وقناة السويس » ، و « حرب البترول فى العالم » ، و « الصومال الكبير : حقيقة وهدف » ، و « الصومال الجديد : فلسفة وأمل » · لكن أخطر كتبه كتاب « اقتصاديات العالم العربى من الخليج الى المحيط » الذى يجمع بين العمق والموسوعية فى تحليل كل دقائق وتفاصـــيل الاقتصاد العربى ، ولذلك يعد من أهم المراجع القومية التى كتبت فى هذا المجال . وتم طبعه أربع مرات ١٩٦٤ و ١٩٦٨ و ١٩٧٣ و ١٩٧٨ ، وفى كل طبعة جديدة واكب راشد البراوى المتغيرات الجديدة التى طرأت على اقتصاديات العالم العربى · فاذا تتبعنا ما سجله فى الطبعات المتتابعـة ، نستطيع أن نضع أيدينا على المؤشرات والعلامات والمسارات التى ميزت تطـور الاقتصاد العربى فى الستينيات والسبعينيات على وجه الخصوص ·

ففى الطبعة الأولى (١٩٦٤) يوضح أن الوطن العربى ظل يرضخ طويلا لسيطرة أجنبية فرضت عليه التخلف ، وحتى فى كثير من أجزائه التى تمكنت من أن تنفض السيطرة السياسية عن كاهلها ، ظلت السيطرة الاقتصادية قائمة وقوية بدرجات لها شأنها ، وكان من أثر هذه الأوضاع أن أدرج هذا الوطن بصورته الكلية فى عداد الأقاليم المتخلفة بالعالم · لكن الأوضاع المتخلفة لم تستمر على ما هى عليه ، فمنذ مطلع الخمسينيات وبخاصة منذ الثورة التى وقعت فى مصر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، شهـد الوطن العربى تطورات واتجاهات على جـــانب كبير من الأهمية ، فبدأ

السير فى طريق التخلص من التبعية الاقتصادية وموازنة العناصر التى يتكون منها الاقتصاد القومى ، ودفع عجلة التنمية الاقتصادية عن طريق التخطيط الجزئى أو الشامل تبعا للظروف المحلية ، والتعاون الاقتصادى بين مختلف بلدانه ، ذلك التعاون الذى سوف يصل حتما الى الغاية الكبرى وهى الوحدة الاقتصادية الوثيقة الارتباط بالوحدة الشاملة ٠

فى هذه الطبعة ألقى راشد البراوى الضوء على التفاعلات المعاصرة ٠ ففى الوقت الذى أشار فيه الى معالم التخلف ، فى بلد أو آخر ، وفى ناحية أو أخرى ، حتى يلفت النظر الى خطورة استمرار الأوضاع القديمة والى امكانية تعديلها أو تغييرها مع الاشارة الى الوسائل التى تؤدى الى ادراك هذه الغاية ـ حاول فى الوقت نفسه ابراز معالم الصورة الجديدة التى أخذت تتضح للعيان ، واظهار مدى ما تحقق من أجزائها ونواحى القصور التى مازالت قائمة حتى يتسنى العمل على الخلاص منها ، وذلك كله بطريقة موضوعية ، وبالاعتماد على البيانات والأرقام التوضيحية ٠ وأهم من هذا أيضا ان البراوى حرص كل الحرص على أن يكون البحث من وجهة النظر العربية القومية العامة ، مستهدفا المصلحة العربية بصورتها الكلية ٠ فبعد أن قدم عرضا عاما لبيان الأوضاع القديمة والتى لا يزال الكثير منها قائما ، أشار الى الاتجاهات والتجارب والمعالم الجديدة ، ثم قدم بعد ذلك صورة مكثفة للتطور الاقتصادى فى كل جزء على حدة من أجزاء الوطن العربى ، حتى يسهل تقييم الانجازات وعقد الموازنات ٠

وفى الطبعة الثانية للكتاب (١٩٦٨) يسجل البراوى التحولات والتطورات الخطيرة التى شهدها وطننا العربى والتى تنبأ بأنها ستكون بالغة الأثر بالنسبة الى مستقبله ٠ فقد اكتسبت القومية العربية مواقع جديدة حيث خرج الاستعمار من الجنوب العربى وقامت جمهورية جنوب اليمن الشعبية ، واستعدت بريطانيا لمغادرة منطقة الخليج العربى ٠ وما أن وضح أن ثمة نيات غير عربية بالنسبة الى المنطقة حتى هب الوطن العربى من السعودية والكويت الى جمهورية مصر العربية على سبيل المثال لا الحصر ، يؤكد عروبة الخليج ويؤكد العزم على الاحتفاظ بها ٠

أما فى المجال الاقتصادى فقد واصل وطننا العربى تحرره من التبعية الاقتصادية للمصالح الأجنبية ، كما فى السودان والجزائر والمغرب ، وادراكا لأهمية التخطيط للتنمية ، استمر تنفيذ الخطط التى سبق اعدادها فى كثير من أجزاء الوطن العربى ، فى حين راحت تأخذ به أجزاء أخرى كالكويت والسعودية ٠ وفى الوقت الذى زاد فيه الانتاج البترولى فى المنطقة بوجه عام وبالتالى زاد الدخل القومى ، دخلت أجزاء

جديدة في هذا الميدان مثل أبو ظبي وعمان · وأهم من ذلك أن الشعب العربي أخذ باتجاه جديد في استغلال ثروته البترولية ، فلم يعد الأمر مقصورا على الشركات القديمة الدولية بل وبدأت الامتيازات تمنح لمصالح جديدة تحقيقا للمنافسة واجتناء مزيد من الأرباح من جهة ، وتأكيدا لظاهرة التحرر من الماضي من جهة أخرى ·

وكانت هذه الطبعة قد صدرت في العام التالي لنكسة يونيو ١٩٦٧ ، ولم يكن البراوى مبالغا في الطبعة الأولى من هذا الكتاب عندما تحدث عن امكانات التقدم وقدرات الشعور المشترك ، فقد صمد العالم العربي في مواجهة العدوان ، وخاصة البلاد التي كانت ضحية له ، ذلك أن جهودها من أجل التنمية الاقتصادية في السنوات السابقة عليه ، أثبتت أنها تقف على أرض صلبة · ولكن الأهم من هذا أن العدو أبرز بما لا يدع مجالا للشك الشعور بوحدة الهدف والمصير في أرجاء وطننا العربي ·

وعندما صدرت الطبعة الثالثة من الكتاب في عام ١٩٧٣ ، كانت المنطقة العربية قد شهدت تطورات بالغة الأهمية وخاصة في حقل البترول، وسار التخطيط قدما حتى أصبح أسلوب العمل الذي تنتهجه الحكومات ، ووضعت مخططات للتنمية أوفر دقة اذ استفادت من تجارب الماضي ، وشهدت منطقة الخليج العربي استقلال قطر والبحرين ومولد اتحاد الامارات العربية ، كما تطورت امكانات التنسيق والتكامل الاقتصادي بين دول المواجهة ودول الدعم · وكان البراوى حريصا في هذه الطبعة على التعرض لكل ما وقع من أحداث وتطورات جديدة ، وعلى ايراد آخر البيانات وأحدث الاحصاءات مما كان متاحا له ·

وفي الطبعة الرابعة من الكتاب عام ١٩٧٨ رصد البراوى نتائج وآثار حرب أكتوبر ١٩٧٣ على التطورات السياسية والاقتصادية في المنطقة العربية ، ذلك أن الطبعة الثالثة كانت قد صدرت قبل الحرب وان كانت في نفس عامها ·· فقد أعقب الحرب مع اسرائيل عقد اتفاقيات للفصل بين هذه الدولة من جهة وكل من مصر وسوريا من جهة أخرى · وكان من أثر تلك الحرب تغيير بعض نتائج حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ ، فتم تطهير قناة السويس وافتتحت للملاحة العالمية اعتبارا من الخامس من يونيو ١٩٧٥ · ولم يمض وقت حتى استردت مصر حقولها البترولية في شبه جزيرة سيناء ، ولكلا هذين الحدثين اتصال بالاقتصاد المصري بوجه خاص ·

ولم يقل عام ١٩٧٤ حسما ؛ ففي مطلعه أدخلت زيادة ضخمة على أسعار النفط الخام ، أعقبتها زيادات أخرى فيما بعد ، مما ترتب عليه

ارتفاع هائل فى العائدات التى تحصل عليها البلاد العربية المنتجة للنفط حتى أصبح العرب يشكلون القوة السادسة فى العالم على حد تعبير معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن فى دراسة قام بها آنذاك · ومن جهة أخرى أتاحت العائدات الجديدة للدول البترولية العربية القدرة على السير قدما فى طريق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، فضلا على امكانية تقديم العون المالى لغيرها من الشقيقات التى ربما تقصر مواردها المالية عن الوفاء بمتطلبات التنمية · كذلك لم ينته عام ١٩٧٤ الا وكانت دولتان جديدتان قد انضمتا الى جامعة الدول العربية ، وهما صوماليا وموريتانيا ·

لكن المنهج العلمى الذى يحكم الكتاب فى طبعاته الأربع يوضح أن السوق المحلية فى معظم البلاد العربية ، كل منها على حدة ، محدودة ضيقة بشكل يلفت النظر ، والنتيجة المترتبة على هذه الظاهرة مثلا أن عددا من الصناعات لا بد أن يفيض الانتاج منها عن حاجة هذه السوق اذا أريد أن يكون اقتصاديا بالمعنى الصحيح · وفى هـــذه الحالة اذا حاول أن تستوعبه أسواق عربية أخرى فقد يجد الباب أمامه موصدا بفعل حواجز جمركية أو مصالح محلية ضيقة الآفاق ، واذا رؤى أن يقتصر الانتاج على السوق المحلية الضعيفة لكان معناه قيام وحدات صناعية غير اقتصادية مما يؤدى الى ارتفاع التكاليف بغير مبرر وهو ارتفاع لا يحمل عبئه ســوى المستهلك المحلى والذى هو ، بطبيعة مرحلة التطور الحـــالية فى معظم الاقاليم ، محدود الدخل · ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، أى ميدان الصناعة ، بل انه يتعداه الى قطاع الزراعة ، فقد تزرع محصولات تزيد أعباء انتاجها بالنسبة الى المجتمع على تكلفة استيرادها من بلاد عربيـــة أخرى ظروفها من حيث التربة أو الأحوال الجوية أو الخبرة الســابقة ، يجعلها أفضل استعدادا للتركيز على مثل هذه المحصولات وعلى نحو يتفق مع المعايير الاقتصادية ·

هذه الظاهرة معناها نشوء التضارب والمنافسة غير الاقتصادية أى غير السليمة · ويضرب راشد البراوى مثلا بالصـــناعة البتروكيميائية القائمة على أساس البترول أو الغاز الطبيعى ، وهى صناعة تتطلب أبحاثا علمية مفصلة واسعة النطاق ، وخبرة فنية عالية ورؤوس أموال كبيرة وأسواقا واسعة بالدرجة الكافية ، ومع ذلك تفكر كثير من البلاد العربية المنتجة للبترول جديا فى اقامة هذه الصناعة بل وبدأها البعض مما سوف يؤدى الى منافسة قاتلة من أجل اكتساب الأسواق الخارجية ، وفى الامكان تلافى هذه النتيجة عن طريق الاتفاق على سياسة موحدة بين المصالح المعنية · وهذا المثل ـ ضمن أمثلة أخرى عديدة ـ يكفى لبيان خطـورة التنمية الفردية التى تسعى الى اغلاق الأبواب على نفسها ، فى حين أن

نجاح أمثال هذه المشروعات يصعب أن يتحقق الا اذا قامت على أساس التعاون الاقليمي الصادق ٠

لذلك يدعو البراوى الى انشاء جهاز عربى يتولى اجراء دراسة شاملة مبنية على الأساليب العملية ، للموارد والطاقات الظاهرة والكامنة والحاجيات الحالية والمطالب المستقبلة ، لفترة معينة ٠ وهذه الدراسة تشمل الانتاج الزراعى والصناعات القائمة وموارد الثروة المعدنية ، كما يقوم هذا الجهاز القومى بدراسة ظروف الانتاج فى البلاد العربية وفق أحدث النظم والمبادىء ، دراسة تشمل أنواع المنتجات وتكاليفها وتسويقها فى مواطنها وفى خارج مواطنها والصعاب التى تواجهها ، وصلاحية الاستمرار فيها أو العدول عنها أو التوسع فيها مستقبلا ٠ كذلك يجب دراسة خطط التنمية المعدة حاليا أو التى يجرى اعدادها فى كل بلد على حدة بقصد التنسيق بينها والحيلولة دون التضارب ، بالاضافة الى دراسة امكانات الانتاج خلال فترة معينة ، مع تقدير مدة التنفيذ وتكاليفه سواء بالعملات المحلية أم الأجنبية وما يستلزمه هذا من الخبرات الفنية والتنظيمية ٠

ويصر البراوى على أن تكون هذه الدراسة القومية شاملة وتفصيلية ودقيقة ، وتضع المصلحة العربية العامة فى المقام الأول من الاعتبار بحيث يوضع برنامج للعمل القومى تحدد فيه الأولويات وتخصص له مناطق التنفيذ ووسائله على نحو يجمع بين المصلحة الجماعية والمصلحة المحلية الخاصة ، تماما كما يحدث فى حالة خطة التنمية التى يعدها بلد واحد لنفسه ٠ وبهذا المنهج يتحقق استغلال الموارد المعطلة حاليا ، سواء أكان التعطيل جزئيا أم كليا ، ونضمن عدم البدء فى خط انتاجى ببلد معين الا اذا كفلنا له مقومات النجاح كافة من حيث وجود الموارد والخبرات ووفرنا له السوق اللازمة ٠ كذلك يمكن تطبيق مبادىء التخصص فى الانتاج الأكثر كفاءة وتقسيم العمل ، والقضاء على أى تضارب أو منافسة غير سليمة ، ورفع الحواجز الجمركية ، والانتفاء تدريجيا لظاهرة عدم استواء النمو واطراد التقدم الموجودة حاليا ، لأن التخطيط المرسوم على مثل هذا النطاق الاقليمى يؤدى الى تقارب المعدلات وبالتالى المستويات وفقا للنظرية المعروفة فى علم الطبيعة عن الأوانى المستطرقة ٠

وأخيرا ــ وليس آخرا ــ تسهل مهمة تمهيد الطريق أمام التعاون الاقتصادى الشامل فى المنطقة العربية بأسرها ، مما تصبح معه صور التكامل الاقتصادى أمرا فى حيز الامكان العملى ٠ لكن راشد البراوى ينبه هنا الى أن هذا التخطيط انما يتناول النواحى التى تمس مصلحة البلاد

العربية فى مجموعها ، اذ هناك نواح من النشاط الانتاجى لها صبغتها التى يجب أن تكون محلية لأنها تهدف الى سد حاجات محلية معينة . ولذلك يتحتم على العرب جميعا أن يحددوا بأسلوب علمى وعملى الفوارق بين أوجه النشاط الانتاجى المحلى وبين القومى ، حتى لا يتعارض هذا مع ذاك ، وخاصة أن العبرة فى النهاية بالمصلحة القومية العربية سواء على مستوى الكل أم على مستوى الجزء .

٩ ـ عبد الرحمن البزاز « العراق »

عبد الرحمن البزاز من المفكرين القوميين العرب الذين نذروا حياتهم وكفاحهم وفكرهم من أجل تحويل القومية العربية من حلم جميل يراود كل العرب المخلصين الأصلاء الى فكر عقلانى علمى موضوعى عملى متبلور يمهد الطريق لدولة العرب الكبرى · فقد نادى بضرورة الاتحاد العربى وهو طالب يتم دراسته فى انجلترا قبل الحرب العالمية الثانية ، حين ألقى فى جامعة لندن عام ١٩٣٨ محاضرة بالانجليزية حول موضوع الاتحاد العربى والأسس العلمية والعملية التى يمكن أن ينهض عليها ·

وحين عاد الى العراق أنشأ مع فريق من زملائه من أساتذة كلية الحقوق جمعية باسم « الثقافة العربية » فى عام ١٩٤٠ · ولقد اكتشف فى ذلك الوقت أن جمعية بهذا الاسم قد تكونت فى بغداد قبل هذا التاريخ بمدة غير قصيرة ساهم فى انشائها كل من ساطع الحصرى وأحمد حسن الزيات ·

وعندما كان البزاز يتداول مع زملائه فى وضع الصيغة النهائية لنظام تلك الجمعية ، طلب أن يجعل من بين أهدافها التمهيد فى النواحى الثقافية والفكرية لاقامة اتحاد عربى شامل · لكن طموح البزاز فى ذلك الوقت كان أكبر من حدود الواقع ، اذ أن وزارة الداخلية العراقية لم تأذن لهم بانشاء تلك الجمعية الثقافية بحجة أن انشاء جمعية ثقافية عربية يحمل معنى غير مرغوب فيه ، اذ قد يثير اختلافات عنصرية فى العراق · وهكذا قبرت الجمعية قبل أن تولد · وقبرت معها الدعوة للدولة الموحدة أو الدولة الاتحادية لفترة من الزمن ·

على أن دعوة البزاز للاتحاد العربى قد استمرت بعد ذلك ، ونادى بها مرارا فى مناسبات لا تحصى وكتب فيها المقالات الطوال والدراسات

المستفيضة . من هذه الدراسات على سبيل المثال كتاب « الدولة الموحدة والدولة الاتحادية » ١٩٥٩ ، وكتاب « هذه قوميتنا » ١٩٦٣ ، وكتاب « من وحي العروبة » ١٩٦٣ وغير ذلك من الدراسات التي تشكل نظرية متبلورة ومتكاملة تصلح لاخراج القومية العربية من نطاق الأمل الجميل الى حيز التنفيذ العملي .

هذه النظرية تؤكد أن القومية العربية تعني قيام أمة واحدة لها خصائصها ، ولها كل المقومات الأساسية التي تكون الأمة الواحدة ، ولها فوق ذلك أهداف رئيسية استراتيجية واحدة ، أهمها التحرر والتكتل والمساهمة في اقامة كيان عربي دولي يحقق الأمن لها والسلام للعالم كله . أما القول بوجود أمة عراقية أو أمة مصرية أو أمة تونسية فمرجعه اضطراب في التفكير لا يتمشى مع الروح العلمية والعملية للقومية العربية . وهذا الاضطراب كان نتيجة طبيعية للضغوط الاستعمارية المتوالية التي مزقت جسد الأمة العربية . أما الدعوة القومية العربية للتكتل والوحدة فليست نزعة عارضة تفرضها ظروف خاصة كوجود الاستعمار أو قيام اسرائيل ، وانما هي دعوة عريقة وجدت قبل اسرائيل وترجع جذورها الى ما قبل عهد الاستعمار .

إن التكتل العضوي الفعال في الوطن العربي أصبح في عصرنا الحديث ضرورة من ضرورات الحياة العربية التي تقوم على أساس الوحدة السياسية والكرامة القومية جميعا . ولا ضير بعد أن تتخذ هذه الوحدة صورة الدولة الموحدة في البلاد العربية جميعها أو صورة الدولة الاتحادية . فذلك أمر يجب أن يترك للشعب العربي ذاته ، يحدده على النحو الذي يختاره . ولا شك أن هذا الشعب له من الفطنة التي ورثها من عروبته الأصيلة ومن الوعي الذي اكتسبه من الدروس التاريخية التي استوعبها ، ما يتيح له فرصة الاختيار السليم .

والقومية العربية – في نظر البزاز – ثورة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . لهذا يؤمن بأن الثورة – على الرغم من عمقها وجذريتها – لا تعني انقلابا تحكميا في كل شأن من شئون الحياة ، وهي لا تعني استجابة تامة لكل الرغبات الفردية ، ونزوات الأفراد والجماعات المتعارضة . وهي فوق هذا لا تعني تمكين كل فرد ، أو كل فئة من تحقيق مآربها بالطريقة التي تريدها هي دون مقاييس محددة ، أو معايير معلومة، اذ أن ذلك سيؤدي حتما وبالضرورة الى الفوضى التي من شأنها أن تساهم في المزيد من تمزيق الأمة العربية .

والقومية العربية – كثورة – هي في جوهرها حركة تجددية ،

ومظهر من مظاهر الحيوية فى العضوية الاجتماعية ، تقف وسطا بين الجمود الذى يؤدى الى الفناء ، والفوضى التى لا يصلح معها حال الأفراد والجماعات ، وهى وسيلة فعالة للاصلاح الجدى الجذرى حين يكون التطور التقليدى البطىء غير قادر على تحقيق الأهداف النهائية التى يهدف اليها المجتمع العربى المعاصر .

ويحرص البزاز على كشف الخلط الذى يقع فيه بعض العرب . من الذين كان يظن أنهم ، بحكم ثقافتهم ومراكزهم الاجتماعية ، أكثر ادراكا للحقائق ، وتمييزا بين الفكرة القومية العربية ، والايمان بوحدة الأمة العربية من جهة ، وبين الطريق الذى نسلكه فى الدعوة الى هذه الفكرة ، والوسيلة التى نستخدمهافى التعبير عن هذه الوحدة من جهة أخرى . وبعبارة أخرى : هناك فرق جلى بين « القومية العربية » من حيث هى عقيدة وحركة ، وبين نوع « الحكم المفضل » الذى يحسن بنا أن نختاره للتعبير عن كياننا الواحد المشترك .

وقد تتسامح القومية العربية فى أشياء كثيرة ، وقد تتعارض آراء دعاتها فى مسائل شتى ، وقد تحتمل بعض مبادئها التدرج فى وجهات النظر ، أما الايمان بالأمة العربية الواحدة ، والوطن العربى الكبير الواحد. فمن أوليات المعتقدات السياسية التى لا تقبل القومية العربية فيها تحويرا أو تبديلا . لذلك فان القومى العربى يريد لأمته « دولة عامة » يخضع لها بالولاء ، ويدفع لها ضريبة الدم ، ويعيش فى كنفها آمنا كريما .

ولم تعد دعوة التكتل العربى فى عصرنا الحديث مجرد فورة حماسية أو نعرة مثالية ، بل أصبحت الحاجة الى هذا التكتل اليوم أكثر لزوما فى عالم لا مجال فيه لحياة الدول الصغيرة والضعيفة . ويرى البزاز أن دولا كانت تعد الى ما قبل الحرب العالمية الثانية من الدول الكبرى التى يبلغ تعداد سكانها عشرات الملايين صارت تستصغر نفسها أمام الكتل البشرية الهائلة التى تعد بمئات الملايين والتى توشك أن تصبح ، هى دون سواها، المقصود بتعبير « الدول الكبرى » . لذلك سعت تلك الدول الى التكتل بكل قواها كما نرى فى السوق الأوروبية المشتركة التى تمهد لوحدة أوروبا الغربية ، وكان قد مهد لها من قبل بمعاهدة « حلف شمالى الأطلنطى » وبالمشاريع السياسية والاقتصادية والثقافية العديدة .

ان هذه النماذج العملية المعاصرة جديرة بأن تجعل الذين يتشككون فى جدوى الاتحاد العربى ، أعظم ايمانا وأكثر يقينا بضرورته وحتميته بالنسبة للأمة العربية . فاذا كانت دول كبريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا تشعر بحاجتها الى مثل هذا التكتل ، وهى دول صناعية كبيرة ، تتكون من

شعوب مختلفة ، وتتكلم لغات شتى ؛ وكان بينها - ولم يزل - من أسباب الخلافات الأصيلة ، وتعارض المصالح الرئيسية ، ما يوحى بالفرقة ، ويدعو الى تأييدها ؛ ومع هذا تسعى الى التكتل والتعاون فيما بينها ، فما أحرى الأقطار العربية بهذا التكتل ، وكل عوامل التجمع قائمة بينها ، وكل دواعيه تستصرخها للعمل الجاد من أجله ·

وينحى البزاز كل الحساسيات العربية التقليدية جانبا عندما يؤكد ان التكتل العربى المنشود بدهية لا يمارى فيها الا من يريد أن يتعامى عن الحقائق الثابتة ، والا من يجهل طبيعة هذا الزمن الذى نعيش فيه ، لذلك يمارى فيها الأفاكون النفعيون الذين يريدون الاحتفاظ بالأوضاع الراهنة حرصا على ألقاب زائفة ، أو منافع مادية ذاتية قائمة أو متوقعة ·

ويتضح المنهج العلمى العملى عند البزاز عندما ينادى بعدم التقيد بالألفاظ والصيغ ، والتشيع للهتافات والنداءات · وهى ان كانت مفيدة أحيانا فى اثارة حماس الجماهير وتوجيهها ، لكنها - بصفة عامة - لا تصلح أساسا لاقامة كيان دولى · ان هذا الكيان الذى نريده ، ونسعى جاهدين فى سبيل تحقيقه ، لا يتحقق الا بدراسة علمية موضوعية هادئة على أسس من حاجاتنا الأصلية ومطالبنا القومية · وهذا يحتم علينا ألا نغفل طبيعة الزمن الذى نعيش فيه · وأكثر من هذا وذاك علينا أن ندرك أن الخلاف فى الوسائل يجب ألا يصرفنا عن الهدف الأساسى وهو تمكين الانسان العربى والأمة العربية جمعاء من التعبير عن ذاتها الحقيقية تعبيرا صادقا يحقق لها كل أهدافها فى الوحدة القومية والتعمير الحضارى والرخاء الاقتصادى ·

ويرى البزاز فى الدولة الاتحادية المنشودة تجسيدا عمليا لاحلام العرب · فقد آن الأوان لعدم الفصل بين الأقوال والأعمال ، بين النظرية والتطبيق · ان كلا من الدولة الاتحادية والدولة الموحدة تحقق المطلب العربى الأساسى فى التكتل والقضاء على الكيانات الهزيلة القائمة فى دنيا العرب اليوم ، بشرط حسن النية ، والايمان العظيم بوحدة الأمة العربية ، والاستجابة لأجل متطلباتها · وخاصة أن المفهوم الفكرى والحضارى للقومية العربية يمتلك من المرونة ما يجعله أبعد ما يكون عن العسف والجبر والقسر · ذلك أن التدرج ، وحساب الظروف المحلية أحيانا ، أمر معقول ومقبول ولكن لا بد من اقامة كيان دولى واحد له رئيس واحد أعلى أو هيئة سيادة ، ولا بد من سياسة خارجية واحدة ، ولا بد لهذا الكيان من عملة واحدة ، ونظام جمركى واحد ، وكل ذلك يتحقق فى ظل الدولة الموحدة والدولة الاتحادية على حد سواء ·

ومن خصائص المنهج العلمى العملى المرن عند البزاز أنه يصر على أن الوحدة والاتحاد أشكال دستورية يجب ألا ترقى الى مستوى العقائد الثابتة ، انها وسائل قابلة للتجدد والتطور • وأكثر من هذا أن وحدتنا العربية يمكن أن تقوم على شكل جديد نبتكره نحن أبناء الأمة العربية ، بحيث يلائم أوضاعنا الراهنة ، ويحقق أهدافنا العليا ، دون التزام صارم بشكل معين من أشكال الدولة المعروفة والتقليدية نجمد عليه •

لكن البزاز فى دعوته لاقامة التكتل العربى على أساس من النظام الاتحادى . لا يسلم بالحدود القائمة والصور والأشكال المعهودة اليوم فى واقع الوطن العربى الكبير • ان أجزاء من هذا الوطن تكون وحـدات طبيعية ويجب أن تكون أكثر تماسكا بما يقتضيه التسليم بالنظام الاتحادى كما أن هناك كيانات أو على الأصح وحدات سياسية ، هى فى الواقع وحدات مفككة أو مصطنعة يجمعها الخضوع لنظام معين • ويمكن أن تكون فى ظل النظام الاتحادى المرتقب وحدات متعددة • وليس المهم فى كيان الدول العربية المتحدة تجميع الوحدات القائمة ، اذ أن الأكثر أهمية هو مراعاة الحاجة الفعلية لأبناء الأمة العربية فى كل أوطانهم الصغيرة التى هى جزء من وطن عربى كبير واحد • والعبرة ، فوق هذا ، بطبيعة الأقاليم ، وبطبيعة الاجتماع الخاص بسكان تلك الأقاليم ؛ وبطبيعة حاجات القومية العربية ذاتها •

والعبرة كل العبرة بحقائق الأمور المنسجمة مع طبيعـة الأشياء ، الصادرة عن الرغبة العامة للشعب ، والعبرة كل العبرة بحقائق الأمـور ومعانيها . لا بألفاظها ومبانيها ، والخير كل الخير فى الاستمساك بالجوهر واللباب ، واهمال الشكليات والأعراض الظـاهرة • ولن يتأتى ذلك — وخاصة للشباب العربى — بدون الوعى السياسى الراقى والشامل القائم على التثقيف العميق والمرن القادر على استيعاب أبعاد العصر ومتغيراته • وهذه المهمة الشاقة تحتم معرفة الحقائق ، مع العلم بأن الحقيقة الواحدة يمكن التعبير عنها بطرق شتى ، ويمكن الوصول اليها بسلـوك سبل مختلفة •

وينبه البزاز الشباب العربى الى حقيقة أخرى ، وهى أن مجالات تعارض الآراء وتباينها أمر متصور ، بل وقد يكون مفيدا • وليس من العقل فى شىء ، وليس من المصلحة بشىء ، أن يصل هذا الخلاف الى المنازعات الحادة والمشاجرات العنيفة التى قد تصرفنا عن البناء الجـاد والعمل المثمر ، حين نكون أحوج ما نكون الى العمل والبناء • ان اختلاف

الرأى المهذب وسيلة لكشف الحقيقة ، بل هو ضرورة فى أحيان كثيرة لادراك الأمور ادراكا صحيحا •

كما يجب ألا نخلط بين الغاية والوسيلة ، ولا بين الفكرة المجردة ، والقضية عند التطبيق العملى • لقد كان من أخطائنا الكبرى فيما مضى أننا انقسمنا الى فريقين أساسيين متعارضين كل التعارض ، مثاليين ينكرون الواقع ، وواقعيين بلا مثل • اننا نريد اليوم مثالية نيرة ذات أفق متسع ، ترى الحقائق من جميع وجوهها ، وتحيط بالأمور من جميع أطرافها ، ولا تغفل ، فى تقديرها لتلك الحقائق – على الرغم من نزعتها المثالية – الواقع ، والممكن ، والمعقول • مثالية نيرة لا تنظر الأمور ببصرها فحسب ، بل تبصرها ببصيرتها الثاقبة ، وهى ترى بين الأبيض والأسود ألوانا عديدة ، تختلف فى ظلالها درجات شتى •

وانه لمن الصعب علينا أن نلم بكل الاجتهادات الخصبة والخلاقة لعبد الرحمن البزاز فى مجال الفكر القومى العربى المعاصر ، ذلك أن الذى يريد القيام بهذه المهمة لا بد له أن يرجع الى كتب البزاز ودراساته المستفيضة • لكن هذه الكتب والدراسات ترتبط بقاسم مشترك يتمثل فى ثقة البزاز من أن الفكرة القومية ستنتصر ، وأن الكيان العربى الشامل الذى دعا اليه فى كتبه وأبحاثه سيتحقق برغم كل العقبات والعراقيل والصعاب التى لا تنتهى • وهو يحذر – بصفة خاصة – من النعرات الطائفية والاتجاهات الانفصالية التى تشكل العدو اللدود للقومية العربية، والتى تعد الأسلحة الجاهزة والفتاكة التى يستخدمها أعداء العروبة كلما شعروا بأن العملاق العربى قد أوشك على الاستيقاظ من سباته الطويل والخروج من قمقمه المفتعل •

من هنا وجب التأكيد على أن الوحدة العربية القومية ليست مرادفة للوحدة الدينية أو العنصرية ، كما لا بد من الاستمرار فى تأكيد وحدة العرب الاقتصادية حتى يعرف العرب أقطارهم كلها مدى ارتباط معيشتهم، وتشابك وسائل الثروات والحياة الاقتصادية فى أقطارهم ، بحيث يعتقدون بأن لا بد لهم ، لكى يعيشوا عيشة كريمة راضية مرضية ، من توحيد جهودهم ، وتنسيقها فى ظل الكيان العام القادر فعلا وقانونا على القيام بهذا التنسيق •

ويؤكد البزاز تفاؤله بمستقبل القومية العربية فيقول انها ستقوى بالضرورة وبالتدريج فى كل أنحاء الوطن العربى ، وحين تصل بعض البلاد

العربية التى أقامت كيانها الحديث على أساس القومية العربية ، مرحلة مهمة من التقدم فى شتى الميادين ، فان مناورات أعداء العروبة ستتحطم من تلقاء نفسها على صخرة القومية · فالقومية العربية هى القوة المحركة للحصول على كيان اقتصادى أكثر ثباتا ، ونظام سياسى أعظم رسوخا ، ونصيب أوفر من التحضر والتمدن ، وحظ أعظم من العلوم والفنون والآداب وغير ذلك من أسباب القوة الحضارية التى لا تقوم لأية أمة معاصرة قائمة بدونها ·

١٠ ـ اميل البستانى « لبنان »

يبدو أن اميل البستانى أراد أن ينتقل بقضايا القومية العربية الى المستوى العالمى فألف كتابه « زحف العروبة » بالانجليزية فى لندن عام ١٩٦١ ونشرته له دار روبرت هيل • ثم قام عبد اللطيف شرارة بتعريبه فى العام نفسه ، وقامت « دار الكتاب اللبنانى » بنشره كى يواكب الطبعة الانجليزية • وفى الكتاب يتعرض البستانى لقضايا العرب بالأمس واليوم وغدا من خلال ثلاثة أقسام يربط فيها بين سرد وقائع التاريخ العربى بطول امتداده وبين الفكر القومى المرتبط به والمحرك له فى مختلف مراحله•

ويربط اميل البستانى بين الدور الحضارى الذى لعبه العرب ، وبين المقومات الأولى للشخصية العربية التى كانت تتبلور أو تتوارى طبقا للظروف التاريخية ، لكنها لم تندثر على الاطلاق • فقد كانت الحضارة العربية من أهم حلقات الاتصال فى سلسلة الحضارات الانسانية ، اذ امتص العرب فلسفة الاغريق القدامى وعلمهم ، وأحاطوا بمعارف الفرس والهنود ، وأضافوا الى المعرفة التى جعلوا من أنفسهم أوصياء عليها ، ولم يبخلوا بها على الأجيال من بعدهم • فعن طريقهم ذاعت الأرقام التى نشأت فى الهند ، وانتشر استعمالها فى أوروبا وأطلق عليها اسم « الأرقام العربية » من بعد ، كما كانوا أول من يستخدم الكسور العشرية مما أتاح الفرصة لعلماء الرياضيات الأوربيين أن يقوموا بالحسابات التى تتدرج فيها ، والتى لم يكن فى قدرة الاغريق ، على ما كانوا عليه من قوى ذهنية هائلة ، أن يصلوا الى نفس الآفاق الرياضية ، طالما أن جهازهم العددى لم يكن يشتمل على رمز للرقم صفر • كذلك ابتكر العرب فى حقول الكيمياء والفيزياء والرياضيات ابتكارات قيمة ، وان كانوا قد ركزوا على علم الجبر والهندسة وحساب المثلثات بصفة خاصة عندما ابتكروا

الرموز والمختصرات التى يقتضيها المنهج العلمى الحديث · أما فى الفلك فقد ترك العرب أثرهم فى السماوات على نحو عملى علمى عندما اكتشفوا كثيرا من الكواكب الثابتة وأطلقوا عليها أسماء عربية : الجوزاء ، زحل ، القائد ، الطائر وغيرها من الكواكب التى لا يزال يشار اليها اليوم فى الأوساط العلمية العالمية باسمائها العربية ·

ولولا العرب لكانت فلسفة أفلاطون وأرسطو قد اندثرت · فقد ترجموها وصانوها وعلقوا عليها بشكل أنارها وجعلها تتألق · وكان ابن رشد أكبر المعلقين عليها والمفسرين لها ، والى استنتاجاته استند توماس الاكوينى فى جهوده الشاملة التى بذلها للتوفيق بين الايمان الدينى والعقل البشرى ·

وفى مجال الطب يستشهد البستانى بابن سينا المفكر العربى الكبير ذى المعرفة الواسعة بل الموسوعية بحيث استمر تدريس ترجمات « قانونه الطبى » الى اللاتينية أكثر من سبعة قرون باعتبارها نصوصا رئيسية لطلاب الطب فى أوروبا من أقصاها الى أقصاها · وحتى الآن لا يزال العاملون فى مجال الطب يستشهدون باكتشافاته الريادية للأمراض التى لم تكن معروفة من قبل ·

وفى مجال الفنون نبغ العرب فى الشعر على الرغم من تقيدهم بالشكل التقليدى للقصيدة ، كما أسهموا اسهاما قويا فى تطوير الموسيقى وكان أول من فرض على النغمات الموسيقية أن تكون لها قيمة وقت مضبوطة فيما بينها ، وكان موسيقيو أوروبا فى القرن الثالث عشر وماتلاه من قرون يعترفون بريادة الموسيقيين العرب عن رضا واقتناع ·

وان كان العرب لم ينتجوا روائع خالدة فى التصوير أو النحت لارتباطهما فى أذهانهم بالوثنية ، فقد برعوا فى العمارة برغم الرأى التقليدى الذى يصورهم على أنهم أهل خيام · تبدو هذه البراعة فى بناية قبة الصخرة فى القدس والجامع الأموى فى دمشق وجامع قرطبة وقصر الحمراء فى غرناطة ·

أما فى مجال فنون الحرب فقد أدخل العرب على الهندسة العسكرية عددا من التحسينات لم تكن معروفة من قبل ، من بينها حائط مبتكر يبنى فى ظهور القلاع وفيه أبواب هى أفخاخ تنطلق منها السهام ضد العدو ويصب منها الزيت المغلى · وقد نقلت عدة دول أوروبية هذا الابتكار عن العرب وخاصة انجلترا حيث توجد له نماذج لا تزال مشهورة الى اليوم فى ونشستر ونوروتيش ·

كانت هذه هي ملامح الشخصية العربية كما تجسدت في مراحل ازدهار حضارتها ٠ لكن البستاني يرى أن القومية العربية بمفهومها الحديث بدأت بمحمد علي الذي يعتبره أول جد للقومية في العالم العربي ، ولكنه يؤكد أنه زرع بذور الحركة مصادفة ، فلم يفكر فيها أو يقصد اليها بحال ، وانما كان اهتمامه كله منصرفا الى توسعه العسكري وعظمته الشخصية أكثر مما انصرف الى تحرير العرب من التبعية ٠ أما ابنه ابراهيم فلم يكن قوميا أصيلا فحسب ، وانما كان واعيا أيضا ومعنيا عناية دقيقة بجعل الوحدة العربية حقيقة واقعة ، وان كانت القومية العربية مسبوقة قسرا بالقومية المصرية التي أثبتت وجودها أولا ، ردا على الاحتلال الفرنسي عام ١٧٩٨ ٠

وفي عام ١٨٨٠ وقعت أول مظاهرة للقومية العربية خارج مصر ، فقد تألفت جمعية في بيروت قامت بتوزيع منشوراتها في جميع مراكزها الرئيسية من البلاد تطالب باستعمال العربية كلغة رسمية والغاء الرقابة على الصحف ، ومنح الحكم الذاتي لسوريا ولبنان ٠ وبعد ثلاث سنوات حلتها السلطات وراحت الشرطة التركية تلاحق نشاطها وفر زعماؤها الى مصر حيث استمروا يروجون الأهداف القومية العربية ٠ وانبثق من صفوف أولئك المهاجرين ، أصحاب الصحف الأولى ومحرروها وناشروها في مصر مما أدى الى نمو بذور القومية العربية الخالصة ٠

وفي عام ١٩٠٨ تأسست جمعية للاخاء التركي العربي فشلت في تحقيق هذا الاخاء وحلت في العام نفسه ، مما فرض على العرب القوميين أن يشقوا طريقهم بأنفسهم ٠ وهكذا تحولت القومية العربية نحو الكتمان والعمل السري ، وتشكلت عدة جمعيات سرية نذرت نفسها لمتابعة أهداف تلك القومية بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١٤ ٠ وكان أهم هاتيك الجمعيات اثنتان « الفتاة » و « العهد » وكلتاهما تضمان بين أعضائها ضباطا عربا يخدمون في القوات التركية المسلحة ٠

وبرغم كل مظاهر الاحباط واليأس التي واجهتها القومية العربية فان البستاني لم يفقد تفاؤله بحيث يعتقد أن كل الآلام والتمزقات والانهيارات التي تواجهها الأمة العربية ليست سوى آلام المخاض لميلاد جديد مهما طال انتظارنا له ٠ فلا بد من يوم يأتي يندمج فيه العرب دون ريب ، في اتحاد متين ٠ وأكبر خطأ يمكن أن نرتكبه في حق القومية العربية أن نظن أن تحقيقها رهن بانشاء دولة عربية موحدة في الحال ، خاضعة لسلطان أحد زعماء العالم العربي ٠ ان هذا أمر لن يحدث في زماننا لأن الطريق الى اتحاد العرب طويلة ومتعرجة ، وغالبا

ما ترجع الى الوراء وتقطع المسافة نفسها مضاعفة أو تتابع السير من زوايا ، يكثر فيها التردد · وهذا يرجع الى خضوع العرب فى تحركاتهم السياسية لحوافز أخرى أكثر تعقدا من الرغبة فى الاتحاد ، حوافز انتقلت اليهم بالارث من تجربتهم فى الماضى ولا سيما من المعاملة التى لاقوها مع الغرب . وان كانوا يميلون الى التصور أن تصرفاتهم انما تمليها عليهم ضرورة الوحدة الملحة · ولذلك ينبه البستانى الى أن حالة المخاض الطويلة العسيرة التى تمر بها الأمة العربية المعاصرة فى حاجة الى أمومة ماهرة حانية . وافتقاد هذه الأمومة يمكن أن يفضى الى اجهاض أو وفاة ·

ويعرف البستانى القومية العربية بأنها مزيج من الكبرياء العربية الأصيلة والاعتزاز بالوطن · وهى الروح التى تصر على الاعتراف بهذا الواقع البسيط ، وهو أن الشعوب العربية فى أصولها شعب واحد ، وقادرة على أداء دور حضارى عظيم فى بناء حضارة عصرية ، أو أنها ستكون كذلك فى أمد قصير · والقومية العربية هى تيار الدم الجارى فى عروق الحياة العربية والحيوية السياسية ان وجدت ، والحافز الكامن وراء النشاطات العربية جميعها فى الحقل الدولى ، حتى عندما تكون تلك النشاطات متوجهة غاضبة ضد الدول العربية فيما بينها · وهى تأكيد حق العرب فى الامكانات التى تتمتع بها الشعوب المتقدمة فى العالم · وهذه الامكانات لا تهبط على العرب من السماء ، وانما يتحتم عليهم العمل من أجلها بكل طاقاتهم ·

ويفرق البستانى بين القومية والجنسية فيقول انه يمكن أن يكون العربى مصريا أو سوريا أو عراقيا أو سعوديا أو كويتيا فى جنسيته ، ولكنه حتما عربى فى قوميته · ومن الملاحظ أن زعماء العرب على تنوع مواطنهم يوجهون التهم الى بعضهم البعض ، انهم خانوا القضية القومية · وهذا يدل على أن العرب برغم انشقاقاتهم العلنية وخصوماتهم المدوية يظلون كما هم فى الأساس ، وحدة قائمة بذاتها · فالقومية العربية بطبيعتها لا يمكن أن تؤدى الى انشقاق الأمة العربية طالما أن العرب يتخاصمون من أجلها · وهذا الخصام يحدث فقط على مستوى الزعامات والقيادات السياسية ، أما على المستوى الشعبى فان العرب - خلافا لحكامهم - يصبحون يدا واحدا فى قوميتهم أيا كانت خلافاتهم ومهما تشعبت وكثرت وتناولت كل القضايا · أى أن الدول العربية ، حسب التعبير الحسابى ، هى الأرقام ، والقومية العربية هى القاسم المشترك الأكبر بين هذه الأرقام ، كما أنها المضاعف المشترك الأصغر فى آن واحد ·

ومن السخف أن يدعى المرء أنها غير قائمة كقوة أو ينكر وجودها ، أو يحسب من جهة ثانية أن ليس فى الامكان اخضاعها أو ضبطها من أجل

تحويلها الى طاقة منظمة · وعلى الرغم من المساوىء والسلبيات الكثيرة فى الوطن العربى ، فان الأقطار العربية تقدمت تقدما واضحا وان كانت لا تزال فى حاجة الى قطع مسافات بعيدة تترامى أمامها قبل أن ترفع رأسها وتعتز بأنها أصبحت ديمقراطيات راقية متفقة قوية العزيمة · فان أكثرية الناس فى دنيا العرب لا تنفك تعانى فقرا مدقعا ، وكثير منهم لا يزالون يحكمون بأسلوب اقطاعى ، ومعظم الدول العربية تقاسى الاضطراب الداخلى وعدم الاستقرار · وحكام العرب يواجهون على الدوام امكانية انهيار حكمهم بين عشية وضحاها · وقد رأينا كلنا ذلك يجرى أمام أعيننا · والمصالح المستثرية فى طول العالم العربى وعرضه تحول دون التقدم الاجتماعى الخالص الأصيل · وهناك خصومة ومشاحنة بين ساسة العرب الذين يبالغون دائما فى اظهار تعلقهم بالقومية العربية أكثر من بعضهم البعض · ولا تزال الجماهير العربية سهلة الاستهواء ، فأحيانا تميل مع نفر من الوطنيين المخلصين ، ولكنها غالبا ما تقع فريسة الديماجوجيين الذين ينصرف اهتمامهم الحقيقى الى اشباع شهوة الحكم · وثمة تركة من الفساد أورثتها العهود الماضية للأجيال الحاضرة ، والأمم كالأفراد تجد صعوبة كبرى فى التخلص من عادات سيئة كسبتها على مر السنين ·

ومع ذلك فالعالم العربى يكسب قبل كل شىء – وبعضهم يقول قسرا عنه – تقدما ملحوظا فى كل شهر يمر · ربما كان يتقدم ببطء ، ولكنه يتقدم مع انتشار الثقافة الآخذ فى الاتساع ، والمواصلات الجوية والمذياع والتليفزيون وحتى السينما كلها لعبت ولا تزال تلعب دورا كبيرا فى تغييره · وهذا التغيير طاقة متجددة تحتم على الساســـة الذين يعنون بالقضايا العربية أن يعملوا فى اتجاه الوحدة العربية لا ضدها · وقـد تتراءى اليوم بعيدة المنال لأن العالم العربى لم يكن منقسما على ذاته من الناحيتين السياسية والعقائدية ، كما هو اليوم ، وبعض دوله غارقـة فى بحر من الثراء ، فى حين ترزح دول أخرى تحت فقر مدقع ، والبعض يتمتعون فى معيشتهم بمستوى رفيع ، والبعض الآخر يعانى حالة تخلف اجتماعى ترجع به الى عصور البداوة · كما أن حرب الكلام على أمواج الأثير لا تهدأ · وخطورة هذه المشاحنات والحروب الكلامية أن تتحول الى صراعات دامية من تلك التى تحدث بين الذين « معهم » والذين « ليس معهم » ، وخاصة أن الذين « معهم » يرغبون فى أكثر الأحيان أن يزداد ما معهم على حساب الذين « ليس معهم » · واذا استمر هذا الفرق الشاسع فى الثروة بين الدول العربية ، فسيصعب دون ريب ، تحقيق الاستقرار فيها · ولذلك يعتبر البستانى التعاون الاقتصادى من أهم دعائم القومية العربية ·

وقد نادى البستاني في عام ١٩٦٠ بتشكيل مصرف تنمية عربي تنص لوائحه على توظيف ٥٪ من أرباح النفط السنوية في العالم العربي ، قبل توزيعها ودفع الضرائب ، على أنها وفر يدخر ، بفائدة قدرها ٢ر٥٪ في حساب خاص بايرادات النفط ، وتستثمر هذه الودائع حسب اتفاق مشترك لعدد محدد من السنين . وعلى الدول العربية كلها ، ومنها الأقطار المنتجة للنفط ، اذ ترغب في الافادة من المشروع أن تؤلف هيئة للتنمية الوطنية تملك الحكومة فيها على الأقل ٥٠٪ من الأسهم والرصيد الباقي يعرض لمساهمة الأفراد من مواطني ذلك البلد ، وأن يكون هناك هيئة واحدة لكل بلد عربي ، ولهذه الهيئة وحدها حق التفاوض بشأن الاقتراض من حساب عوائد النفط . وكل طلب اقتراض يرفق ببيان وخرائط مفصلة عن مشروعات التنمية المحتاجة الى قرض .

وكان البستاني يهدف من مشروعه الى اعطاء العرب الفرصة في كل مكان ، ليجعلوا بلادهم أفضل وأغنى وأرقى مهما هي عليه الآن . ثم أنه يزيد من حماسة الدول التي « معها » . فمن الواضح أنه عندما تشترك الدول اشتراكا فعالا في مشروع واحد ، يصبح تسهيل أعماله أمرا مضمونا لما فيه من مصلحة مشتركة . فمثل هذا المشروع يجعل الأقطار العربية شركاء . وذلك تطور لا ينجم عنه سوى الخير العميم وخاصة أن هناك المئات من مراحل التنمية يستطيع العرب أن يشرعوا فيها مهما يطل أمد انجازها وعلى الرغم من وضوح هذا المنهج العلمي فان السياسة العربية لم تبلغ بعد مرحلة النضج الحضاري الذي يؤكد لعالم اليوم أن الاقتصاد أصبح دعامة كل القوميات والحضارات .

١١ ـ عبد الحميد بن باديس « الجزائر »

يعد عبد الحميد بن باديس من الرواد الأول للقومية العربية فى الجزائر بصفة خاصة والمغرب العربى بصفة عامة ، وذلك فى وقت كان الاستعمار الفرنسى فيه يملك ناصية الأمور على هذه البقعة الطـــويلة الأفريقية من الأرض العربية · فقد ولد فى عام ١٨٨٩ وتوفى فى عام ١٩٤٠ ، أى أنه عاش نصف قرن من الزمان الصاخب الزاخر بالصراعات من أجل الاستقلال والبحث عن الذات العربية الأصيلة · وألقى بنفسه فى خضم المعركة ضد محاولات « فرنسة » الجزائر ، وتجريد الجزائريين العرب من قوميتهم العربية بهدف سلخ الجزائر من جسد الأمة العربية · وكان عبد الحميد بن باديس مفكرا عربيا قوميا بمعنى الكلمة عندما ربط بين قضية عروبة الجزائر والتراث الاسلامى ، معتمدا فى ذلك على صلة اللغة العربية بالقرآن ، ومن ثم استطاع ابراز أوجه التناقض الحادة بين الجزائر وفرنسا مما أعاق محاولات توطين الفرنسيين فى الجزائر وتحويلها الى اقليم فرنسى عبر البحر المتوسط ·

وكان المخطط الفرنسى الاستعمارى من الوضوح بحيث لم يحتمل أى لبس · فقد شن الفرنسيون حروبا متواصلة ضد اللغة العربية بهدف احلال اللغة الفرنسية مكانها ثم فرنسة الجزائر فيما بعد · وفى مواجهة هذه الموجة الطاغية لم يجد ابن باديس سلاحا يستخدمه فى مقاومتهـا سوى ابراز التناقض القومى بين الجزائر وفرنسا ، وهو تناقض يحمل فى طياته تناقضا دينيا لأن فكرة القومية العربية لم تكن معروفة فى ذلك الوقت فى الجزائر كفلسفة ايديولوجية · لذلك كان ابن باديس يصف الجزائر بأنها بلد عربى وأرض اسلامية أصيلة فى الوقت نفسه · وعندما عرضت عليه الاقامة الدائمة فى أثناء زيارته للأراضى الحجازية فى عـام

١٩١٢ قال معتزا بنفسه وببلده : « نحن لا نهاجر ٠٠ نحن مراسى الاسلام والعربية والقومية فى هذا الوطن » ٠

وفى دراسة بعنوان « عبد الحميد بن باديس وأولوية الفكــرة القومية » نشرها وحيد عبد المجيد فى مجلة « الموقف العربى » يناير ١٩٧٩ أوضح أن :

« اطار القومية العربية كان واضحا عند ابن باديس ولم يتميع فى اطار أية دعوة سلفية مبهمة كما اعتقد بعض الدارسين ٠ وهذا ما مكنه من التصدى لتنفيذ الفكر الاستعمارى الذى حاول التشكيك فى عروبة الجزائر بدعوى وجود عنصر غير عربى هو البربر ٠ فتحت عنوان « كيف أصبحت الجزائر عربية » أخذ يقارن بين تكوين الشعب الجزائرى وتكوين الشعب الفرنسى ، ويؤكد أن اختلاط الدماء فى فرنسا والأمم الأوروبية قائم ولم يحل ذلك دون أن تكون فرنسا (أمة واحدة فيما تتكون به الأمم) ، بينما تجد فى قرى فرنسا وعلى جبالها من لا يحسن اللغــة الفرنسية ولم يمنع ذلك القليل ـ نظرا للأكثرية ـ من أن تكون فرنسا أمة واحدة ٠ وهذه الحقيقة الموجودة فى فرنسا يتعامى الغلاة المتعصبون عنها ويحاولون بوجود اللغة البربرية فى بعض الجهات وجودا محليا وجهل عدد قليل جدا بالعربية فى رؤوس الجبال أن يشككوا فى الوحدة العربية للأمة الجزائرية التى كونتها القرون وشيدتها الأجيال » ٠

ومفهوم القومية العربية عند ابن باديس يبدأ بالانسان العربى الذى يشكل الوحدة الأولى والصغرى التى يتكون منها العالم العربى الكبير ، ثم يتسع هذا المفهوم ليشمل الوطن أو الاقليم أو القطر الذى يضم الانسان العربى ، ثم يتحول هذا المفهوم الوطنى المحدود الى المفهوم القومى الشامل الذى يجعل من الانســـان العــربى مواطنــا فى وطن يمتد من المحيــط الى الخليج ٠ وهذه النظـرة العلمية الواقعيــة جعلت ابن باديس ينادى بأن الانســـان العــربى لا يمكن أن ينفع قومه اذا أهمل أمــــر نفسه ، فعليه أن يبـــدأ بنفسه أولا حتى يكون ذا أثر نافع لوطنـــه وقومه ٠ وما ينطبق على الأفراد ينطبق بدوره على الشعوب ، فلن يستطيع شعب أن ينفع البشرية اذا كان مشتتا مهملا لا يهديه علم ولا يجمعه شعور قومى بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه ٠ أما الشعب الواعى بماضيه والمدرك لحاضره والدارس لمستقبله فانه يعرف جيدا حدود دوره الحضارى فى المجتمع الانسانى كله ٠ انه يأخذ من الأصول الثابتة فى الماضى ، ويصلح من شأنه فى الحاضر ويمد يده لبناء المستقبل ، فيتناول من زمنه وأمم

عصره ما يصلح لبنائه ، معرضا عما لا حاجة لديه أو ما لا يناسب شكل بنائه الذى وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته ٠

هكذا لا يجد ابن باديس أى تناقض بين الأصالة والمعاصرة ، أو بين القومية والانسانية ، فكلاهما وجهان لعملة واحدة هى الوجود الانسانى الذى يلبى كل حاجات الانسان الروحية والمادية ٠ فلا يمكن أن تتعارض المعاصرة والانسانية مع وحدة اللغة ووحدة المشاعر اللتين يعتبرهما ابن باديس من أبرز عناصر القومية عنده ٠ وهو واقعى عملى بحيث لا يتجاهل وجود الجذور البربرية أو « المازجية » للجزائر ، لكنه يقرر أن اختلاف العناصر والجذور والأصول العرقية لا يتعارض أبدا مع الوحدة القومية ٠ فقد دخل البربر فى الاسلام وتعلموا العربية من تلقاء أنفسهم ، وامتزج كيانهم العرقى والفكرى بالعرب ، وقاسموهم فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فأصبحوا شعبا واحدا ومتحدا غاية الاتحاد ممتزجا غاية الامتزاج ٠ ان العبرة ليست باختلاف الأصول العرقية فى الماضى ، وانما العبرة بوحدة الكيان القومى والثقافى فى الحاضر ،[9] والعمل القومى المشترك من أجل المستقبل ٠ فالقومية الحقيقية تنهض على وحدة الفؤاد والقلب واللسان ، وليس على وحدة العنصر أو الدم ٠ فلا فضل للانسان العربى فى الأصل العرقى الذى جاء منه ، وانما الفضل له فى انضوائه الحر التلقائى تحت لواء وحدة القلوب والأرواح والعقول ، هذه الوحدة التى تجسد وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال ٠

كان المستقبل العربى هو الشغل الشاغل لابن باديس ٠ فكل شىء يجب أن يسخر فى سبيل هذا المستقبل ٠ فعلى الرغم من اعتزازه البالغ بقوميته العربية ، فانه لم يتردد فى الدعوة الى الأخذ بأساليب التقدم الغربى ٠ فقد أدرك الخدعة التى حاول الغرب أن يوقع فيها العرب وذلك بوضعهم فى مواجهة الاختبار بين الالتزام بتراثهم أو الانجراف تماما مع تيار المدنية المعاصرة ، أى الاختيار بين التجمد والتحجر وبين فقدان الهوية القومية وضياع الهدف وسط موجات الحضارة المتقلبة والمتطورة ٠ يقول وحيد عبد المجيد فى دراسته ان ابن باديس :

« أدرك أن الغرب انما يستغل تفوقه الثقافى والحضارى ليصوغ اختيار المستقبل فى قالب جامد يشتمل على طريقين متناقضين : اما طريق الثقافة الغربية الحديثة وبالتالى التنكر للتراث ، واما طريق الجمود والانغلاق واجترار الذات والاغتراب عن الحياة العصرية ، كما أدرك أن البعض وقع فى هذا الفخ ، فهناك من ارتمى فى أحضان الثقافة الغربية كلية وهناك على العكس من اعتبر انه لا خلاص الا بالرجوع

للوراء ، ولذلك فقد رفض ابن باديس هذه الثنائية وأكد أن هناك طريقا ثالثا قوامه الجمع بين أفضل ما فى الطريقين من جوانب الابداع وبذلك اختار المنهج الانتقائى الذى يقف بين المنهجين السابقين • فلم يتخذ موقفا متعصبا ضد الثقافة الفرنسية وعبر عن ذلك بمقولته المستنيرة (اننا نفرق جيدا بين الروح الانسانية والروح الاستعمارية فى كل أمة ، فنحن يقدر ما نكره هذه ونقاومها ، نوالى تلك ونؤيدها •• فلتسقط الروح الاستعمارية ولتندحر ولترتفع الروح الانسانية ولتنتشر » •

واذا كان ابن باديس قد فصل بهذا الأسلوب التقدمى بين الدين والدولة ، فانه نادى أيضا بتطبيق النظام الديمقراطى الليبرالى • فعندما يجمع الزعيم السلطتين الدينية والزمنية فى يديه ، فانه بهذا لا يستمد سلطته من التفويض الشعبى القائم على الانتخاب الحر ، بل يدخل فى الأمر اعتبارات أخرى لا يد للشعب فيها ، وبذلك لا يملك الشعب عزله بحكم أن السلطة الدينية تحمل صفة الخلافة المقدسة بطريقة أو بأخرى • من هنا كان قول ابن باديس •

« لا حق لأحد فى ولاية أمر من أمور الأمة الاسلامية الا بتولية الأمة • فالأمة هى صاحبة الحق والسلطة فى الولاية والعزل فلا يتولى أحد أمرها الا برضاها » •

كما يؤكد أن أعظم ما لحق الأمم الاسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها ، ودعا الى سيادة القانون النابع من الأمة ، والذى رضيته لنفسها وعرفت فيه فائدتها • وكان ايمان ابن باديس بالديمقراطية الليبرالية وسيادة القانون نابعا من ايمانه بحق الانسان فى الحرية فهو يقول ان حق الانسان فى الحرية كحقه فى الحياة ، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية • أى أنه لا توجد انسانية فى غياب الحرية • والحرية عنده ليست مجرد فكرة مثالية نتطلع اليها دون أن نمارسها فى كل لحظة من لحظات حياتنا ، بل هى فكرة تنهض على أسس سياسية واقتصادية واجتماعية فالانسان الذى يعانى من التخلف انسان فاقد لحريته لأنه أسير قيود التخلف وقضبانه ، ولذلك فمقاومة الاستعمار عنده ليست مجرد حرب موجهة ضد جنود الاحتلال ، وتنتهى بتحقيق الجلاء والاستقلال ، بل هى مستمرة ومتصاعدة لحين الانتهاء من كل مظاهر التخلف السياسى والاقتصادى والاجتماعى التى تركها الاستعمار التقليدى •

كذلك فان القومية العربية عنده ليست فكرة مثالية مجردة بل ليا من الأسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما يحتم على العرب جميعا

أن يدركوا أن المصلحة المادية المشتركة بينهم هى الترجمة العملية الملموسة لأيديولوجية القومية العربية • فهى حرب منظمة وطويلة النفس ضـــد التخلف العربى فى كل مظاهره ، انها حرب فى مجالات التربية والتعليم والثقافة والسياسة والاقتصاد والتخطيط الاستراتيجى بصفة عامة • وهذا يؤكد ريادة التأصيل العلمى والفكرى التى قام بها عبد الحميد بن باديس فى مجال القومية العربية ، فقد استطاع بنظرته الثاقبة وفكره المستنير أن يستشرف آفاق المستقبل العربى فى وقت كان وطنه يرزح فيه تحت مضاعفات الاستعمار الفرنسى الذى كان يسعى بكل طاقته الى تحـــويل الجزائر الى مجرد اقليم فرنسى عبر البحر المتوسط • ولا شك أن انتصار ثورة الجزائر العربية وطرد المستعمر الفرنسى وعودة الجزائر الى جذورها العربية الأصيلة ، كل هذا كان تجسيدا حيا ملموسا لمكفاح الفكـرى والايديولوجى الذى نادى به عبد الحميد بن باديس وأعلنه على الأمـــة العربية جمعاء •

١٢ ـ أحمد بهاء الدين « مصر »

أحمد بهاء الدين من المفكرين والصحفيين القوميين العرب الذين نذروا قلمهم وفكرهم للدفاع عن القومية العربية بصفة عامة وعروبة مصر بصفة خاصة ٠ فكل مقالاته وكتاباته تنبض بهذا الحس القومى الأصيل الذى يستشرف آفاق المستقبل العربى دون الالتفات الى المساجلات الكلامية والمجادلات العقيمة والمهاترات المغرضة التى من شأنها الدخول فى طرق مسدودة ، ومتاهات جانبية ، ودوائر مفرغة ٠ وقد ساعد أحمد بهاء الدين فى هذا منهجه الفكرى المتسق ونظرته العلمية التحليلية الى كل القضايا المصيرية التى تهم كل العرب المؤمنين بقوميتهم ٠

فى مقال تحت عنوان « أى مصر يريدون ؟ » بجريدة الأهرام بتاريخ ٧ مايو ١٩٧٨ أوضح أحمد بهاء الدين أن القومية العربية ليست اختراع أحد ، والذين رسالتهم الأولى والأخيرة أصبحت عزل مصر عن الأمة العربية ، وتدمير كل ما اقترن بعروبة مصر من نضال الشعب المصرى خلال أجيال متتابعة ، على هؤلاء أن يبحثوا عن شىء آخر ينطحون قرونهم فيه غير انتماء مصر العربى ٠

بطول هذه الأجيال المتتابعة كان لانتماء مصر العربى دعاة ، وكانت معظم مكاتب تحرير العالم العربى مقرها القاهرة ، وكان معظم الزعماء الوطنيين العرب المطاردين فى بلادهم يلجأون الى القاهرة ٠ ويذكر بهاء الدين كيف خرج وهو طالب مع زملائه فى مظاهرات تعرضوا فيها لرصاص رجال الشرطة حين ضرب الفرنسيون دمشق بالمدافع واعتقلوا حكومة الاستقلال فى لبنان ، فى محاولة لنقض عهودهم التى أعطوها خلال الحرب العالمية الثانية باستقلال سوريا ولبنان ٠ وقد أصبح الزعيم السورى الكبير فارس الخورى بطلا قوميا فى مصر عندما وقف موقفه

التاريخى فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن وكان أعظم من تحدث عن احتلال مصر ، وأقوى من دافع عن استقلال مصر ٠

وعندما أطلقت الثورة بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ شعار « مصر أولا » عارضها أحمد بهاء الدين بالقول والكتابة ، لا لأن كلمة مصر أولا خاطئة ٠ فكل قطر لا بد أن يفكر فى نفسه أولا ٠ إنه لأمر طبيعى أن تبدأ بنفسك ثم بجارك ٠ لكن أحمد بهاء الدين ـ ومعه كل المصريين المؤمنين بالقومية العربية ـ خاف أن يكون هذا المبدأ تمهيدا لعزلة مصر عن الأمة العربية ، ذلك أن مثل هذه العزلة مستحيلة بحكم الواقع والتاريخ والمصلحة والمشاعر التى يقول عنها بهاء الدين :

« نعم ، المشاعر ٠ ولا يجوز أن يخجل أحد من وصف الانتماء العربى لمصر بأنه شعور عاطفى ٠ ما الذى يربط المرء بوطنه أيا كان ؟ يربطه به أنه مكان رزقه ؟ يربطه به أن طقسه أحسن من غيره ؟ يربطه به ألف رباط ٠ ولكن يتبلور هذا كله فى « شعور » بالانتماء ٠ قد لا يكون الوطن أجمل الأوطان ، ولا أغناها ، ولا أكثرها راحة ٠ ولكنه الوطن ٠ فالشعور الوطنى ليست عيبا ٠ العيب هو انعدام الشعور الوطنى ٠ وكذلك الحال بالنسبة للشعور القومى » ٠

ويؤمن أحمد بهاء الدين بأن أهم عناصر القومية الواحدة هى وحدة التراث ، وتشابه التكوين النفسى ، ووحدة اللغة ، ثم الجغرافيا والمصلحة ووحدة الآمال ٠ انها عناصر قد تتوفر بنسب مختلفة من قومية الى قومية ٠ لهذا يؤكد بهاء الدين أن القوميات ليست معالم جغرافية ثابتة كالمحيطات والجبال والأنهار ، فهى معالم انسانية ، وكل ما له صلة بالانسان متغير لأن الانسان هو العنصر المتغير الوحيد فى الكون ٠ وهو العنصر الوحيد الذى له ارادة فى هذا الكون ، غير الجماد والنبات والحيوان٠ فشعور المرء بالانتماء القومى أساسى ٠ يمكن تقويته ، ويمكن اضعافه ٠ وهناك قوميات عاشت آلاف السنين وانتجت حضارات ، وهناك قوميات ماتت ، وهناك قوميات وصل أفرادها الى ألف مليون كالصين ، وقوميات يقل عدد أفرادها عن المليون ، ولكنها عاشت ٠

وحين يقول بهاء الدين بذلك فانه يحمل الانسان العربى والقادة العرب مسئولية مصيرية فى هذا المجال ٠ ذلك أنه يمكن محاربة الشعور القومى والعمل على اضعافه ، كذلك يمكن العمل على تقوية الشعور القومى والارتقاء به اذا كانت عناصره الأساسية متوفرة طبعا ٠ أما الذين يعملون على اضعاف الشعور القومى فى مصر بدعوتهم الى اخراج مصر من قلب العروبة ، فانهم لا يعرفون أنهم يتجاهلون مرحلة الألف وخمسمائة

عام التى جرت فيها دماء العروبة فى شرايين مصر . ان الذين يقولون للمصرى ان الانتماء العربى يلغى ملامحك وماضيك يقولون كلاما لا معنى له . ذلك أن أصغر بلد عربى الآن ينقب فى حفرياته عن آلاف السنين الماضيات .

أما عن العلاقة بين مفهوم القومية العربية ومفهوم العقيدة الدينية فيقول أحمد بهاء الدين :

« لست أجد أى مجال للخلط بين العروبة والاسلام . هناك « فرق » بين العروبة والاسلام . الأولى قومية لها الصفات السابقة ، والثانى دين موجه للناس كافة لا فرق فيه بين عربى وأعجمى الا بالتقوى . ولكن حين يستخدم هذا « الفرق » من أجل ايجاد « الخلط » و « الارتباك » وتقويض العروبة ، فهنا لا بد أن تكون لنا وقفة . ونكتفى لحكمة الايجاز بنقطتين :

النقطة الأولى : هى أن الاسلام قد انتشر فى مساحة أوسع جدا من « المساحة العربية » أو التى صارت عربية ، أندونيسيا وحدها فيهـا مسلمون أكثر من كل الدول العربية ، دعـك من ايـران وباكستان وبنجلاديش والصين وأفريقيا . وحين نقرأ أن انجليزيا اعتنق الاسلام ، أو أن الزنوج فى أمريكا فيهم قطاع كبير مسلم ، فهم لا يعتنقون العروبة . انهم يظلون بريطانيين وأمريكيين .

النقطة الثانية : فى داخل المنطقة العربية ذاتها ليست العروبة طبعا هى الاسلام . ولا يلزم الاسلام كل أهل دياره باعتناقـه ، ولا يحارب الا الكفار ، ولكن من يفكر أن التراث الضخم القوى الطويل الاسلامى ، قد صار بالنسبة للجميع ـ العربى المسلم طبعا والمسيحى واليهودى ـ هو تراثه الذى يفكر به ويكتب بلغته ، ويتأثر بالكثير من عاداته » .

لذلك يؤكد أحمد بهاء الدين أن الذين يحاولون وضـع هـذا ضـد ذاك يدمرون حاضرنا ومستقبلنا ، لكنهم على أية حال لن يغيروا ألفا وخمسمائة سنة . صحيح أن الاعتزاز بالتراث الوطنى المحلى واجب على أبناء الوطن لا شك فى ذلك ، لكن هذا الاعتزاز ـ اذا تطرف ـ يتحول الى لحظات مراهقة لم تكن أبدا شأن الكبار . ويرصد أحمد بهاء الدين هذه اللحظات التى تعتور الحركة القومية الحديثة فيقول انها لم تقتصر على مصر فقط بل برزت فى اقطار عربية رائدة مثل سوريا والعراق . فالآن يغير العراق أسماء بعض محافظاته الى أمجاده القديمـة ، السابقة على الاسلام والعروبة مثل بابل ونينوى ، أو بعدها مثل القادسية . وفى قلب

دمشق أقيمت لأول مرة تماثيل من الحضارة السريانية ، تماما كما نقيم في قلب القاهرة تمثال رمسيس ·

لقد أصبح من المستحيل اقامة القومية على أساس من العرقية · فمن المستحيل – مثلا – اثبات العرقية الواحدة فى أى وطن كبير كمصر أو الجزائر أو سوريا أو العراق · ما الذى سيعود على المصريين عندما يثبتون انهم من سلالة الفراعنة فقط ؟! ذلك على الرغم من استحالة المحاولة ! ان مثل هذا البحث أصبح غير وارد فى أى بلد · المهم وضع الأمة الراهن والعاطفة المرتبطة به · أما الوضع السياسى فحالة مؤقتة ومتغيرة وخاصة أن الخلافات السياسية هى خلافات نظم ، وصراعات دول ، ونزاعات حكام وقادة ، وليست خلافات شعوب أما مشاكل الأقليات فهى أولا فى كل مكان من العالم ، ثم ان الحروب العربية الكبرى طيلة ١٥٠٠ سنة ، كانت بين دول اسلامية وفرق اسلامية ·

واذا كان تفاوت المستويات الحضارية بين بلاد القومية الواحدة أمرا مهما للغاية ، فان العالم كله ، بحكم وسائل التعليم والاعلام والديمقراطية الاجتماعية ، تزول بينه فوارق المستويات الحضارية · أو هذا ما يعمل له المستنيرون ، فما بالنا حين يكون الأمر خاصا بالأمة العربية ؟ وهل نعمل للقضاء على التفاوت ؟ · أم نعمل على تعميقه ؟!

وتبدو فلسفة أحمد بهـاء الدين الواقعية عندما يوضح ان العروبة أو القومية العربية لا تعنى الدولة الواحدة · انها قد تعنى حسن الجوار ، وقد تعنى التكامل الاقتصادى والاجتماعى مع الزمن ، وقد تعنى التحالف ازاء الأخطار المشتركة ، وقد تعنى ظهور ولايات عربية فيدرالية أو متحدة أو موحدة · هذه كلها تطورات نؤثر نحن فيها بأفعالنا وأقوالنا ، ولهذا يلقى بهاء الدين على الكاتب والمفكر مسئولية ما يكتب ، وما ينادى به ، لا أن يلقى بريشته وفكره فى اتجاه كل ريح بحيث يصبحان تحت رحمة مجرى التاريخ وأوضاع العالم الراهن ، مع العلم بأن كل القوى العالميـة دون استثناء ضد أى تماسك عربى ، مهما كانت درجته لذلك فان المطلوب منا اليوم فقط أن نسير فى الطريق الصحيح ·

هذا ما أكده أحمد بهاء الدين فى جريدة « الأهالى » بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٧٨ عندما كتب مقالا بعنوان « عن مصر والعروبة » أبرز فيه كيف تريد القوى العالمية الكبرى أن ترى مصر وقد خرجت من العالم العربى · فهذا بمثابة اخراج « المحرك » من السيارة ، ثم ترى المغرب العربى وقد سار فى اتجاه والمشرق العربى وقد تمزق الى دويلات ، ودول الخليج البترولية وقد تجردت من كل غطاء عربى · فهذا يناسب بالتأكيد الاتحاد السوفييتى

والولايات المتحدة وكتلة السوق الأوروبية المشتركة واسرائيل ۰۰۰ الخ ۰ ذلك أنه أسهل لهم جميعا بالتأكيد أن تتعامل مع هذه الشظايا العربية : منفردة بكل واحدة منها ۰ أسهل مائة مرة من أن تتعامل مع العرب ككتلة واحدة ؛ حتى ولو كانت بينها اوهى الخيوط ۰

لذلك يحتم أحمد بهاء الدين الفصل بين « الثابت » و « المتغير » فى العالم العربى ، فبعض المفكرين العرب يقفزون من الشىء الى نقيضه ، ومن الرأى الى عكسه حسب الظروف أو الأحداث الوقتية ۰ فهم كالمضاربين السذج فى السوق ، اذا هبط سعر عملة ما باعوا كل ما لديهم واذا ارتفع سعر عملة ما اشتروا بكل ما لديهم ۰ لكن هذا التضارب والتخبط اذا دخلا فى عالم السياسة الاستراتيجية ورسم مصائر الشعوب والدول فانه من الطبيعى أن نجد الذين يلبسون ثياب العروبة اذا رأوا فى العلاقة العربية صفقة رابحة ، هم أنفسهم الذين يخلعون الثياب نفسها اذا رأوها تعود عليهم فى احدى اللحظات بالخسارة ۰

ان انتماء مصر للعروبة ليس ثوبا تلبسه ١٩٥٦ ثم تخلعه سنة ١٩٦٧ ثم تلبسه سنة ١٩٧٣ ثم تخلعه بعد ذلك وهكذا ۰ فهوية شعب ما لا تغيره معركة رابحة ثم معركة خاسرة وهكذا بل ان الشعوب تخوض المعارك من أجل هويتها ۰ وليس العكس ۰ هذا هو الخلط الفاحش الأول أما الخلط الفاحش الثانى فنجده فى عدم تفرقتنا بين الحكومات وبين الشعوب ، خصوصا فى عالم عربى يخرج من تأخر طويل ولم يصل بعد الى الصيغة الديمقراطية الناضجة التى تجعل الحاكم ممثلا طبيعيا لشعبه ۰ أما الخلط الفاحش الثالث فيتبدى فى الخلط بين الخلافات السياسية ، وبين الهوية الأصلية لشعوب العالم العربى وعلى رأسها مصر ۰ ولا بد أن العرب المخلصين قد أدركوا سوء نية الذين يحاولون تأليب الشعب المصرى على العرب ، والذين يحاولون من خارج مصر ايهام العرب بأن مصر خلعت عروبتها كما يخلع المرء ثوبا ليستبدل به ثوبا آخر ۰

والدليل على بطلان هذه المحاولات لتزييف القومية العربية أن الروابط العربية العضوية ، برغم الخلافات السياسية ـ تقوى كل يوم بفعل الواقع وفعل التطور وفعل الحس الفطرى السليم للشعوب ۰ ويكفى أن نذكر أننا فى عصر تحاول فيه حتى أكبر الدول أن تجد أو حتى تخترع بينها وبين غيرها الروابط ، لتقوى فى عالم لا يرحم ، ومع ذلك نجد فى العالم العربى من يريد أن يفك عرى رابطة حقيقية قائمة بالفعل : رابطة طبيعية عميقة هى الرابطة العربية ۰ ان من العار أن نترك الخلافات السياسية المتجددة ـ للأسف ـ تنخر كالسوس فى جذور الانتماء العربى

الأصيل ، حتى تقضى عليه قضاء مبرما فى غفلة من وعى الرأى العام العربى ٠

انه لمن العبث والسخف أن تظل الأمة العربيـــة تعيد وتزيد فى قضاياها الحياتية والمصيرية – حتى تحديد هويتها – مئات السنين ، بعد كل ما طرحه الفكر العربى منذ أيام الطهطاوى والكواكبى والأفغانى ومحمد عبده سواء فى مجال الأصالة والتجديد ، أم فى مجال قوانين الأحـوال الشخصية ، أم فى مجال القومية والوطنية ٠ لقد آن الأوان لنضع حـدا ونهاية لهذا الجدل العقيم الذى يدور فى دائرة مفرغة حول هذه الأسئلة دون حسم ودون رد أكثر من مائة سنة ؟ لقد تكلمنا كثيرا فى وقت انصرف فيه الآخرون الى العمل الجاد المثمر حتى أصبحنا فى مفترق الطرق : هل نستمر فى الكلام أم نشرع فى العمل القومى الكبير ؟!

١٣ ـ جبران خليل جبران « لبنان »

لا شك أن القمة التى بلغها جبران خليل جبران فى مجال الشعر قد ألقت بظلالها الكثيفة على فكره القـــومى العربى فحجبته عن أعين الباحثين وأضواء الدارسين وتطلعات المحللين • ولكن من يتعرض لهذا الفكر بالدراسة الشاملة والتحليل الواعى سيدرك أن جبران يعد فى طليعة المفكرين العرب الذين بلوروا جوهر القومية العربية وروحها فى مرحلـة مبكرة ترجع الى مطالع هذا القرن • ويبدو أن الحاح القضية على وجدانه قد أدى به الى معالجة جوانبها المختلفة فى كتاباته النثرية حتى يضمن وصولها الى القاعدة العريضة من جماهير العرب الذين قد لا يهتمون كثيرا بتذوق الشعر • وعلى الرغم من رحيل جبران عن دنيانا منذ ما يقرب من نصف قرن ، فان كتاباته المثيرة تبدو كأنهـا كتبت بالأمس فقط ، ذلك أن معظم الآراء التى وردت بها تنطبق تماما على حال الأمة العربية اليوم • وهذه فى حد ذاتها مأساة مريرة لأنها تعنى أننا كعرب لا نزال ندور فى الدائرة المفرغة التى دار فيها أجدادنا منذ ما يقرب من القرن • وكنا نتمنى أن تصبح آراء جبران مجـــرد تاريخ يروى الآن ، وليست اتجاهات قومية لم تفلح حتى الآن فى تحويلها الى واقع ملموس •

فمثلا فى عام ١٩٢٣ استفتت مجلة « الهلال » طائفة من كبار الأدباء فى موضوع نهضة العرب وموقفهم ازاء المدنية الغربية ، وكان ســؤال المجلة : هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء أم هى فوران وقتى لا يلبث أن يخمد ؟ وكان رد جبران أن ما نحسبه نهضة فى الأفكار العربية ليس بأكثر من صدى ضئيل للمدنية الغربية الحديثة ، ذلك لأن ما يسمى بالنهضة العربية لا يحمل فى طياته ابداعا من عنده ، ولا شخصية متميزة مصبوغة بذاتيتها الأصيلة • ويضرب

جبران المثل بالاسفنجة التى تمتص الماء من خارجها وتتفتح قليلا ، لكنها لا تتحول الى ينبوع ماء حى . لقد تحول الشرق العربى الى مستعمرة كبرى للغربيين . أما العرب الذين يفاخرون بماضيهم ويتباهون بآثارهم ويتبجحون بأعمال جدودهم ، فقد صاروا عبيدا بأفكـــارهم وميولهـم ومنازعهم للفكرة الغربية والميول الغربية والمنازع الغربية .

ولا يعنى جبران بهذا أنه يرفض الحضارة الغربية ، بل يعترف بأن آراءه على وفاق تام مع أكثر مفكرى الغرب . لكنه يبحث فى هل الأقطار العربية ناهضة أم غير ناهضة ؟ ويدرس ما تتناوله لفظة « نهوض » من المعانى وما تقرره من النتائج . اذا كان النهوض بالتلمذة ، وما يظهره التلميذ بعض الأحايين من المقدرة على الاقتباس الســـطحى ، فالاقطار العربية اذا ناهضة . واذا كان النهوض بترقيع البالى ، فهذه الأقطار أحرى الأقطار بالاعجاب . فالمأساة تتمثل فى أن العرب يرون النهضة فى ارتداء ثوب فصل لشعب آخر ، وفى تبييض القاتم ، وتكليس المتداعى ، وترميم المهدوم ، والنظر بمكبرات الجهالة بحيث يرون النملة فيـــلا والبعوضـــة جملا ، والانصراف عن النبيل لصعوبته ، والاستسلام للتافه لسهولته . أما ما نراه فى الحضارة الغربية من اختراع واكتشاف ، وروح وجوهر ، ويقظة معنوية ومعرفة باطنية ، فهذه كلها خصائص لا شأن للعرب بها ، برغم أنها كانت الدعائم نفسها التى قامت عليها حضارتهم العريقة .

ان الحضارة عند جبران بالمصادر لا بالفروع وبالجـــوهر الثابت لا بالأعراض المتقلبة ، وبما ينشره الوحى من غوامض الحياة لا بما يحركه الفكر من الرغائب الوقتية ، وبالروح المبدع لا بالمهارة المقلدة . فالروح خالد وما يبنيه الروح خالد ، أما المهارة فقشور مصقولة تزول ، وما تعكسه على أديمها المصقول فأخيلة تضمحل . ولذلك فالأقطار العربية ليست بناهضة لأنها تحسب النهوض فى تقليد المدنية الغربية الحـــديثة التى يرتاب فيها أبناؤها العقلاء ويكرهون أكثر مظاهرها . ولكن اذا عـادت الأقطار العربية وتنبهت الى ما فى ذاتها الخاصة من القوى ، واستوعبت كنوزها المعنوية مع الاستفادة بآخر ما وصلت اليه حضارة العصر ، فانها تكون ناهضة نهضة حقيقية قائمة على أساس وطيد وليست بفوران وقتى لا يلبث أن يخمد . ومن الواضح أن جبران كان يحاول حسم قضية الأصالة والمعاصرة التى فشلنا نحن العرب فى حسمها حتى الآن .

أما رأى جبران فى الوحدة العربية فكان رأيا واقعيا صريحا لدرجة التشاؤم القاتم . فالاتحاد العربى يستحيل فى عالم يضـــع القوة فوق الحق ، فى حين لا يتكلم العرب الا عن الحق وينسون أو يتناسون القوة

فتكون النتيجة أنهم لا يحصلون على هذا أو تلك · ومن المستحيل تحقيق الوحدة أو الاتحاد أو حتى التضامن بين العرب فى مواجهة الدول الغربية التى تضع المطامع الاستعمارية والاقتصادية فوق كل شيء معتمدة فى ذلك على الجيوش المدربة والبوارج الضخمة لهدم كل ما يقف فى سبيل منازعها استعمارية كانت أم اقتصادية · ويتساءل جبران :

« وأنى للأقطار العربية التضامن وقلب كل قطر يخفق ولكن بصدر عاصمة من عواصم الغرب ؟ وكيف تستطيع الالفة والتعاون وكل منها يستمد ميوله السياسية والعمرانية والاقتصادية من زاوية بعيدة من زوايا الغرب ؟ اذا كان القطر الواحد من الأقطار العربية يريد أن يتفق سياسيا مع القطر الآخر فعليه أن يأخذ ويعطيه · واذا كان يريد أن يلتحم به اداريا فعليه أن يقربه ويقترب منه · واذا كان يريد أن يستعين به اقتصاديا فعليه أن يؤثر مبادلته على مبادلة البلاد الأخرى · فهل فهم الشرق العربى هذه الأوليات البسيطة ـ البسيطة الى حد الابتذال ؟

أقول انهم لم يدركوها بعد وأقول انهم لن يدركوها حتى يكتشفوا فى نفوسهم ما هو أعمق منها وأبعد · ألا فليخبرنى الفهماء هل يفضل السورى الأخذ والعطاء مع المصرى على الأخذ والعطاء مع الغربى ، وهل يؤثر المصرى الاقتراب من السورى على الاقتراب من الغربى ، وهل العربى فى الحجاز أو اليمن أو العراق أشد رغبة فى مبادلة المصرى أو السورى منه فى مبادلة الغربى ؟

وليخبرنى الأذكياء هل يمكن التضامن السياسى أو غير السياسى بدون التضامن الاقتصادى بل الاستقلال الاقتصادى ؟ وبعد ذلك فليقل لى العقلاء والوجهاء وقادة الرأى العام هل يرغبون حقيقة فى نهضة الأقطار العربية وفى تضامنها وفى استقلالها وجل ما يفعلونه فى هذا السبيل ابداء آرائهم ، وأكثرها بليدة وعقيمة ، أما أعمالهم الخاصة ومآتيهم الذاتية وكل ما تتناوله حياتهم اليومية فيخالف مزاعمهم وتنكر عليهم دعواهم » ·

وعلى الرغم من أن هذا النقد الذاتى للسلبيات العربية قد كتبه جبران فى عام ١٩٢٣ ، فانه يكاد ينطبق بحذافيره على مجريات الأمور فى عالمنا العربى المعاصر · واذا كان جبران ينعى على العرب فى زمانه تضامنهم فى الأمور العرضية وعجزهم عن التضامن فى الأمور الجوهرية ، فلنا أن نتخيل رأيه الآن بعد أن فشلوا أيضا فى التضامن فى الأمور العرضية · انهم يعرفون جيدا كيف يتعاملون مع الأجانب ، أما فيما بينهم فسرعان ما تتفجر الصراعات وتنطلق ليشهدها القاصى قبل الدانى ·

ويعلل جبران هذه المأساة بافتقار العرب المعاصرين الى الأصالة العربية التى قامت عليها حضارتهم القديمة ، وأنسب مدخل يراه جبران لتجديد هذه الأصالة يتمثل فى أمرين أساسيين ، أولهما تثقيف الناشـــئة فى مدارس قومية ، ورفع لواء اللغة العربية ، واستيعاب علوم العصر مما يؤدى الى الألفة المعنوية والاستقـلال النفسى ، وثانيهما استثمار الأرض زراعيا ومعدنيا واستخراج خيراتها ، وتحويل تلك الخيرات الى منتجات تسد حاجة القوم من مأكل عربى وملبس عربى ومأوى عربى ، فينتج عن ذلك التضامن الاقتصادى ثم الاستقلال السياسى ٠

وقد أثيرت فى زمن جبران قضية اقتباس العرب عناصر الحضارة الغربية والحدود التى يجب على مثل هذا الاقتباس ألا يتخطاها وكان رأى جبران فى منتهى الحسم والوضوح عندما أكد أن القضية ليست فيما ينبغى أن يقتبسه الشرق العربى أو لا يقتبســـه من عناصر الحضـــارة الغربية ، بل هى فيما يستطيع العربى أن يفعله بتلك العناصر بعد أن يتناولها ٠ فقد كان الغربيون فى الماضى يتناولون ما نطبخه فيمضغونـــه ويبتلعونه محولين الصالح منه الى كيانهم الغربى ، أما العرب فى الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحول الى كيانهم القومى بل يحولهم الى شبه غربيين ، وهى حالة تجعل الأمة العربية – فى نظر جبران – تبدو تارة كعجوز فقدت أضراسها وتارة أخرى كطفل بدون أضراس ٠ وهذا يرجع الى وقوع العقل العربى ضحية التشويش والقصور والعجز والغشاوة الناتجة عن تراكمـــات المـــاضى القريب ورواسبه ٠ أما الغربيون فقد اتقنوا فن الترتيب حتى بلغوا أقصى درجاته ، فهم ان رتبوا عيوبهم ظهرت كأنها حسنات جليلة ، وان رتبوا حسناتهم بدأت كأنها معجزات رائعة ٠ فاذا كان لا بد من الاقتباس فلنقتبس هذا الفن عن الغربيين بشرط ألا نقتبس سواه ٠ ويقصد جبران بهذا أن النهضة الحضارية لا تنتج عن اقتباس مظاهر حضارة أخرى ، ولكنها تنتج عن اقتباس المنهج الذى أدى اليها ٠ أى أننا قبل أن تبهرنا النتائج ونهرع الى تقليدها ، علينا الوصول الى الأسباب واستيعابها للعمل على توظيفها بطريقة تتفق مع كياننا الذاتى وخصائصنا القومية وشخصيتنا الحضارية ٠

أما اللغة العربية بصفتهـــا من أهم الخصـــائص المميزة للقومية العربية ، فكان من الطبيعى أن يهتم بها جبران سواء كشاعر أم كمفكر قومى ٠ فهو يرى أن « اللغة مظهر من مظاهر الابتكار فى مجموع الأمة ، أو ذاتها العامة ، فاذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها ، وفى الوقوف التقهقر ، وفى التقهقر الموت والاندثار ٠ اذن فمستقبل اللغـة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن – أو غير الكائن – فى

مجموع الأمم التى تتكلم اللغة العربية · فان كان ذلك الفكر موجودا كان مستقبل اللغة عظيما كماضيها ، وان كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية » ·

وبهذا يلفت جبران نظر العرب الى حقيقة كثيرا ما تغيب عن أذهانهم برغم بدهيتها ، وهى أن اللغة لا تنفصل عن الفكر لأنه يشـكل ينبوع تجددها وملامح مستقبلها · فالفكر هو الجوع والعطش والشوق الى غير المعروف ، وسلسلة أحلام تسعى الأمة الى تحقيقها ليلا ونهارا · وهو فى الأفراد النبوغ وفى الجماعة الحماسة ، وما النبوغ سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة القومية فى أشكال ظاهرة محسوسة · « ففى الجاهلية كان الشاعر يتأهب لأن العرب كانوا فى حالة تأهب ، وكان ينمو ويتمدد أيام المخضرمين لأن العرب كانوا فى حالة نمو وتمدد ، وكـان يتشعب أيام المولدين لأن الأمة الاسلامية كانت فى حالة تشعب · وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلون فيظهر آنا كفيلسوف وآونة كطبيب ، وأخرى كفلكى حتى راود النعاس قوة الفكر والابتكار فى اللغة العربية فنامت وبنومها تحول الشعراء الى ناظمين والفـلاسفة الى كلاميين والأطباء الى دجـالين والفلكيون الى منجمين » ·

وأخطر ما فى اللغة أنها ليست مجرد ألفاظ تعبر عن مدلولات معينة، وانما هى منهج للتفكير · ومن هنا حـرصت الدول الاستعمارية التى تكالبت على الأمة العربية على ترسيخ لغاتها واقتلاع جذور اللغة العربية من خلال اللجان الطائفية والبعثات الدينية والجمعيات الخيرية ذات النفوذ لدى الحكومات المحلية · فقد فرق التعليم الأجنبى كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طـوائفنا حتى أصبحت بـلادنا مجموعـة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تربط نفسها بحبل احدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها · « فالشاب الذى تناول لقمة من العلم فى مدرسة أميريكية قد تحول بالطبع الى معتمد أمريكى والشاب الذى تجرع رشفة من العلم فى مدرسة فرنسية صار سفيرا افرنسيا ، والشاب الذى لبس قميصا من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا ·· » ·

وعندما يناقش جبران خصائص القومية فانه يتخـذ موقفا يكـاد يختلف مع معظم الذين عالجوا هذه القضية ، لكنه اختلاف لا يصل الى حد التناقض · فهو يوافق على وحـدة اللغـة والدين والعرق والاقتصـاد والاجتماع كعوامل ـ منفردة أو متجمعة ـ فى تشكيل الشخصية القومية للأمة · لكنه يوافق عليها بتحفظ لأنها لا تعتبر فى نظره عوامل مطلقة غير قابلة للاستثناء أو الجدل طبقا لاختلاف الظروف والعصور · أما رأيـه

الشخصى فى هذه القضية فيعترف أن بعض المفكرين قد يحسبه غريبا وذلك لأن أصوله ونتائجه ليست من الأمور المحسوسة • يقول :

« لكل شعب ذات عامة ، تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات الفرد • ومع أن هذه الذات العامة تستمد كيانها من أفراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتراب والنور والحرارة فهى مستقلة عن الشعب ولها حياة خاصة وارادة منفردة • وكما يصعب على تحديد وتعيين الزمن الذى تتولد فيه ذات الفرد الواحد هكذا يصعب على تعيين وتحديد الزمن الذى تتولد فيه الذات العامة » •

ولعل ما يثبت صحة رأى جبران أنه على الرغم من التمزق الخطير الذى تعانيه الأمة العربية الآن ، فان القومية العربية لاتزال داخل كل عربى ، وفى انتظار الخروج من القمقم الذى صنعه لها الاستعمار وأعوان الاستعمار • فعندما يتقابل العربى بأى عربى آخر بامتداد الوطن العربى من المحيط الى الخليج ، سرعان ما يشعر كلاهما أنهما يعرفـــان بعضهما بعضا منذ زمن بعيد • وهذا الشعور أكبر دليل ملموس على أن للقومية ذ تا مستقلة عن الشعب ولها حياة خاصة وارادة منفردة وان كانت تعبر عن ذاتها من خلاله • أما كيف تكونت الذات العربية فيقول جبران :

« أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصى فى القرن الثالث قبل الاسلام ولم تتمخض بالنبى محمد حتى انتصبت كالجبار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف فى سبيلها • ولما بلغت العباسيين تربعت على عرش منتصب فوق قواعد لاعداد لها أولها فى الهند وآخرها فى الأندلس ، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق الى الغرب كرهت الذات العربية يقظتهـا فنـامت ولكن نوما خفيفا متقطعا • وقد تعود وتفيق ثانية لتبين ما بقى خفيا فى نفسها كما عادت الذات الرومانية فى زمن النهضـة الايطالية المعروفـة « بالرنسانس » وأكملت فى البندقية وفلورنسا وميلان ما ابتدأت به قبل أن تباغتها الشعوب التوتونية فى بدء الأجيال المظلمة » •

يقول جبران هذا الكلام لأنه يؤمن أن الكيان القومى للأمة قد يتغير ، ولكنه لا ولن يضمحل ، فهو كالكيان المادى يتحول من شكل الى شكل ومن صورة الى صورة أما دقائقه وذراته الوضعية فباقية ببقاء الزمن • فذات الأمة العامة قد تنام لكنها لا تموت • ونحن ـ كأفراد وجماعات ـ ورثة هذا الذات العامة التى لا تتخذ لنفسها صورا محسوسة فى الفرد والجماعات الا بعد أن تتبلور الأمة من خلال حياتها الخاصـة وارادتهـا المنفردة •

١٤ ــ ابراهيم جمعة « مصر »

يرى ابراهيم جمعة فى القومية العربية عقيدة قلبية وجدانية نابعة من أعماق الضمير القومي قبل أن تكون حقيقة فكرية ۰ فهى موجودة فى وجدان الجماهير العربية قبل أن تتناولها أقلام الدارسين والمفكرين بالبحث والتحليل ۰ ويجب علينا ألا نتجاهل هذه الطاقة التلقـــائية والشحنة العاطفية بدعوى أن الفكر العلمى الموضوعى يعتمد أساسا على الحسابات العقلية الدقيقة والباردة ، ذلك أنه من مهمة الفكر تنظيم هذه الطاقات والشحنات الانفعالية وتحويلها الى محرك متجدد للأحداث ۰ واذا كان ابراهيم جمعة قد درس بذور الاتجاه الاقليمى الدينى فى كتابه « القومية المصرية الاسلامية ــ مرحلة التكوين » ١٩٤٥ ، فانـــه أثبت فى كتابه « أيديولوجية القومية العربية » ١٩٦٠ أن الاتجاه القومى العربى فى مصر اتجاه أصيل نابع من وجدان الجماهير العريضة وراسخ فى قلوبها بصرف النظر عن تيارات السياسة المتعارضة ومراحلهـــا المؤقتة ۰ لذلك يقول ابراهيم جمعة :

« كان ايمان العامة الذين أحسوا القومية العربية احساسا فطريا ، أبلغ من ايمان الخاصة رغم قلة دراية هؤلاء بالأصول والجذور ، وبعـد ما بينهم وبين الوقوف على العناصر والمقومات والمفاهيم والمحتويات ۰۰ أدرك العامة ما أدركته الخاصة بعد لأى وجهد ۰۰ أدركوه من ومضـات نورانية هى اشراقات النفس العربية والهامات روحها » ۰

وقد يبدو هذا الكلام لأول وهلة نوعا من البلاغة الانشـــائية أو الفصاحة الخطابية أو الصورة الشعرية ، لكننا اذا تعمقناه وجدنا أنـه ينهض على استيعاب علمى للوعى الغريزى والحس الفطرى اللذين تتمتع بهما الجماهير وتحافظ عليهما عبر الأجيال المتتابعة ، لأنهما تشـــكلان البوصلة التى تحدد الاتجاه الصحيح للأمة ۰ قد يعجز الانسان العادى عن

تحليل الأسباب الموضوعية الكامنة وراء تأييده لاتجاه معين ، لكنه يدرك بغريزته وحسه ان هذا هو الاتجاه الصحيح • وكانت أحداث التاريخ خير مؤكد لصدق هذه الغريزة الجماعية وصدق هذا الحس القومى • ولا يجد ابراهيم جمعة قومية أخرى ـ معاصرة أو غير معاصرة ـ تحمل فى داخلها هذه الشحنات الانفعالية مثل القومية العربية • يقول :

« ومن ثم كانت القومية العربية رسالة ومنهاجا وخطة ، وكانت بالنسبة للمذاهب الفكرية التى سادت وما تزال تسود العالم نموذجا فريدا فى السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والأخلاق ، والمثل ، والسلوك الفردى ، والتصرف الانسانى •• ملأت مبادئها فجاج النفس العربية منذ الأزل وشغلت مثلها فراغ الروح العربية منذ القدم » •

بهذا يريد ابراهيم جمعة أن يزيل كل الحساسيات التقليدية المرتبطة بكل ما هو عاطفى وانفعالى ووجدانى ، فليس العيب فى وجود هذه العناصر وانما العيب فى اهمالها أو تجاهلها أو الفشل فى استغلالها وتوجيهها الوجهة الصحيحة • فوجود العنصر الوجدانى فى القومية العربية لا يتنافى مع امتلاكها لأيديولوجيتها الفكرية الخاصة بها والنابعة منها • يقول ابراهيم جمعة :

« ان واقع الحال أن أيديولوجية القومية هى دستورها المرن ••• الذى يرسم منذ البداية مستوحيا حاجة القومية الى أهداف تحققها وطرق تسلكها لتحقيق تلك الأهداف ، حتى تصل الى الصورة الواقعية التى رسمها الوجدان القومى » •

أى أن الوجدان القومى قادر على رسم أبعاد الصورة الواقعية بعيدا عن شطحات العاطفة الهوجاء • وما دام الوجدان ينبع من الواقع ومتغيراته فهو قادر على منح أيديولوجية القومية العربية المرونة الكافية لكى تلبى حاجات الجماهير • وهى المرونة التى تعتمد على الخصائص الثلاث التى تتصف بها القومية العربية :

« كل حركة قومية مؤمنة مستهدفة مترسمة ••• الأولى : كونها عقيدة مستقرة فى الوجدان ، منبثقة من أعماق الضمير القومى ، فهى والحال كذلك « عقيدة قلبية » قبل أن تكون حقيقة فكرية » •

ولا شك أن ابراهيم جمعة يقصد بالعقيدة المستقرة فى الوجدان ، العقيدة التى تناقلتها الأجيال ـ سواء على مستوى الوعى أم اللا وعى ـ ثم ترسخت وأصبحت جزءا عضويا من الفكر المنهجى والسلوك التلقائى على حد سواء • لذلك فان العقيدة القلبية تأتى أولا ، وبعد ذلك يأتى دور الحقيقة الفكرية لتحليلها وتأكيدها أو حتى اعادة صياغتها من أجل

انطلاقة جديدة تواكب روح العصر ٠ لكن هناك خصائص ثابتة ومطلقة فى نظر ابراهيم جمعة ترتبط بمفهومه الخاص لمقومات القومية العربية ٠ يقول :

« تستمد القومية العربية وجودها من أعماق النفس العربية وطبيعة الوجود العربى ، ومن ثم فهى مجموعة من الحقائق التى تسمو عن الجدل والنقاش ، ليست بضاعة مشتراة ، وليست استعـارة أو اقتباســا من فلسفات آلية مصنوعة ، وليست مذهبا « دياليكتيكيا » جدليا كتلك المذاهب التى تعتمد فى قيامها وانتشارها على الجدل والمحاجة والمقدرة أو العجز فى مجال الاقناع ٠

هى عقيدة العرب الكلية الراسخة ووجودهم العربى الكامل مترجما فى واقع عاشوه طويلا فيما مضى وأرادوا أن يعيشوه مرة أخرى ، عودا الى ماض وارتدادا الى أصالة ٠ وعود القومية العربية الى استلهام ماضيها وارتدادها الى أصالتها يؤكد أن هذه القومية وجود تاريخى خـالد لا يحتاج معه العرب الى تنهيج أو ترسيم لأن مبادىء القومية العربية منهجة مرسومة منذ أن أودع الله فى العرب مجموعة صفاتهم ، ووسمهم بسماتهم وحباهم بكثير من جلائل الصفات والسمات » ٠

هذا الكـلام يحتاج الى وقفة ٠ ذلـك أنه يبدو أن حماس ابراهيم جمعة للجانب الوجدانى والمثالى فى القومية العربية جعله يتطرف فى تأكيد هذا الجانب بصرف النظر عن المعالجة المنهجية والدراسة العلمية الموضوعية٠ فهو يريد أن يعطل العقل العربى بأخذه القومية العربية على علاتها من غير تحليل أو تمحيص أو استيعاب ، وكأنه يخاف عليها من الدراســة والتحليل ٠ وبدون أن يدرى فانه قد شوه صورة القومية العربية بوضعها فى اطار هش قابل للكسر عند أول محاولة لدراستها وتعريضها للضوء والهواء ٠ فى حين أن تاريخ القوميات ــ ومنها القومية العربية ــ يوضح لنا أن الدراسات الموضوعية التحليلية زادتها مناعة وقوة ، لأنها أقامتها على أسس فكرية واضحة ودعائم علمية متبلورة ٠

أما أن العرب يسعون الى أن يعيشوا الماضى مرة أخرى ، فهذا يتنافى تماما مع المنهج العلمى للتاريخ ، فالتاريخ لا يمكن أن يكرر نفسه ، وعجلة الزمن لا يمكن أن تعود الى الوراء ولو لمدة لحظة واحدة ٠ اللهم اذا كان ابراهيم جمعة يقصد بكلامه هذا استعادة العرب لأمجـــادهم الحضـــارية القديمة ٠ ومع ذلك فانه من الواضح أن التعبير خانه اذا كان يقصد هذا المعنى ٠ فالأجدر بالعرب أن يعيشوا المستقبل ، فالماضى لا يشـــكل أية قضية بالنسبة لأية قومية ناهضة لأن مسئوليات المستقبل تملأ أى فراغ

فكرى أو عملى . وفى الواقع فليس هناك ما يسمى بالماضى والحاضر والمستقبل ، وانما هناك امتداد زمنى يواكب حياة الأمة . أما تقسيم الزمن الى ماض وحاضر ومستقبل فمن قبيل تبسيط الأمور لأن المستقبل هو المحصلة النهائية لتفاعلات الحاضر وملابسات الماضى .

ومع غياب المنهج العلمى للتاريخ لا بد أن تتوغل الاتجاهات الغيبية فى تفسير مقومات القومية ، وأن تعلو نبرة التغنى بالماضى وتمجيد الذات القومية . لكن مهما علت النبرة وتأكدت فانها لن تضيف شيئا جديدا الى الفكر القومى العربى العلمى الذى يمكن أن يصمد لاختبارات الزمن وللتحديات الخارجية . يتضح هذا فى استهلال ابراهيم جمعة لكتابه عندما يقول :

« لم خص الله هذه المنطقة دون غيرها من مناطق العالم بهذا الفيض النوارنى ؟ ولم اختص من بين عباده سكانها ليكونوا هداة وقادة ؟ .. لا يكاد يدرى متفقه التاريخ سر تلك القوة الغيبية التى أضفت على هذه الرقعة من الأرض كل هذا الجلال » .

ان هذه البلاغة الأدبية لا يمكن أن تنضوى تحت لواء الفكر القومى العربى ، بل يمكن أن تنضم الى القصائد وكل الكتابات الأدبية التى تغنت بأمجاد الأمة العربية وأفضالها على الحضارة الانسانية . لكنها لا تنتمى الى روح الايديولوجية العقائدية الفكرية بصلة ، نقول هذا لأن ابراهيم جمعة أطلق على كتابه عنوان « ايديولوجية القومية العربية » فليست هناك أيديولوجية نورانية غيبية على أرضنا هذه الزاخرة بالصراعات والأطماع التوسعية والحسابات الدقيقة والتربص بالآخرين .

لكن هذا لا يعنى أن المنهج العلمى للتاريخ قد غاب تماما عن كتاب « أيديولوجية القومية العربية » ، ذلك أن ابراهيم جمعة ينفتح على الفكر العالمى الذى عالج قضايا القومية العربية مثل كتاب لوبون « المدنيات الأولى » الذى حلل فيه بموضوعية علمية أسباب المقاومة التى واجهتها القومية العربية فى مصر وخاصة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل الحالى فقد كان للاستعمار دخل كبير فى تأكيد النزعة الفرعونية والاتجاه الشعوبى بهدف عزل مصر عن تيار القومية العربية الذى بدأ فى الشام فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومهد لهذه الفكرة علماء الغرب باهتمامهم بالكشوف الجغرافية ، وتاليف الكتب ، وكتابة المقالات ، التى توضح آثار الفراعنة العظام ، وحضارتهم الراقية التى سبقت كل حضارات العالم وأنارت الطريق لكل شعوب الأرض ، وقد أثر هذا على المصريين وبخاصة الشباب ، وبدأ كل منهم يزهو بفرعونيته ولا سيما أنه كان

محتلا ، يريد أن يقنع المستعمر ، أنهم أصحاب حضارة عريقـــة ، وكتب بعضهم يثبت أن المصريين فراعنة وانهم تمكنوا من هضم الفاتحين جميعا ٠ ولم يتح لأولئك الفاتحين أن يؤثروا فيها اللهم الا العرب الذين فرضوا عليها دينهم ولغتهم ومع ذلك ظلت مصر رغم هذا الاخضاع فرعونية الدم ٠

ومع ذلك فان القومية العربية كمفهوم حضارى ثقافى فكرى لا تهتم أساسا بالدم أو العرق ، فهذه كلها أبعاد رفضتها القوميات المعاصرة التى ترى قيمة الانسان فى قدرته على البناء والعطاء من أجل قومه ، وليست فى عرقه أو أصله أو دمه ٠ فهذه كلها أمور لا فضل له فيها ، ولا ارادة له فيها ٠ أما القومية العربية فتنهض أساسا على ارادة الانســـان العربى واصراره على العطاء والبناء الحضارى ٠

١٥ ــ أنور الجندى « مصر »

أنور الجندى من الكتاب الذين اهتموا بالجانب الثقافى والفـكرى للقومية العربية بحيث دارت كل كتبه حول هذه القضية . يتضح هذا الاتجاه فى كتاب « اللغة العربية بين حماتها وخصومها » ١٩٥٨ ، و «الأدب العربى الحديث فى معركة المقاومة والتجمع والحرية » ١٩٥٩ ، و « الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية » ١٩٦١ ، و « المعارك الأدبية » ١٩٦١ ، و « الصحافة السياسية فى مصر منذ نشأتها الى الحرب العالمية الثانية » ١٩٦٢ ، و « معالم الفكر العربى المعـاصر » ١٩٦٦ ، و « يقظة الفكر العربى المعاصر » ١٩٧٢ وينقسم الى ثلاثة أجزاء : الأول يتناول حركة اليقظة منذ ظهورها الى أوائل الحرب العالمية الثانية ، والثانى يعالج حركة اليقظة فى مرحلة ما بين الحربين ١٩٢٠ ــ ١٩٤٠ ، والثالث يركز على حركة اليقظة منذ الحرب العالمية الثانية . والأجزاء الثلاثة تعالج بالترتيب حركة الفكر القومى العربى فى مواجهــة الاستعمار ، ثم التغريب ، ثم الشعوبية .

ويوضح أنور الجندى أن ظهور القومية العربية بمفهومها الحديث فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وخاصة بقيام ثورة يوليــو ١٩٥٢ ، قد كان بمثابة مرحلة جديدة فى تطور الشخصية العربية وبلورة ملامحها . ويقسم الجندى العصر الأخير الذى مر به الفكر العربى الى ثلاث مراحل : الأولى من ١٥١٧ الى حوالى ١٨٣٠ ، والثانية من ١٨٣٠ الى ١٩٥٢ ، والثالثة من ١٩٥٢ الى الآن .

وكانت المرحلة الأولى (١٥١٧ ــ ١٨٣٠) وهى ثلاثة قرون تقريبا وقع فيها الوطن العربى تحت حكم السلطة العثمانية . وكانت مرحلــة ضعف عام للفكر العربى الاسلامى ، بحيث أصبحت الأمة العربية مجرد جزء من الدولة العثمانية برغم الشوط الطويل الذى قطعته الحضارة العربية

على مدى ألف عام تقريبا ، والذى شاركت به فى بناء الفكر الانسانى والحضارة البشرية ، وعملت على انماء الجذور التى قامت عليها الحضارة الحديثة المسماة بالحضارة الغربية نسبة الى مكان نموها وتوسعها أساسا · فقد كانت الحضارة العربية دورة مستأنفة للتاريخ بعد سقوط الحضارة الاغريقية ، وكذلك كانت الحضارة الغربية دورة مستأنفة بعد ضعف الحضارة العربية · غير أن الفكر العربى القومى لم يندثر يوم تلاشت الحضارة العربية وعندما انطوت الامبراطورية العثمانية ، بل ظل موجودا وان خبا ضوءه وعلاه الصدأ ولم يعد يتفاعل مع الحياة · لكن الدعوة الحديثة لليقظة العربية كانت أكبر دليل على استمراره الفعلى فى الحياة ، وذلك قبل قدوم الحملة الفرنسية بقرن من الزمان ·

ثم كانت المرحلة الثانية التى يسميها الجندى مرحلة الاحتلال العسكرى والسياسى للعالم العربى (١٨٣٠ – ١٩٥٢) وهى فى نظره مرحلة فجر اليقظة التى تمثلت فى دعاة الاصلاح والتجديد فى مجال اللغة والأدب والدين والاجتماع والتاريخ ، وهم المصلحون الذين قاوموا قوى ضخمة من النفوذ الأجنبى والتبشير والتغريب والغزو السياسى والاجتماعى والفكرى ، وفى الوقت نفسه قاموا بتصحيح مفاهيم الفكر العربى ليستعيد مكانته وينفض عن نفسه غبار القرون التى جمدته وأصابته بالضعف · من هنا فتحت أبواب التجديد والاجتهاد بحيث ظهر جوهر الفكر العربى على حقيقته ليؤكد حياته وقدرته على الاستمرار والتفاعل مع الحضارة المعاصرة ، وعلى حمل لواء التقدمية والعصرية ·

وكان من الطبيعى أن يقف الاستعمار بالمرصاد لهذه اليقظة القومية التى تعمل أساسا على شجب نفوذه · ومن هنا وجدت من النفوذ الأجنبى تحديا ضخما لامتلاكه مختلف عناصر القدرة السياسية والعسكرية ووسائل الثقافة من صحافة ومدرسة وجامعة · ولهذا كانت مواجهة التحدى بنفس الروح التى عرفت بها هذه الأمة حين تمر بها الأحداث الكبرى والأزمات العاصفة · ويعتقد أنور الجندى أن فترة الاحتلال وسيطرة النفوذ الأجنبى التى بدأت قبل منتصف القرن الماضى كان لها أثرها البعيد فى التكوين العقلى والروحى للأمة العربية والعالم الاسلامى عن طريق نفوذها فى المدرسة والصحافة ، وبث الفلسفات المادية ، واتخاذ المفاهيم الغربية أساسا لفهم القيم الانسانية ، والاعتماد على مصادر الغرب فى فهم أنفسنا من خلال اعتناق نظرياته فى التربية والاجتماع والنفس والأدب والفلسفة · ولذلك كانت التبعية تغلب الوطنية ، وكانت الوطنية ضيقة اقليمية · وكانت الحركات الأربع الغربية والاسلامية والشرقية والاقليمية تتصارع بتوجيه النفوذ الأجنبى ·

وكانت المرحلة الثالثة الحالية والتى بدأت فى عـــام ١٩٥٢ بمثابة التحدى الأكبر الذى يسعى الى التخلص من كل هذه السلبيات العديدة والتراكمات العميقة والعقبات الراسخة والتناقضات الصارخة ٠ فقد قامت مدرسة التغريب ودعوته ، وبرزت دعوة الشعوبية ونمت ، وتعمقت الهوة التى تفصل بين الأمة العربية ومفاهيمها ، واضطرب الخط الفكرى المتسق المتصل ، وبذلك انحرفت الشخصية العربية عن مقوماتها ومفاهيمها ٠ فقد وقع العرب فى محاذير خطيرة منها فرضـــية قبول الثقافة والحضـــارة الغربيتين معا ، خيرها وشرها ، ما يحمد منها وما يعاب ٠ وهنا يبدو الخلط بين الثقافة والحضارة ، فالثقافة فكر والحضارة مادة ٠ والحضارة ملك للانسانية ولكن الثقافة تستمد جذورها من وجدان الأمة وضميرها وروحها ٠ والمعرفة غير الثقافة ، فالمعرفة كالحضارة لا يشترط أن تكون ثقافة ، لكنها ملك انسانى عام تأخذ الثقافات منها وتدع ٠

كذلك وقع بعض العرب فى محظور الانفصال عن الماضى كلية باعتباره مصدر التخلف ، وهذا القول خطأ على اطلاقه ، ذلك أن الغرب نفسه لم ينفصل فى حضارته وثقافته القائمة على مصـــادر التـــراث الاغـريقى والرومانى ، برغم انفصاله عن هـــذا التراث ألفى عـــام وضياع اللغة اللاتينية ٠ فى حين استمرت اللغة العربية وبقى الفكر العربى متصـــلا بجذوره ومستمرا فى التأثير والفاعلية ٠ أما الاشارة دائمـــا الى مرحلة ضعف الحضارة العربية وجمودها ، فلا تمت الى التفكير الموضوعى بصلة ، ذلك أن انتهاء دورة من دورات الحضارة وبداية دورة جديدة لا يمكن أن تمثل حقيقة القيم والمفاهيم الأساسية للفكر العربى الاسلامى ، بعد أن غلبت نزعات الجمود والتقليد ٠

أما دعـوات الفرعونية والأشورية والبابليـــة والفينيقية والبربريـــة وغيرها ، فكان الهدف منها التفرقة بين أجزاء الوطن الواحد ، واتخاذها وسيلة لاحياء خلافات مذهبية وعنصرية قديمة ، ومحاولة خلق قوميات ضيقة ودعوات اقليمية مسرفة فى التخلص من روح الفكر القومى العربى ٠ وقد أثبت بعض الباحثين بدلائل قوية أن الفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ما هى الا موجات عربية متتالية تدفقت من قلب الجزيرة العربية وانساحت فى المنطقة كلها ،حيث لم يكن من الممكن أن تبنى حضارة شامخة فى جو حار وعلى رمال ساخنة ، الى أطراف الجزيرة ووديان العراق وسهول مصر والشام الخصبة والى سواحل البحار والأنهار ٠

وينعى الجندى على بعض العرب تجاهلهم لدور الحضارة العربية فى الحضارة الانسانية ، بعد أن اعترف العالم الخارجى كله بانجازات العرب فى مختلف العلوم والفنون ، كالفلك والجبر والهندسة وارتياد البحـــار

ونظريات الطب والضوء والكيمياء وغيرها • كذلك فان يقظـــة العــرب الحديثة لم تكن نتيجة الاتصال المباشر بأوروبا ، ذلك أن العالم العربى استيقظ قبل الارساليات وقبل الحملة الفرنسية بأمد طويل • ويمــكن القول بأن الحركة الوهابية (١٧٤٠ تقريبا) تعـــد أولى علامات اليقظة وتسبق نابليون بنصف قرن • ونحن لا ننسى الوثيقة التى حصل عليها العلماء من الحكام المماليك قبل الحملة الفرنسية والتى يمكن أن تعد بحق الوثيقة العربية لحقوق الانسان •

ولا يعنى الجندى بهذا أننا خصوم للحضارة الغربية ، فالحضارة الغربية مدنية انسانية عالمية شاركنا فى بنائها ، وهى حق مشاع لكل الأمم والشعوب ، ونحن الآن نأخذ منهــــا أرقى ما وصلت اليه ويتحتم علينا استيعابه تماما • ولا شك أننا استطعنا فى ظل اليقظة التى عرفها العالم العربى كله منذ عام ١٩٥٢ أن نحقق انجازات لا يمكن انكارها فى مجال الصناعة والعلوم الحديثة • ونحن لسنا خصوما للفكر الغربى أصلا الا حين يحاول هذا الفكر أن يسيطر علينا داخل دائرته • أما فيما عدا ذلك فالفكر الغربى يحمل عصارات من الابداع والعبقرية فى مجالات الفلسفة والفن والأدب والتاريخ تتجه نحو رقى الانسانية •

ولعل أبرز ما أعطتنا يقظتنا العربية هى هذه القدرة على مواجهــة الفكر الغربى دون استسلام له ، لقد أعطتنا القدرة على اسقاط « عقدة الأجنبى » وذلك بمحاولتنا مواكبة حضارته ولكن على أسس قومية • ومن هنا أصبح فى مقدورنا ألا ننظر اليه نظرة المغلوب الى الغالب ، لقد توارت هذه النظرة ونشأ فى عالمنا العربى اليوم تيار ضخم قوى : أننا أمة لها مقوماتها وفكرها وقيمها أساسا ، وأن هذه المقومات قادرة على أن تنهض وتحيا ، وهذا هو جوهر القومية العربية ومعناها الكامن فى التحرر الفكرى من كل سيطرة أجنبية أو توجيه أجنبى ، وفى الوقت نفسه نعيش بفكر مفتوح لكل التجارب الانسانية ، فلا نخشى أن نواجه كل أفكـــار الأمم وثقافاتها ، بل ندرسها وننتفع بكل الخبرات والتجارب العالمية والبشرية والانسانية فى كل المجالات ، ما دمنا ثابتين على قاعدتنا •

وفكرنا العربى القومى ليس فى حقيقته فكرا جامدا أو متخلفا ، ولم يتوقف عند الماضى ، ولم يجبرنا على الارتداد أو الرفض لمنطق الحياة والتطور ، بل هو متبلور حى قادر على الحركة ، مستوعب للحضارات والثقافات ، قادر على الانتفاع بكل جديد ، يأخذ منه ويعطيه ، لا يبعد عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنه بالعقد • وفوق ذلك فهو مؤمن بأنه فكر تمتزج فيه الروحية والمادية ، العقل والقلب ، الحياة والآخرة • انه يجمع بين الأصالة والمعاصرة ، بين الاتساق والمرونة فى وحدة متناغمة

تعد مصدر الوحدة العربية أساسا • ولذلك فهو قادر على مواجهة حملات التغريب والشعوبية التى يقودها النفوذ الامبريالى أساســا عن طريــق الضغوط الاقتصادية والمنظمات والصحف المشبوهة التى تصدر فى بعض أنحاء العالم العربى ، وتهدف أساسا الى مقاومة الوحدة العربية ، واليقظة القومية ، والنمو والبناء الذى تقوم به بلادنا من أجل الانسان العربى فى مجال الحضارة والعلم والقوة والصناعة والاقتصاد •

واذا كانت القومية العربية ترتبط بالديمقراطية والاشتراكيــة فى نظر معظم المفكرين العرب فذلك لأنها كلها عناصر وخصائص منبثقة أساسا من فكرنا العربى ، وان كنا اليوم نتعامل معها باعتبارها قيما انسانيــة أساسية للفكر العالمى كله • ومن هنا فنحن لا نسير فى ركاب الحضارة الغربية دون بوصلة خاصة بنا ، وانما نتحرك على هدى مقوماتنا وفكرنا وتراثنا • وليس لنا أن نشجب مبادىء الديمقراطية والاشتراكية والا كنا متخلفين عن تطور فكرنا أصلا قبل تطور الفكر الانسانى • فاذا أردنا أن نقيم قوميتنا المعاصرة على أسس راسخة أصــيلة فلا بد أن تنهض على الديمقراطية والاشتراكية من أجل بناء الانسان العربى الجديد •

١٦ ـ نور الدين حاطوم « سوريا »

تمثلت انجازات نور الدين حاطوم فى مجال الفكر القومى العربى ، فى كتبه ومحاضراته ودراساته التى تركزت فى عقد الستينيات بصفـة خاصة ، منها على سبيل المثال « محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية » ١٩٦٣ ، و « دراسات مقارنة فى القوميات الألمانية والايطاليـة والأمريكية والهندية » ١٩٦٦ ، و « يقظة القـومية العربية » ١٩٦٨ ، و « نحو الوحدة العربية » ١٩٦٩ ٠

ويسعى حاطوم فى كتاباته الى تمهيد الفكر العربى المعاصر لاقامة كيان عربى متميز قوى آخذ بأسباب القوة والمنعة ، ومتكيف مع شروط الحضارة الحديثة ٠ ومفهوم القومية العربية عنده يتمثل فى ارادة فاعلة مشتركة بين العرب ، وليدة عواطف وأفكار تخمرت مع الزمن الى أن وصلت الى ما وصلت اليه من نمو الوعى القومى والنضج الفكرى والارادة الفاعلة ٠

ويرى حاطوم أن كثيرا من الكتاب يخلطون بين التاريخ العربى ومفهوم القومية العربية الحديث ، وان كانت الصلة بين الاثنين وثيقة ، ولكن لكل منهما ظروفه الخاصة المميزة ٠ فالتاريخ العربى شىء والقومية العربيـة شىء آخر ٠ كذلك تحاول بعض المؤلفات التى تناولت هذا الموضوع أن تثبت أن القومية العربية عريقة وقديمة فى حياة العرب وتاريخهم ، وكأن أحداثا لم تحدث بين غابر العرب وحاضرهم ، أو بتعبير آخـر ، وكأن العرب لم يتطوروا خلال تاريخهم ، وكأن القـومية العربية ولدت معهم بالفطرة ونشأوا معها وما زالت هذه حالهم ، وأذن فلا شىء جـديد فى حياة العرب ٠ ذلك أن هذه المؤلفات توضح بحماس غير ناضج أن الوحدة العربية قديمة قدم التاريخ العربى ذاته ، متناسية عهود الظلام التى فرقت شمل العرب وبعثرت جهودهم ٠

وتتبدى موضوعية حاطوم عندما يؤكد أن العرب قوم كسائر الأقوام مروا بظروف تاريخية مختلفة جمعت قواهم وألفت بين قلوبهم ، كما مروا بظروف طاغية بددت هذه القوى وأخرت تقدمهم ، وهذه حال الشعوب تمر بفترات نشاط وفاعلية ، كما تمر بفترات خمـــود وضعف • وليس التاريخ العربي الا هذا التسلسل في الأحداث التي مر بهـــا العرب أو خضعوا لها ، أو أوجدوها ، أو كانوا ثائرين عليها ، متطلعين الى الحياة الأفضل ، الى أن انتهى بهم المطاف الى مرحلتنا الحاضرة • ان التاريخ العربي في الماضي حدث تلقائيا وبشكل غير واع على الأغـلب ، أى أن الأحداث كانت تسير الجماعة العربية بشكل عادي يختلف عن حياتها في العصر الحاضر وظروفه •

أما في أيامنا هذه فان البشرية العربية انتقلت من مرحلة اللاوعي الى مرحلة الوعي ، لكنها لم تصل بعد الى مرحلة النضج الكامل ، وعليها أن نقطع مراحل أخرى ينضج فيها الوعي حتى يغلب على الجماهير والسواد الأعظم من الناس • وذلك لأن الشعب العربي ، في أيامنا هذه ، بالرغم من التقدم الثقافي الذي حققه ، لا يزال يشكو التخلف • وهـذا الاحساس بالتخلف ثمرة من ثمرات الوعي الفكري الذي بلغه بعد طول جهد • ولكن الشعب العربي ، برغم كل العقبات ومظاهر الاحباط ، صحا من رقاده ، وأخذ يبحث عن ذاته برغم صعوبة المحاولة ، ذلك أنه أدرك الروابط التي تربط أفراده ببعضهم وشعر بروح التضامن العربي الذي يدفعه الى التحرر من القيود التي كبلته بها ظروفه التاريخية •

وهذا ما لم يشعر به في السابق ، أي أن شخصه وتفكيره ووعيه شارك في صنع تاريخه الحديث • واذا كان تاريخ العرب الماضي قد صاغته الظروف التقليدية والتلقائية فان التاريخ العربي المعاصر يصنع بقوى فكرية واعية نمت أفقيا وامتدت عمقا ، وخامرت الجماهير العربية بعد أن كانت مقتصرة على بعض العقول النيرة • ويرى حاطوم أن هذه المرحلة الجديدة في تاريخ العرب الحديث هي مرحلة القومية العربيـــة المبنية على الوعي السياسي الذي يربط الوعي بالارادة ، والفكر بالعاطفة •

ومن خلال هذا التطور التاريخي العربي المديد تكونت عند العرب عناصر وحدوية مشتركة ، تعد من المقومات الأساسية للقومية العربية • فالأرض العربية التي تمتد من الخليج العربي الى المحيط الأطلسي لا تعاني من أي حاجز طبيعي أو بشري • واذا وجد هذا الحاجز نتيجة للاستعمار الأجنبي والعدوان الصهيوني فذلك حدث طارىء في دنيا العرب • لكن اذا تسلح العرب بالوعي الفكري والقوة المادية والوحدة الفعالـة ، فانهم قادرون على تصحيح هذا الخطأ التاريخي الذي ارتكبته قوى العدوان على

حق العرب في أرضهم · وهذا التصحيح لا يتأتى من خلال المقولة الساذجة التى تنادى بالقاء اسرائيل في البحر ، ولكنه يتمثل فى الصراع الحضارى الذى لا بد أن تخوضه الأمة العربية وتنتصر فيه · فالمعركة حضارية طويلة الأمد ومتعددة المراحل ، قبل أن تكون معركة عسكرية ، أيامها محدودة ونتائجها غير مؤكدة ·

أما الشعب العربى فيعتقد حاطوم أننا اذا رجعنا الى أصوله ، فاننا لن نجده عربيا صرفا · بل انه تكون مع الزمن حتى صار عربيا كما يسمى اليوم ، وظهرت شخصيته على المسرح الاجتماعي والسياسى والدولى ، وأصبح يعرف نفسه بأنه عربى ، ويعرفه بنو البشر عربيا · انه مزيج عروق وأجناس بشرية عربية وغير عربية ذابت فى بوتقة التربة العربية ، وخرج من هذا المزيج الذائب كتلة عربية متجانسة موحدة · وهذا هو شأن كل الشعوب المستقرة على أرضها ، وشأن الشعب العربى الحالى مهما كان أصله ، انه عربى ، هذه حقيقة تاريخية ، وواقع تاريخى على الأرض العربية ·

وقد نشأ عن حقيقة هذا الوجود العربى على الأرض العربية واقع راسخ عميق يصعب تغييره بل ويستحيل تحويله · وبرغم كل مظاهر التمزق والتفتت والصراع ، فان النواة العربية لا تزال سليمة قوية ، وعلينا أن نحافظ عليها ونزيد من قوتها حتى تكشف الأيام عن حقيقتها الجوهرية أمام العالم أجمع · عندئذ يتخلص العرب من الغمة التى تخيم على حياتهم وتمنعهم من ممارسة دورهم فى عالمنا المعاصر ·

ومن هذا التلاحم بين الأرض العربية والشعب العربى يقوى التضامن بين المواطنين العرب ، ويحدث قوى جماعية يصعب غلابها ، وكلها تكتل الرأى وتستقطب الامكانات العتيدة لخلق الشعب العربى من جديد ، الواعى بمقدراته ، وتذيب الكيانات المفتعلة كما ذابت القبائل فى وسط الدول · واذا كان الوعى القومى العربى الذى بزغ فى أواخر القرن الماضى قد وحد بين قلوب مواطنى القطر العربى الواحد وأذاب فروقهم فى وحدة النضال فى سبيل الاستقلال ، وانتفعت بهذا الاستقلال فئات وأفراد وأسر وحكام وأحزاب لازالت قائمة ، فان هذا الوعى القومى نفسه سيتكامل بقوة الدفع الداخلى والخارجى ، وضغط الظروف الزمانية والمكانية ، ويذيب الكيانات المفتعلة ، ويخلق ارادة الوحدة كما خلق ارادة الاستقلال ، وتبقى القومية العربية وحدها حقيقة للقوة العربية الواحدة ورمزا لها ·

وطالما أننا نملك قوة الدفع هذه ونحافظ عليها ، فانه من القصور أن نندب حظنا ونكيل التهم لغيرنا وننسب تخلفنا وتجزئتنا وفرقتنا

وتشتت أفكارنا الى الاستعمار الأجنبي والعدوان الصهيوني لنفر من واقعنا أو لنجد المبررات لهذا الواقع الأليم . ان مصلحة الأجنبي الدخيل تفرض عليه اتخاذ الاساليب التي تحقق أطماعه ومنافعه في بلادنا ، ولكن هل يجب دوما أن نجعل التدخل الأجنبي مسئولا عن كل بلاتنا . لا شك أنه مسئول، ولا يمكنه أن يفعل غير الذي فعل ، لأنه جاء له ، ولكن ألسنا مسئولين قبله عن نكبتنا وسوء مصيرنا ؟! ولذلك لا بد أن نتحمل ظروفنا التاريخية التي أحاطت بتطورنا وأفسدت علينا حياتنا وأوصلتنا الى ما نحن عليه ، وأن نزيل هذا الظلم التاريخي الجاثم فوق صدورنا لنصل الى أهدافنا القومية ونحقق سيادتنا ونقرر مصيرنا بأيدينا ، وأمامنا عمل دائم دائب ، وان تقاعسنا عن واجبنا نحو أنفسنا ونحو وطننا يهددنا بسوء العاقبة وبالفناء بعد أن هاجمتنا قوى العدوان من كل نوع لتخرجنا من أرضنا وتستحل حمانا .

ان ادراكنا لهذه الحقيقة المرة يخفف عنا وزر ما حملتنا الأيام ، ويجعلنا أكثر تفاؤلا بالمستقبل . ويدفعنا الى رسم خطة المستقبل على علم ودراية . وهذه الخطة تتطلب منا وضع الأسس النظرية والطرق العملية التي تجعل من القومية العربية واقعا معاشا وممارسة حياتية ، بدلا من كونها مجرد حلم جميل وأمل عذب يراود العرب من الخليج الى المحيط .

واذا نظرنا الى وضع العرب الحالي وجدنا أن لديهم جميع المقومات الضرورية للوحدة القومية ، واذا كان العرب في الوقت الحاضر مشتتين سياسيا ، فالوحدة الفكرية الثقافية تجمعهم وتقرب بينهم ، وذلك لأن عناصر هذه الثقافة التي توحدهم موفورة في أكثر أقطارهم ، وحيثما أجلنا الطرف في البلاد العربية وجدنا الصفات المشتركة والعناصر القومية ظاهرة وواضحة . لكن التمزق السياسي هو مأساة العرب كلهم . انهم متفرقون وموزعون سياسيا بين عدة ولاءات مختلفة متباينة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا . وهذا التباين يتحول الى مأساة حقيقية عندما لا يفرق العرب سياسيا بينه وبين الصراع .

فاذا قلنا بوجود وحدة ثقافية تجمع بين العرب فهذا لا يمنع وجود الاختلافات العقائدية والدينية والمحلية والاجتهادات السياسية على اختلاف أنواعها . وليس طبيعيا أن تكون الأمم والشعوب والأفراد على نمط واحد وبشكل واحد ، لأن اختلاف الآراء والاجتهاد يعني السعي وراء التكامل والبحث عن الأفضل ، كما أن فيه سباقا نحو الكمال وتوخيا لبلوغ الهدف ضمن التنافس الشريف . وليس ضروريا أن يصب الشعب العربي في قالب واحد ، أو يفرض عليه نظام واحد ، لأن الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان ، وليست الاجتهادات السياسية والاقتصادية المسيرة للمجتمع

مطلقة وصائبة لا تخطىء ، ولكنها وسائل لبلوغ الأمثل ، وأشياء من خلق البشر ، وما هو صالح لزمان ومكان معينين لا يصلح لزمان ومكان آخرين · كما أن الاجتهادات ليست حقائق ثابتة لا تتحول ولا تتغير ، وان من خطل الرأى أن نعتقد بدوامها على الأيام ·

من هنا تظهر حقيقة خطيرة تتمثل فى ضرر التعصب لرأى وفرضه على المجتمع العربى بالاكراه والعنف ، لأن هذه المحاولة ضرب من العبث بحقوق الأفراد والمواطنين وبحقوق الشعب · واذا سادت القوة فى فترة من الزمن فليس فى ذلك ما يدل على أنها مخلدة أبد الدهر · ومن الخير أن يبقى باب الاجتهاد مفتوحا أمام الشعب العربى ليستطيع النمو وتأمين التحويل الاجتماعى والسياسى الذى يحقق كرامته ويصون حقه ويجعله عزيزا بين الشعوب ويسود فيه العدل والحرية والرخاء وليشعر أنه جزء لا يتجزأ من وحدته السياسية لأنها صنعت برغبته وارادته ، وأنه لبنة فى بنائها ·

ولا يدخل حاطوم فى الجدل العقائدى حول الاشتراكية وضرورتها أو عدم ضرورتها للمجتمع العربى المعاصر ، ذلك أنه لا توجد نظرية اشتراكية عربية بالمعنى الصحيح ، ولكن هذا لا يمنع من أن المجتمع العربى سائر فى الطريق الاشتراكى فى بلاد ، أو فى تحقيق العدالة الاجتماعية فى بلاد أخرى ، ويهمنا فى واقعنا العربى أن نستفيد بالتجارب التى تساعدنا على حل مشاكلنا الاجتماعية ، وليس ضروريا أن تكون الحلول كحلول غيرنا ، أو نكون مقلدين أو ناسخين سواء حاولنا الاتيان بنظرية عربية للاشتراكية، أم كنا أكثر تواضعا وأتينا بنظرية للاشتراكية العربية ·

ان منطلقنا يجب أن يكون فى عدم تجاهل واقعنا الذى نعيش فيه ونتأثر به ، ومع أن المضمون الاشتراكى يتعلق فى الغالب بالأمور المادية ، فان منطلقنا يجب ألا يتجاهل القوى الروحية المؤثرة فى سلوك الانسان ، لأن الانسان ليس آلة أو مادة بل هو جسد وروح ، وأن تأثير القوى الروحية فى تطور مجتمعنا العربى لا يقل أهمية وشأنا عن تأثير القوى المادية · والشرط الأول لتحقيق التطور المطلوب هو منع استغلال الانسان للانسان ، وخلق مجتمع تقوم فيه القيم على العمل ومبدأ تكافؤ الفرص ، وتتحدد فيه قيمة الانسان على أساس قدرته وكفاءته وابداعه وعمله · وبذا تطرح القيم القديمة القائمة على الوراثة والغنى والاحتكار ، وتقوم مقامها القيم القائمة على العمل عقليا كان أو عضليا ، لأن العمل بذاته شرف وأساس للقيمة الحقيقية للانسان ، ويجب ألا يحرم منه أى انسان ، لأنه السبيل لكل تقدم · واذا كان هنالك من تفاضل بين الأفراد فى المجتمع الجديد فذلك يكون على أساس العمل وعلى أساس ما يقدم من

انتاج وما يحسن من هذا الانتاج ، لا على أساس النظام والنسب والوراثة والثروة ٠

والديمقراطية – عند حاطوم – هى الوجه السياسى للاشتراكية والقومية ٠ فلا بد لكل مواطن عربى داخل قطره المستقل أن يملك حرية الكلام والاجتماع والتعبير عن الارادة مما ينتج عنه رأى أو آراء ؛ لأن التعبير عن الرأى يصل الى الحل الأصلح والأمثل ٠ والاستقلال وحده لا يكفى ، بل يجب أن يكون الحكم فى البلاد ديمقراطيا تلتقى فيه ارادة الشعب وارادة الحكام بما يتطلب التزام الطرق الديمقراطية فى الحكم ونزول الحكام عند رغبات المحكومين ٠ ولقد أثبتت التجربة أن الحكم الديمقراطى البرلمانى على ما فيه من عيوب أمثل حكم ، لأنه واضح ومكشوف ، ويمكن للمواطن من خلال اطلاعه على الأحداث أن يعرف ما يجرى ويبين رأيه فيه ، كما يمكنه أن يعرف رأى حكومته فيحكم لها ويؤيدها أو يحكم عليها ويسقطها دون قوة أو اقحام أو عنف ٠ كما أن قبول أية وحدة سياسية بين شعب وشعب يجب أن يكون مبنيا على رغبة الأغلبية الساحقة ٠

وللقومية العربية كيان مادى لا بد أن يتحقق من خلال جهود متضافرة تقوم بها الحكومات العربية ويؤيدها الرأى العام العربى ، ضمن اطار الحرية واستبعاد القوة كوسيلة لتحقيق الأهداف القومية ٠ فمن الممكن للحكومات الراغبة فى الوحدة أن تقوم بتقارب نظم التشريع ، وتخفيف القيود الجمركية ، وتقوية التعاون الاقتصادى ، وتنسيق سياسة البترول ، وتوحيد نظم التعليم ، وتوسيع شبكة المواصلات البرية والبحرية والجوية ، وتوحيد النقد أى العملة ، وانشاء السوق العربية المشتركة ، وما الى ذلك مما تقوم به الحكومات ٠

أما حركة الرأى فتكون بالدعوة الى التكاتف بين كتل الشعب العربى فى أقطاره المختلفة ، ودعوة المفكرين الى الوحدة ، وتبادل الزيارات وتسهيل هذه الزيارات ورفع القيود الشكلية ٠ والعمل واسع فى هذا الميدان اذا كانت شروط الحرية تسمح به وتساعد على تفتحه وامتداده ٠ وما على العرب حكومات وشعبا الا أن يعقدوا النية ويعملوا جاهدين ومخلصين لتحقيق هذه الأهداف القومية العليا ٠

١٧ ــ محمد على حافظ « مصر »

يعد محمد على حافظ من الرواد العرب فى مجال التربية القومية وبناء الانسان العربى · فمن بين الأبحاث والدراسات التى قام بها فى هذا المجال الحيوى ، نشر كتابين يعتبران من أهم المراجع بالنسبة لرجال التربية والتعليم فى العالم العربى : الأول كتاب « مستقبل الشباب العربى » عام ١٩٦٣ ، والثانى كتاب « تطوير السياسة التعليمية فى المجتمع العربى » عام ١٩٦٧ · فهو يؤمن بأن رعاية الشباب العربى ضرورة ملحة يحتمها بناء المجتمع العربى الجديد · فالشباب هو المستقبل والرجاء ، وهو أمل الأمة العربية وعماد قوتها · على أكتافه تلقى تبعات المستقبل ، وهو الثروة ورأس المال العربى الحقيقى اذا استثمر بحكمة ، ووجه التوجيه العلمى السليم لكى يفلح وينتج ، ويحقق الأمل المعقود عليه ·

وهذه ليست عبارات بلاغية أو انشائية ، بل حقائق علمية عملية تدعمها بالتحليل والشرح والتقويم مؤلفات محمد على حافظ · ففى كتابه « مستقبل الشباب العربى » يوضح أن النهضة العربية المرجوة لا يمكن أن يحقق أهدافها سوى شباب فتى طموح ، وأن لمجتمعنا العربى المتطور مسئوليات جسام لا يقوى عليها الا شباب سليم العقل والجسم يدرك فلسفة القومية العربية ومعنى الوحدة العربية ومستقبل الأمة العربية · فلا بد من تربية الشباب الذى يؤمن بحقه فى الحياة ، ويسعى للنهوض بنفسه ، ويعمل للرقى بأمته ، وينكر ذاته للصالح العام ، ويبذل جهده للخدمة العامة ·

وهذه الصفات التى ينبغى أن يتصف بها الشباب العربى ليست فطرية أو غريزية ، بل تنشأ وتتكون عن طريق تعديل نزعاته واعلاء غرائزه ، وتتهذب وتترعرع عن طريق ملاحظته وتوجيهه ، وتنمو وتسمو

عن طريق تنسيق البيئة التى يعيش فيها وتهيئة الجو الصالح الذى ينمو فيه · وهذه التنشئة القومية ليست بالأمر الهين ، وليست مما يوضع على هامش الأمور ، بل هى أولى المسائل التى يجب أن يعنى بها المسئولون فى كل أرجاء الوطن العربى ويضعونها موضع الصدارة فى استراتيجيتهم العامة والخاصة · ذلك أن السياسة التربوية والتعليمية للأمة لا يمكن أن تنفصل عن سياستها الاقتصادية والاجتماعية والدولية ·

ومن الضرورى بالنسبة لرجال التربية والتعليم العـــرب أن يتبعوا سياسة عملية تؤهل الشباب العربى أينما كان ليعرف وطنه الكبير معرفة تامة ، ويتعرف على أجزائه ، ويوثق صلته بأبنائه شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ويعنى بكل أجزائه على السواء عنايته بوطنه الصغير · كما يتحتم عليهم أن يعدوه للدفاع عن هذا الوطن الكبير والحفاظ على وحدته ، وحماية ما به من تراث وأفكار وشعارات ، وما يسوده من عقائد وفلسفات وقيم ، وتحطيم عناصر الشر التى تحاول الاضرار بهذا الوطن · فالهـدف الأساسى من التربية القومية يتمثل فى تكثيف الوعى القومى عند الأجيال الجديدة حتى لا تصبح نهبا لتيارات العصر المتناقضة والمتصارعة ·

فالشباب اذن لا بد أن يتكيف مع فلسفة المجتمع العربى الجديـد وأهدافه ، ولا بد أن يعد اعدادا كاملا شاملا كى يحمل تبعات المستقبل العربى · ولا شك أن عملية الاعداد القومي للشباب قد ازدادت تعقيدا فى هذا العصر ؛ وأن مجالات رعايته قد اتسعت اتساعا لم يسبق له مثيل · ولكن هذه القضـــايا على الرغم من تعـــددها وعمقها وكثرتها وخطورتها ؛ لا تعنى أن موضوع الشباب يمكن أن نتساهل فيه أو نتركه رهنا للظروف · فكل دولة عربية مسئولة عن وضع رعاية الشباب موضع الصدارة ، والمجتمع العربى مسئول عن بحث كل ما يتصل بشبابه وتوفير أسباب الرعاية الكاملة له ، حتى يتمكن من معرفة ذاته ، ومن ادراك دور العروبة فى أمة واحدة ، هذا الدور الذى ينهض على التضامن والتفاعل والتجاوب ، ويسعى لتفجير الطاقات الكامنة ·

ويرى حافظ أن التربية القومية الصحيحة تعنى بالناشىء فى كل وقت ، خلال عمله وراحته ، وجده ولعبه ، كما ترعى البالغ حتى آخر مراحل حياته · فهى تسعى أولا الى الكشف عن القدرات والاستعدادات والموهب ـ عقلية كانت أم جسمية ـ لكى توجهها فى سن مبكرة لصالح الفرد والجماعة ، وتعمل فى الوقت نفسه على تزويد الانســـان العربى بسلاح يساعده على كسب عيشه والرقى بحياته عن طريق تعليمه وتدريبه ، كما تهيىء له البيئة التى يعيش فيها ، بتنظيمها وتنسيقها حتى يرضاها

ويتعلق بها ، وتعينه على استثمار كل أوقاته ، وخاصة وأن المثل العربى يقول ان الوقت كالسيف اذا لم تقطعه قطعك · وعلى هذا نستطيع القول بأن التربية القومية عملية متكاملة مستمرة تلازم الانسان العربى فى كل مراحل حياته ·

والشباب العربى فى أمس الحاجة الى التربية العقلية التى توفر له مجموعة الشروط العقليه او الادراكية حتى يتم له التكيف بينه وبين نفسه من ناحية ، وبينه وبين البيئة من ناحية أخرى ، بحيث يؤدى هذا التكيف الى أقصى ما يمكن من التوحد مع المجتمع العربى · وتتمثل أهداف التربية القومية فى مساعدة الشباب العربى على ادراك مدى قدراته واستعداداته وميوله ، وتفهم المشكلات التى توجهه مهما كان نوعها ، وفهم البيئة المادية والاجتماعية وما فيها من امكانات ونقص ، ثم استثمار الامكانات الذاتية والبيئية ، وتحديد أهدافه فى الحياة على أن تكون هذه الأهداف واقعية يمكن تحقيقها وفى الوقت نفسه تتفق وفكرته السليمة عن نفسه ، مع القدرة على رسم الخطط السليمة التى تؤدى به الى تحقيق هذه الأهداف ، وأخيرا القدرة على تنمية شخصيته الى أقصى حد تؤهلـه له امكـاناته وامكانات بيئته ·

واذا كانت التربية العقلية تشكل الأساس اللازم للتربية القومية ، فان التربية القومية تعد أوسع ميادين التربية وأخطـرها لأنها لا تتعلق بالفرد وحده فحسب ، ولكن لأنها تتصل أيضا بحاضر الأمة ومستقبلها ، وترتبط بأهدافها وأمانيها وما أعد لصيانتها والمحافظة عليهـا · وهى وحدها ـ من جوانب التربية ـ التى تحدث شعور العضوية فى الجماعة عند الفرد حتى تنسق حياتهما لفائدتها وتندمج أهدافهما لصالحهما · فمن خلالها يشعر المواطن أنه جزء من جماعة كبيرة هى أمته ، لا ينفصل عنها ولا تبتعد عنه ، يشاركها فى ذكريات ماضيها ، ويسهم معها فى أحداثها الحاضرة ، ويواكبها فى صنع مستقبلها ، وبذلك تكتسب حياته معنى جديدا ومتعة جديدة ، اذ يشعر أنه يحيا لهدف أشمل وأعظم من مصلحته الخاصة ·

ولا ريب أن بلادنا العربية اليوم فى أمس الحاجة الى التربية القومية ، ولعل حاجتها هذه لا تقل عن حاجة سائر البلدان ، بل قد تزيد عليهـا بكثير ، فالأحداث الخطيرة التى مرت بها ، والأيام العصيبة التى تجتازها، فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخها ، كلها تستدعى الاهتمام بالتربيـة القومية · هذا بالاضافة الى أن الأمة العربية قد بلغت من الوعى القومى ما جعل عالمنا المعاصر يضع تحركاتها فى اعتباره دائما ، كما أنها قطعت

شوطا بعيدا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية · من هنا أصبحت التربية القومية ضرورة ملحة ملقاة على عاتق كل القادة والمفكرين العـــرب حتى تتسلح الأجيال الصاعدة بالوعى القومى والثقافة العلمية والمهنية ، وحتى لا تنحصر جهودها وخدماتها في اطار العيش والكسب ، بل تتعداه الى مجالات القومية العربية الشاملة · يقول محمد على حافظ :

« اننا نعيش في عصر العروبة ، أساس رباطنا ، ومصدر عزتنا ، ومنبع قوتنا ، ومناط قوميتنا · هذا هو العصر الذى نعيش فيه بخصائصه وصفاته ــ فهو عصر جديد ، فيه مذاهب جديدة ، واتجاهات حديثة ، تتطلب أن يكون للمواطنة معان ومفاهيم جديدة تلقى على كل مواطـــن أعباء من نوع جديد تجعله في حاجة الى أنواع حديثة من المعارف والنزعات والمهارات ، وتحتم عليه توافر الايمان والعقيدة ، وتتطلب منه سلوكـــا معينا وتصرفا مخصوصا · ووظيفة التربية القومية المواءمة بين روح العصر ومطالب الفرد والمجتمع عن ادراك واتزان ، وتحتاج الى بث الايمـــان بضرورة أداء الواجب وبحق الفرد وحق الجماعة في النفوس ، وترمى الى تكوين المواطن الذى يستطيع مواجهة كل هذه الاتجاهات في قـــوة وعزم وادراك بحق وطنه عليه ، والتزامه بأداء واجباته نحوه » ·

أما في كتاب « تطوير السياسة التعليمية في المجتمع العـــربى » فيوضح محمد على حافظ أن مستقبل الأمة العربية مرتهن بمدى ارتباط مفاهيم القومية العربية بسياستنا التربوية التعليمية · فلا بد من تخطيط التعـــليم وفقا لاحتياجات البلاد القومية ، سواء الاحتياجات السياسية أم الاجتماعية أم الاقتصادية ، بحيث تجد كل حاجة أو خدمة قومية العنصر البشرى الذى يقوم بها · كما يتحتم تحقيق تكافؤ الفرص في التعليم وذلك حتى لا يكون التعليم حكرا على طبقة من الناس ، فالأبواب يجب أن تفتح أمام جميع المواطنين ، ولكل مجتهد نصيب ، وبذلـــك تتحقق العـــدالة الاجتماعية أما تعميم التعليم الابتدائى على اعتبار أنه الحد الأدنى للمواطنة المستنيرة فأمر لا يحتاج لجدل · كذلك تبرز ضرورة التوسع في التعليم الفنى ، وصبغ التعليم بالصبغة العملية · فالمجتمع العربى في أشد الحاجة للعامل الماهر ، والتعليم النظرى المجرد لا يفيد وحده في عالم يقيس كل الانجازات بمقاييس الانتاج المادى الملموس · أما أبواب التعليم العالى فيجب أن تفتح أمام ذوى الاستعدادات والمواهب وفقا لاحتياجات خطة التنمية ·

وعلى الرغم من أن التعليم هو أهم أدوات التطوير في المجتمع من جميع النواحى ، وأنه ليس أداة تنساق وراء التطوير ، فان الحادث هو أن التعليم في كثير من جوانبه ينساق وراء الاندفاعات والرغبات الطارئة دون ما ينبغى أن يتخذ ازاءها من تمحيص كاف وتخطيط قومى شامل · ولعل

هذا يرجع الى السرعة الكبيرة المذهلة التى يتطور بها مجتمعنا العربى فى مختلف نواحيه ، كما أن مفاهيم التربية والتعليم والثقافة والتدريب المهنى لا تزال عرضة للخلط فيما بينها وسوء فهم لمراجعها ومناهجها القومية ، الأمر الذى أدى الى اختلاف وجهات النظر فى كثير من المسائل الفنية التى تمس بناء الانسان العربى فى الصميم • واذا كانت أجهزة الدولة المسئولة عن التربية والتعليم ، فى كل بقعة من بقاع العالم العربى ، قد قامت بالتخطيط لسياسة جديدة للتربية والتعليم ، فان الصفة الغالبة على هذا التخطيط أنه تخطيط جزئى وعفوى وغير مترابط ، ذلك لأنه لا يتكامل فى وحدة شاملة ، بل يتناول نوعا أو آخر من التعليم بين آونة وأخرى ، أو يناقش مرحلة معينة منه وفقا لظروف معينة ، دون أن يتدارس العملية التعليمية التربوية فى جميع مراحل التعليم وأنواعه ، بصورة كلية شاملة ، يتعرف من خلالها المواطنون على أهداف التعليم ومراحله ومستوياته وسبل الوصول اليها ، كما يرى الناشىء فيها الأبواب المفتحة أمامه ، والميسرة له ، فيندفع نحو ما يتفق منها وميوله واستعداداته ، فان أخطأه الحظ فى باب منها عالج بابا آخر ، وهكذا تتاح للطاقات والاستعدادات سبل النمو ، وفرص الاستزادة من المعرفة وتعميق الوعى القومى •

والمفهوم العلمى للقومية العربية يفرض علينا أن نحدد فلسفتنا التربوية وأهدافها تحديدا واضحا معبرا ، ونرسم سياسة تعليمية تدريبية قومية ، كى نعد الانسان العربى اعدادا كاملا — علميا وفكريا واجتماعيا ومهنيا — حتى تنهض القوى البشرية العاملة فى الأمة العربية على أسس عملية علمية احصائية سليمة • كما يجب الكشف عما فى المجتمع العربى من عيب ونقص وعجز فى كل جانب من جوانب حياته ، مع معرفة أسبابها كى نعمل على علاجها واصلاحها من خلال سياستنا التربوية الموحدة ، علاجا جذريا عميقا فى مخطط مدروس مرسوم • كذلك فانه من الضرورى تحليل العادات والأنماط والتقاليد والأسباب والمفاهيم التى نعيشها حتى نقضى على البالى منها والمعطل ، ولكى تظهر أنماط قومية جديدة تدفعنا للعمل الجماعى نحو التطور والبناء • وما ينطبق على العادات والتقاليد ينطبق على النظم واللوائح والتشريعات •

ويؤكد محمد على حافظ على ضرورة استخدام الأساليب العلمية الصحيحة للكشف عن العناصر القيادية الصالحة ، وذلك بغرض اعداد البارزين من النشء للقيادة • وهذا لن يتأتى الا من خلال تدعيم الوحدة الفكرية بيننا جميعا ، تلك الوحدة التى تتسم بالمصارحة والتعاون وانكار الذات ، والمسئولية القومية ، والعمل الجماعى — تحقيقا لوحدة الهدف

ووحدة الصف • وذلك مع القضاء التام على الازدواج ، والتكرار ، والاسراف ، والسلبية ، والاستهتار ، والاهتمام بالشكل دون الجوهر والتسويف ، والتعقيد ؛ والمجاملة ؛ والمحسوبية على حساب الصالح العربى العام ، وعدم التعمق فى البحث والدراسة ، والاستناد الى قواعد وتشريعات ومفاهيم بالية لا تتفق وروح العصر الذى نعيشه ••• الخ من هذه السلبيات التى يجب أن يتيقظ لها الشباب العربى فى أثناء العملية التعليمية التربوية حتى ينهض مستقبل الأمة العربية على كل الايجابيات القومية التى تجمع بين الأصالة والمعاصرة •

١٨ ـ أحمد حسين « مصر »

اشتهر حزب « مصر الفتاة » الذى أسسه أحمد حسين باتجاهه نحو القومية المصرية وتمجيد مصر وحضارتها القديمة . ولكن أحمد حسين لم ير فى هذا الاتجاه أى تعارض مع ايمان حزبه بالقومية العربية فهو من المفكرين المؤمنين بأن قوة أى جزء من الوطن العربى بمثابة قوة للوطن كله ، ويجب ألا نشعر بالتناقض بين الاعتزاز بالوطنية المحلية داخل كل اقليم من الأقاليم العربية وبين الاصرار على القومية العربية كمبدأ يلتزم به العرب من الخليج الى المحيط . وفى هذا المضمون كتب أحمد حسين عدة مقالات يؤيد فيها الوحدة العربية ، وينادى بالتطبيق العملى لهذه الوحدة . وهو وان كان يؤمن بالوحدة الاسلامية أيضا الا أنه رأى أنها خطوة تالية للوحدة العربية ، وذلك طبقا لما جاء فى مقالته التى نشرها عام ١٩٣٩ بعنوان « الوحدة الاسلامية وليدة الوحدة العربية » .

ولذلك كان حزب « مصر الفتاة » على رأس الأحزاب التى عملت للفكرة العربية منذ حوالى عام ١٩٣٩ . واعتبر العرب أمة واحدة . وفى عام ١٩٤٨ كان فى طليعة المستعدين لحرب فلسطين ، وألف عدة لجان لجمع الأموال لاعانة المنكوبين وشراء الأسلحة لهم . وقد اتهم بعض المؤرخين حزب « مصر الفتاة » بأن حماسه لقضية فلسطين ، لم يكن حماسا عربيا قوميا بقدر ما كان حماسا فاشيا مبعثه كراهية اليهود . وكان رأيهم أن حزب « مصر الفتاة » لم يفرق بين الصهيونية واليهودية ، بل كان يهاجم اليهود فى عنف ويدعو لمقاطعتهم على صفحات جريدته . ومع ذلك اعترف هؤلاء المؤرخون أن اشتغال الحزب بالقضية الفلسطينية اشتغالا اتسم بالتهييج والتطرف قد أثار اهتماما كبيرا فى الرأى العام المصرى ، نشأ اسلاميا فى البداية ، ثم تحول الى قومى عربى بعد ذلك .

ولكن للحقيقة والتاريخ لا بد أن نلتمس العذر لحزب « مصر الفتاة » ومؤسسه أحمد حسين ، لأنه فى تلـــك الفترة كانت قـــوى الاستعمار والامبريالية تمهد لاقامة وطن لليهود فى فلسطين ، ولا تفرق فى الوقت نفسه بين اليهودية والصهيونية • بل كانت اليهودية هى المطية التى حملت الصهيونية الى حيث حققت أهدافها العنصرية • ولو اقتصر الحزب على مهاجمة الصهيونية فى تلك الفترة ، لكان هجـــومه ضد أفكـــار مجردة لا تلتقطها جماهير الشارع المصرى • وكيف نطالب حزب « مصر الفتاة » بالتفريق بين اليهودية والصهيونية فى الوقت الذى لم يحاول فيه اليهود أنفسهم القيام بمثل هذا التفريق ؟! والدليل على ذلك أن اليهود فى مصر رحلوا جميعا الى بلاد أخرى ومنها الى اسرائيل فى أعقاب العدوان الثلاثى الفاشل فى عام ١٩٥٦ • وهذا يعنى أنهم لم يعتبروا أنفســـهم مواطنين مصريين ، بل كان الاتجاه العنصرى غالبا على فكرهم وسلوكهم • وهـــو الاتجاه الذى سمى بالمذهب الصهيونى •

ومن الواضح تاريخيا أن التفريق بين اليهودية والصهيونية لم يتبلور على مستوى عالمى الا فى أعقاب نكسة يونيو ١٩٦٧ ، عندما طرح القادة الفلسطينيون لأول مرة فى تاريخ القضية فكرة قيام الدولة العلمانية فى فلسطين ، وهى الدولة التى لا تفرق بين مواطنيها من مسلمين ومسيحيين ويهود • وهى فكرة ــ وان ظلت حبيسة العقول والصدر ــ فانها كشفت الأساس العنصرى الذى قامت عليه اسرائيل وعـــرته تماما أمام الدول الكبرى التى آلت على نفسها حماية اسرائيل وترسيخها بكل الوسائل غير المشروعة •

ولم يتحول أحمد حسين طيلة حياته عن اتجاهه القومى العربى ، ولم يعبأ باتهامه بالعنصرية أو الفاشية • ذلك أن الذين يخدمون وطنهم باخلاص لا يعبأون بالاتهامات المغرضة التى تحاول الدخول بهم فى متاهات جانبية ودوائر مفرغة من الجدل العقيم ، تكون نتيجتها تشتيت جهودهم وضياعها هباء • وهذا الاتجاه يتضح فى « حزب مصر الاشتراكى » الذى أسسه عام ١٩٥١ واعتبر امتدادا لحزب « مصر الفتاة » الذى أسسه عام ١٩٣٣ • وكان على رأس برنامج الحزب الدعوة الى توحيـــد الشعوب العربية وذلك باقامة الولايات العربية المتحدة • وهى دعوة لاقت صدى كبيرا فى نفس المصريين الذين وجدوا أن اسرائيل قد أصبحت حقيقة واقعة تهدد الوطن العربى كله بالخطر •

والدليل على اتساق الفكر القومى العربى عند أحمد حسين أنه نشر فى ٢ أغسطس ١٩٧٨ مقالا فى جريدة « الأخبار » المصرية بعنوان « العربى

للعربى » بدأها بهذه الجملة « لا تشتر الا من عربى ، ولا تأكل الا طعاما عربيا ، ولا تلبس الا من صنع العرب • وهذا هو طريق النجاة ، طريق المستقبل » • فهو يرى أن القومية العربية ليست لافتات أو شعارات أو عبارات بليغة ، بل انتاج وعمالة وتعاون اقتصادى وتبادل تجارى وتكامل فى ميادين الصناعة والزراعة وغير ذلك من وسائل ترجمة القومية الى مظاهر ملموسة فى حياة المواطنين العرب من الخليج الى المحيط • ولذلك يطالب أحمد حسين باعادة توعية الشباب العربى بمبادئه الأصيلة وقيمه التى صنعت حضارته • وبدلا من أن يلعن العربى الظلام الجاثم على كاهل الأمة العربية ، فان عليه ــ كل فى منطقته ــ أن يضىء شمعة ، عندئذ سيسطع العالم العربى كله بالضياء •

وينعى أحمد حسين على كل من المصريين والعـــرب أنهم يرتكبون يوميا خطيئة خلقية واجتماعية وانسانية لا تغتفر • وهى خطيئة تتمثل فى اتجاههم المتزايد الى الاستهلاك دون اعتبار للانتاج المثمر الذى يعد عبادة يومية للشعوب المتحضرة • ذلك أن الأصل فى الانسان ، أى انسان ، أن يشبع حاجاته من خلال عمله بيده ، وبتطور الجماعـــة حدث تقسيم العمل ، أى أن يتخصص كل انسان فى عمل شىء يحتاجه الآخـر ، وأن يتبادل الناس أعمال بعضهم ، أى أن الالتزام الاجتمـــاعى والانسانى ، وبالتالى الخلقى ، أن يستفيد الانسان من ثمرة عمل الآخرين ، فى مقابل أن يقدم لهم ثمرة عمله • ولكن لم يحدث فى العالم العربى أن سأل انسان نفسه : ماذا عملنا ، أو ماذا سنعمل فى مقابل ما يقدم لنا من عمل ؟ ان أحدا لا يجد وقتا ليسأل هذا السؤال • الكل مشغول فى تصدير المواد الخام وعلى رأسها البترول ، وهى مواد لا فضل لعربى فيها لأنها هبـة الطبيعة دون مقابل • وتصديرها بهذا الأسلوب المرتجل العفوى لا يعنى سوى التفريط فيها مقابل أموال تقل قيمتها بمضى الزمن • ناهيك عن انفاق هذه الأموال على المظاهر الكاذبة والرغبات المراهقة التى تعيد الأموال الى أصحابها الأوائل •

هذا بالنسبة للدول العربية الغنية ، أما الدول العربيـــة الفقيرة فترتكب خطأ لا يقل عن هذا فداحة • فالمسئولون فيها أصبحوا مشغولين بعقد القروض ، وأصبح موضوع التفاخر ومقياس النجاح هو الحصول على القروض من كل مكان ، مع الاهتمام بمدة هذه القروض ــ قصـــيرة أو متوسطة أو طويلة ــ واحلال بعضها مكان بعض ، والفوائد على هذه القروض وهل هى عالية أم منخفضة ، ومدى فترة السماح ••• الخ من القضايا المضللة التى أصبحت الدول العربية الفقيرة تعيشها ليل نهار ، ولم يتصور

أحد أنهم فى نهاية الأمر يعيشون فى دائرة القروض ، وهى دائرة مفرغة بل ومدمرة بطبيعتها ٠

وايمان أحمد حسين بالشباب العربى لا يتزعزع ، شريطة أن يجد التوجيه الصادق والتوعية الصحيحة ٠ ولا يزال يذكر كيف استجاب الشباب المصرى فى عامى ١٩٢٦ و ١٩٢٧ للانصراف عن المستورد الأجنبى ، وأصبح « المنديل المحلاوى » شعار هذه الحركة ٠ واستغنى كل شاب عن رباط العنق والقميص الافرنجى ، بالمنديل المحلاوى برغم خشونته ٠ بل خلع الشباب البدل الصوفية الانجليزية واستبدلوها ببدل مصنوعة من قماش قطنى ، صنع فى « كوم النور » على الأنوال البلدية ، لأن « شركة مصر للغزل والنسج » بالمحلة الكبرى لم تكن قد أنشئت بعد ٠ وامتلأت مصر بحركات الشباب وشعاراتهم من أمثال « المصرى للمصرى » و « عيد الوطن الاقتصادى » وأخيرا « مشروع القرش » ٠ وقد بلورت « مصر الفتاة » ذلك كله فى مبدئها الثانى : « لا تشتر الا من مصرى ولا تأكل الا طعاما مصريا ، ولا تلبس الا ما صنع فى مصر » ٠ وكان هذا الاتجاه من أروع صور المقاومة العملية للاستعمار البريطانى الجاثم على كاهل مصر فى ذلك الوقت ٠ وقد عبرت ثورة ٢٣ يوليو عن ذلك كله عندما وضعت الخطط لتصنيع مصر ، والاستغناء عن الاستيراد من الخارج بقدر الامكان ٠ لكن سرعان ما عادت مصر ومعها العالم العربى الى الاستهلاك فى حين توارى الانتاج خجلا من هزاله وانهياره ٠

لذلك يكرر أحمد حسين دعوته التى دعا الشباب اليها منذ نصف قرن مع تحوير فى بعض الألفاظ التى اقتضتها الظروف ٠ فاذا كان شباب الأمس قد جاهد للتغلب على مصاعب عصره ، فنادى « المصرى للمصرى » فسوف ينبثق من شباب اليوم من ينادى « العربى للعربى » ٠ ولا يهتم أحمد حسين بأن يتبنى هذا الشعار حزب من الأحزاب ، أو حركة أو جماعة ، انما المهم أن يخرج الى الوجود وأن يصبح حقيقة واقعة يعيشها العرب من الخليج الى المحيط ٠ بحيث يلتزم المؤمنون بها ألا يشتروا الا من عربى ، ولا يأكلوا الا طعاما عربيا ، وألا يلبسوا الا ما صنع فى بلاد العرب ٠

ويؤكد أحمد حسين على أنه عندما يتحدث عن العالم العربى الواحد، فانه لا يعنى بذلك عنصرية أو عصبية وانما يدعو الى الأخذ بأسباب القوة فى عالم لا يعرف سوى القوة المادية فى الاقتصاد والعسكرية ٠ وهذا لن يتحقق الا اذا أصبحت المنطقة من الخليج الى المحيط ، منطقة واحدة ٠

وهى منطقة تموج بكل أسباب القوة ، اذا تعاونت وتكاملت • ومن حسن الحظ أنه لا يوجد أى تعارض فى المصالح بين أجزائها ، بل على النقيض من ذلك تماما ، فان علاج كل جزء من البلاد العربية يقوم على آخر • ان كل مصنع يقام على أرض عربية ، هو قوة لكل عربى • ان كل فدان يزرع فى الأرض العربية ، هو انتاج لكل عربى • ولن يبنى العالم العربى سوى المال العربى ، والعقول العربية ، والسواعد العربية • فهذا هو طريق النجاة ، طريق النهوض ، طريق المستقبل •

١٩ ــ اسحق موسى الحسينى « فلسطين »

تمثلت انجازات اسحق موسى الحسينى فى مجـــال الفكر القومى العربى ، فى المحاضرات التى ألقاها فى مختلف أنحاء العالم العربى حول مشكلات الفكر العربى المعاصر ، وقضايا اللغة العربية ، وعـــلاقة الأدب بالقومية العربية . ولم يكن مهتما بنشر الكتب بقدر اهتمـــامه بالقــاء المحاضرات . لكنه فى عام ١٩٦٥ جمع بعض محاضراته العامة فى كتاب بعنوان « الأدب والقومية العربية » نشره له معهد البحـــوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، وفيه نجد خلاصة فكره فى مجـــال الثقافة العربية القومية . وهو الفكر الذى تبلورت ملامحه منذ أن أصدر كتابه « أزمة الفكر العربى » عام ١٩٤٥ .

فى مجال القومية العربية يؤكد اسحـــق موسى الحسينى بأسلوب موضوعى هادىء حاجتنا الى أن ندرك طاقاتنا وأن نسترد الثقة بأنفسنا . لقد كان الحكم الأجنبى يهدف الى قتل هذه الثقة بحصر الحكم والتجـــارة والصناعة فى يديه ، وباشاعة الأراجيف عن ملكاتنا وقوانا ، وبتوجيهنا نحو القناعة والزهد ، وبالاقتتال على الفضلات وبوضع مناهج تعليميـــة عقيمة . لكن الحسينى يحذر من أن نتجاوز نشدان الثقة الى الاتصاف بالغرور والطغيان والعزلة بل علينا أن نعرف بـــلادنا وطبيعة أرضهـــا وخيراتها وقواها ، وطبائع السكان ومواهبهم لنحسن استغلالها . وهـــذه المعرفة تنجم عن الأسفار والتحلى بروح الكشف ومعرفة الحقائق المجردة وابداء النقد النزيه البناء .

واذا كنا نسعى الى نهضة عربية حقيقية فلا بد لنا من علماء ينصرفون الى البحث والكشف والتوجيه ، ومن كتب علمية يؤلفها هؤلاء العلماء ، ومن مكتبات قومية تزودنا بكل ما نحتاج اليه من مراجع ومناهج للبحث . كذلك

نحن فى حاجة الى مفكرين يغوصون فى أعماق تاريخنـــا ، ويبحثون عن شخصيتنا العربية ، ويتعرفون الى ذواتنا ، ليضعوا لنا مبادىء ثورية تؤدى الى انقلاب فى أعماق نفوسنا ، انقلاب فكرى وروحى ونفسى يملؤنا حيوية وابداعا وطيبة ومحبة واحساسا انسانيا أصيلا ٠

وهذا لا يعنى التخلى عن الناحية المادية كالتصـــنيع والافادة من ثروات البلاد من مياه ونفط ومعادن ٠ فالمعدة الفقيرة لا تستسيغ المثالية الخلقية والروحية ٠ ولذلك يريد الحسينى أن يكون بناء الانسان العربى على أساس روحى ومادى فى الوقت نفسه ، أى يكون الى جانب الاقبال على النهضة المادية ، فهم انسانى عميق لمسئولية الفرد نحو نفسه ونحو مجتمعه ، المسئولية التى توجب عليه سلوكا كريما نافعا بناء ٠ ويريـد الحسينى أن يندفع الانسان العربى نحو التصنيع لا رغبة فى مال وثراء فحسب ، بل ايمانا برسالة انسانية نبيلة وشوقا الى الابداع وتلذذا بأداء الواجب ، وشعورا بالفناء من أجل الوجود ٠ وهذا واجب يتحمل عبء ترسيخه رجال الفكر والأدب ٠ فهم الذين يجسدون أشواق الأمة وآمالها ، ويبلورون أهدافها ٠

وينادى الحسينى باصلاح مناهج التعليم حتى يتعدى عمل المدرسة التلقين الى تكوين النفوس وانماء الملكات وتفجير الطـاقات وتشـــذيب الشوائب واعداد الأفراد لحياة كريمة ٠ ان المعلم صانع أمة لا مخرج قراء وكتاب فحسب ٠ كذلك لا بد من أن نلائم بين مناهجنا وطبيعـــة بلادنا ومواردها ٠ ومن العجب ألا نجد فى بلد أعظم موارده البترول مثلا معهدا واحدا للهندسة البترولية ٠ وألا نجد فى بلد مياهه غزيرة معهدا لهندسة الرى ٠ وألا نجد فى بلد معظم مساحته فى الصحراء معهدا لغزو الصحراء واستصلاح الأراضى وكشف المعادن ٠ والشعب العربى متخلف عن الركب الانسانى تخلفا مخيفا بحيث يتمثل التحدى الرهيب الذى يواجهه ليس فقط فى تخطى هذه الهوة الشاسعة ، بل فى مواكبة ايقاع العصر وسرعته على المستوى العلمى والتكنولوجى ٠

لذلك يتمثل واجبنا فى اعادة بناء العقل العربى على هدى التقدم الحضارى ، وتأكيد الايمان بالعلم واحترام العلماء والاقبال على الزراعة والصناعة والتجارة والحرص على الوقت وتقـويم الأشياء الصغيرة وحب العمل ٠ وهذه الروح العملية الموضوعية تحتم علينا احترام الكلمة وادراك قيمتها الصحيحة ، لا أن نردد مائة كلمة لنعنى كلمة واحـــدة ، ولا أن نفيض فى كلام طويل لا رصيد وراءه من حس ومعنى ٠ لقد أخذ علينا أننا لا نقول ما نعنى ، وأننا نقول كثيرا ونفعل قليلا ٠ قد يكون هذا من آثار عصور الافلاس بعد أن اغتصبت حقوق الشعب وأهدرت كرامة الفرد ٠

لكن هذا ليس بعذر لنا بعد أن عرفنا بيت الداء ، فلا بد من أن نعيد للكلمة قوتها بأن نقول ما نعنى بالضبط ، وأن نتبع القول بالعمل ٠

أما موقفنا من تراثنا القومى فيجب أن يستوعب العلاقة الموضوعية بين ماضينا وحاضرنا ٠ ويعنى الحسينى بهذا أن نتمسك بالقيم الروحية والخلقية الرفيعة المتوارثة ، وألا نتخلى عنها تقليدا لغيرنا ٠ ففى تاريخ الحضارة العربية مبادىء انسانية رفيعة كالمروءة والشهامة والشرف والاقدام والترفع عن الصغار والطموح والصدق والأمانة ٠ وهذه عوامل مؤثرة فى دفع الأمة العربية فى طريق خير كريم ٠ وواجبنا أن ننمى هذا التراث وأن نصوغه صياغة جديدة لأبنائنا ، وأن نشوقهم الى التعلق به وممارسته ، وأن نحيى شواهده من تاريخ الأبطال والعلماء والرحالة والمكتشفين ليكونوا نماذج حية للأجيال المقبلة ٠

وعن علاقة الأدب بالقومية العربية يتفق الحسينى مع كل الباحثين فى هذا المجال على أن اللغة العربية الفصحى كانت أكبر عامل من عوامل القومية العربية التى تجمع الشعب العربى الممتد من المحيط الأطلسى غربا الى الخليج العربى شرقا ، ومن حدود سوريا شمالا الى عدن جنوبا ، لأنها وسيلة التفاهم بين أفراده ، ووسيلة نقل التراث الثقافى الذى يمثل مشاعر الأمة العربية وأفكارها وفتوحاتها فى العلوم والآداب فى أيام مجدها ، ووسيلة التعاطف والتآخى والتآزر وبالتالى التوحيد ٠ كذلك كانت اللغة العربية هى البوتقة التى صهرت فيها جميع العناصر غير العربية أصلا كبقايا الأتراك والجركس والأكراد والبربر وغيرهم ممن نزل هذه المنطقة الشاسعة ، ودخلوا فى قوميتها طائعين ٠ ويؤكد الحسينى أنه من الطبيعى جدا أن عددا كبيرا من علمائنا وأدبائنا يرجعون فى أصولهم الى بعض هذه العناصر ٠

هذا عن اللغة أما الأدب فهو ـ عند الحسينى ـ أنبل المشاعر وأسمى الأفكار مصوغة فى قالب جميل ٠ والأديب الحق هو الذى يتفاعل مع أحداث أمته ، ويستخرج من تربتها بذور الأفكار والمشاعر وينميها ويخرجها حية ناطقة ويتركها ميراثا تعتز به أمته ٠ والأدب العربى هو جماع المشاعر القومية وتجسيد الأفكار السامية من تغزل بالجمال واشادة بحب الوطن ودفاع عن الحق ودعوة الى الخير وتسجيل الآمال والآلام وتصوير للأمانى والأحلام ٠ انه باختصار الأمة العربية فى قحطها وخصبها فى سلمها وحربها ، فى انكسارها وانتصارها ، فى ضعفها وقوتها ، فى انخفاضها وارتفاعها ٠ انه سجلها الذى جسد نبضات قلبها وأشواق روحها واشراق عقلها ٠

والعربى الذى يتكلم العربية ويسكن بلاد العرب هو عربى «جغرافيا» إنه شبيه بما يعيش فى بلاد العرب من مخلوقات غير انسانية . لكن العربى الذى يستوعب تاريخ العرب وتراثهم ، ويتمثل أدبهم ويتحسس آمالهم وآلامهم ويغذى عقله بأفكارهم وقلبه بأدبهم وروحه بمثلهم العليا ، هو العربى الذى يشارك أمته فى أخص خصائصها ، هو العربى «انسانيا». ذلك أن الاطلاع على أدب العربى – بمفهومه الواسع – شرط أولى لاستيعاب الجانب الانسانى فى القومية العربية .

ولذلك تحرص الأمم على تدريس أدبها فى مدارسها لينشأ أبناؤها على حب أوطانهم والتعلق بمثلهم العليا والمشاركة فى تكوين تراثهم الانسانى الخالد ومن ثم فداء أوطانهم بأرواحهم . وتحرص على رعاية الأدب وتشجيع الأدباء ونشر أدبها بين الشعوب الأخرى فتفتح المكتبات وترسل البعوث وتنشر الكتب وتبث الاذاعات بلغات متعددة ، علما منها أن من أحب أدب قوم أحبهم . كذلك تحرص الأمم على أن تصون حرية الكلمة لتنطلق الى كل الآفاق الممكنة ، ادراكا منها أن الأمة تخلد فى أدبها أكثر مما تخلد فى فتوحاتها العسكرية وقوتها المادية .

واذا كان العرب يصرون اليوم على أن يعيشوا أحرارا كراما فلأنهم عرفوا تاريخهم واستوعبوا أدبهم فرأوا ماضيهم صفحة ناصعة فى تاريخ الانسانية ، فحرصوا على أن تثبت على الدهر ، وأن يصلوا ما انقطع . ولولا هذا التراث الأدبى الضخم الذى ملأ آلاف المجلدات ما تحسس العرب وجودهم وآمنوا بقوميتهم ووثقوا بقوتهم . ان الأدب هو الدعامة الأساسية لقوميتنا ، ولا بد أن ندرس أثره فى حاضرنا لأنه نسيج شامل يغطى معظم جوانب حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ويؤمن الحسينى بأن العرب المعاصرين فى حاجة الى تعريب ، بمعنى أنهم فى حاجة الى توسيع احساسهم بماضيهم المجيد ، وتغوير القيم الانسانية منه فى أعماق نفوسهم ، ونقل شعوبهم من المنطقة « الجغرافية » الى المنطقة « الانسانية » ، وتوثيق الروابط بينهم على أسس أدبية وفكرية متينة تمهيدا لوحدتهم الشاملة التى يمكن أن تعيد أمجاد حضارة كالحضارة العباسية أو الأندلسية . فالأمة العربية بقوتها البشرية وثروتها الطبيعية يكمل بعضها بعضا كما يكمل جسم الانسان بعضه بعضا .

ويستعرض الحسينى فى كتابه « الأدب والقومية العربية » تاريخ الأدب العربى والعوامل التى ساعدت على تشكيله وبلورته منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحاضر ، مبينا كيف كان بمثابة بوتقة انصهرت فيها

الشخصية العربية وتطورت حتى بزوغ فجر القومية العربية كأيديولوجية سياسية واجتماعية واقتصادية فى أواخر القرن الماضى · لـكن الحسينى يوضح نظرته الاستراتيجية الشاملة تجاه القومية العربية فيؤكد أن الأدب ليس الدعامة الوحيدة لها · فالأمة العربيـــة ما كانت لتثبت فى وجه الأحداث ، وطمع الغزاة ، لو بقيت على حالها من الركود والخمول والتخلف عن ركب الحضارة ، ووقوعها فريسة لقوى الشرق أو الغرب · ولذلـك يجب أن نفهم جيدا أن الأخذ بأسباب القوة والعلم والحضارة ، من تكوين الجيوش ونشر العلم وترقية المجتمع وايقاظ الوعى الشعبى ونشر المدنية ، كانت أسبابا أساسية لبقاء الأمة العربية ·

ولذلك يضع الحسينى المربين والعلماء والصناع والزراع والتجار فى مرتبة لا تقل أهمية عن مرتبة الأدباء والكتاب والمفكرين فى معركة القومية العربية · ولا يزال ميدان العمل فسيحا أمام هؤلاء المكافحين ليقف الشعب العربى على قدم المساواة مع الشعوب المتحضرة · واذا كان من الطبيعى أن نبدأ النهضة بأفراد فمن الضرورى أن تعم النهضة الشعوب حتى تصبح خليقة بالحرية والاستقلال · والاستقلال السياسى لا قيمة له ان لم يسند باستقلال اقتصادى وفكرى وحركة عمران شاملة بناءة ·

٢٠ ـ ساطع الحصرى « سوريا »

يعد ساطع الحصرى من أبرز رواد الفكر القومى العربى بما قدمه من دراسات مستفيضة وكتب تسعى لايجاد نظريـــة متكاملـــة فى القومية العربية ٠ أما تحديد مجالات اهتماماته الأخرى فأمر يصعب القيام بـه بطريقة جامعة مانعة ٠ فهو من أبرز المفكرين العرب وأكثرهم تدوينـــا لدراساته وبحوثه وآرائه والأحداث والمواقف التى مر بها ٠ وكانت مقالاته ومؤلفاته حتى عام ١٩١٨ باللغة التركية التى تعلمها فى ظـل الدولـة العثمانية ٠ وفى الفترة ما بين عامى ١٩١٩ و ١٩٤١ نشر مقالات وأبحاث فى مختلف الصحف والمجلات وخاصة تلك التى تهتم بقضايا التربيـــة والتعليم وتصدر فى بيروت ودمشق وبغداد ٠ وبعد عدة سنوات جمع معظم مقالاته ومحاضراته التى نشرت فى فترات متباعدة مضـــيفا اليها بعض فصول فى كتب قاربت الخمسين كتابا وعالجت مختلف القضايا التاريخية والتربوية والاجتماعية والأدبية ٠ وبرغم تعدد القضايا التى ألم بها ، فانها كلها تدور فى فلك نظريته التى كرس حياته من أجلها وهى الدعوة للقومية العربية ٠

ومن هنا كانت أهم مؤلفاته وأكثرها رواجا وتأثيرا هى التى تناولت قضايا القومية العربية بشكل محدد ومباشر وصدرت فى الفترة ما بين عامى ١٩٤٤ و ١٩٦٣ على النحو التالى : « آراء وأحاديث فى الوطنيـــة والقومية » ١٩٤٤ ، و « محاضرات فى نشوء الفكرة القومية » ١٩٥١ ، و « آراء وأحاديث فى القومية العربية » ١٩٥١ ، و « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » ١٩٥٢ ، و « العروبة أولا » ١٩٥٥ ، و « دفاع عن العروبة » ١٩٥٦ ، و « ما هى القومية » ١٩٥٩ ، و « حول القومية العربية » ١٩٦١ و « الاقليمية : جذورها وبذورها » ١٩٦٣ ٠ وفى عام ١٩٦٤ أصدر فى

القاهرة « أبحاث مختارة فى القومية العربية » وهى عبارة عن مختارات من كتبه السابق ذكرها ·

وتنقسم مؤلفاته فى القومية الى فرعين طويلين : النظرية القومية بصفة عامة ، والقومية العربية بصفة خاصة · والفرع الأول يشتمل على نظرية متبلورة فى مفهوم الأمة ونظرية قومية فى الانسان ، ونقدا للاتجاهات والنظريات المضادة للقومية ، وتحليل للأمثلة الاستثنائية ، ومسح عام لتاريخ أوروبا والعالم من منظور الحركات القومية بصفتها تطبيقا عمليا للنظرية القومية · والفرع الثانى يشمل دفاع الحصرى عن القومية العربية فى مواجهة خصومها على أساس من النظرية القومية الشاملة ، ومن محصلة دفاعه تتبلور فى النهاية نظرية محددة فى مسيرة التاريخ العربى وقضايا الوضع العربى الراهن واحتمالات المستقبل العربى ·

وكان المنهج العلمى الدقيق هو الضوء الذى سار الحصرى على هديه فى كل مؤلفاته القومية · فعلى الرغم من أن مضمونها يغرى بالحماسة والانفعال والأحاسيس الجياشة ، فانه التزم الجانب العقلانى المنطقى الذى يصمد عادة لاختبار الزمن ، ولم يحاول فرض قالب معين على مفهوم القومية بل حرص على أن تكون نظريته مرنة بحيث تسمح لاجتهادات الآخرين كى يضيفوا اليها · وخاصة أن طبيعة الحياة الديناميكية تتنافى مع الثبات الذى تفرضه القوالب الجامدة · فمثلا فى كتابه « حول الوحدة الثقافية العربية » ١٩٥٩ يبلور العناصر الديناميكية فى ثقافة الأمة العربية ويطلب أن يكون شعارنا فى هذا الصدد : « الوحدة فى الأساس ، والتنوع فى الفروع » · أى أن الوحدة ليست كما يظن البعض ، قالبا جامدا يتنافى مع التنوع ، فاذا كانت الوحدة تمنح التنوع شخصيته المتميزة ، فان التنوع يمنحها الثراء والخصوبة والمرونة والتطور ·

نجد المنهج العلمى نفسه فى التفريق الذى يضعه الحصرى بين مفهوم الوطنية ومفهوم القومية · يقول فى كتابه « آراء وأحاديث فى القومية العربية » :

« ان الوطنية هى حب الوطن ، والقومية هى حب الأمة ، ولما كان الوطن هو قطعة من الأرض ، والأمة جماعة من البشر ، فان الوطنية هى ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم « الوطن » و « القومية » هى ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم « الأمة » ، وحب الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين الذين ينتمون الى ذلك الوطن ، كما أن حب الأمة يتضمن فى الوقت نفسه ، حب الأرض التى تعيش عليها تلك الأمة » ·

وبذلك يحسم ساطع الحصرى الحيرة العربية التقليدية بين الوطنية والقومية ، ان انتماء المواطن العربى الى أرض معينة فى مساحة العـالم العربى المترامية الأطراف ، لا يتنافى مع انتمائه الى هـذا العـالم الكبير . فالجزء لا ينفصل عن الكل ولا يتعارض معه . والكل ليس سوى الأجزاء مجتمعة أو متجمعة بطريقة أو بأخرى ، والعبرة بالكيفية التى تتجمع بها هذه الأجزاء بحيث تتضاءل احتمالات الاحتكاك والصراع الى أقل درجـة ممكنة ، هذا اذا لم يكن فى الامكان القضاء عليها تماما . والشخصية المميزة لكل جزء على حدة هى التى تتفاعل فى ايجابية مع الأجزاء الأخرى كى تكون فى النهاية الشخصية المتميزة للأمة العربية كلها .

وقد لعبت اللغة العربية دورا فى تحديد الشخصية القومية المتميزة . قل أن نجد له نظيرا فى القوميات الأخرى التى نهض كيانها على اللغة الواحدة بصفتها أعظم عناصر التآلف القومى . يقول الحصرى فى كتابه « محاضرات فى نشوء الفكرة القومية » :

« ان اللغة هى أهم الروابط المعنوية التى تربط الفرد البشرى بغيره من الناس ، لأن اللغة هى أولا واسطة التفاهم بين الناس ، وثانيا آلـة التفكير عند الفرد ؛ وثالثا واسطة نقل الأفكار والمكتسبات من الآباء الى الأبناء ، ومن الأسلاف الى الأخلاف ، ولهذا نجد أن وحدة اللغة العربية توجد نوعا من الوحدة والتشابه فى الشعور والتفكير ، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية ، وتكون أقـوى الروابط التى تربط الأفراد بالجماعات . وبما أن اللغات تختلف من قوم الى قوم فمن الطبيعى أن مجموع الأفراد الذين يشتركون فى اللغة يتقاربون ويتماثلون أكثر من غيرهم ، فيؤلفون بذلك أمة متميزة عن الأمم الأخرى » .

لكن العرب حولوا هذه النعمة الى نقمة من خلال الحملات الاعلامية التى تجعل من اللغة المشتركة حمما نارية تتقاذفها الاذاعات والصحف ، والنتيجة أن الخسارة تصيب جميع الأطراف المعنية أو المتصارعة على وجه الدقة . لقد تحولت اللغة العربية الى أداة للانفصال بين أجزاء الأمة العربية بدلا من أن تصبح أداة للاتصال كما كانت من قبل على مر عصور التاريخ العربى .

ويلى اللغـة فى الأهمية التاريخ الذى يعرفه الحصرى بأنه شعور الأمة وذاكرتها ، واذا ما نسيت أمة تاريخها ، فانها تخسر شعورها ووعيها بذاتها . ولن تستعيد وعيها القومى الا بالعودة الى تاريخها . وميز الحصرى بين التاريخ كوقائع وأحداث وبين التاريخ الحى فى النفوس والعقول . والنوع الثانى هو الذى تتذكره الأمة لانه يجسد نبض الجماهير وشخصيتها

القومية . واذا كان التاريخ المشترك عنصر حيوى فى الوحدة القومية فانه لا يعنى بالضرورة الوحدة التاريخية الشاملة لمجموع الأمة فى جميع أدوار التاريخ ، وانما الوحدة النسبية والغالبية التى تتجلى فى أهم صفحات التاريخ . ومن هنا كانت ضرورة نسيان أو تجاهل أو عدم التركيز على قسم من أحداث التاريخ ومواقفه التى لا تشترك فيها أجزاء الأمة جميعا ، لأنها قد تكون مثار فرقة وتجزئة . فنحن لسنا سجناء ماضينا ، الا اذا أردنا ذلك . وعلى كل أمة أن تنسى جزءا من تاريخها ، ولا تتذكر منه الا ما تجد فيه نفعا لها .

وتبدو نظرة الحصرى الى ماضى الأمة العربية نظرة علمية موضوعية تهدف الى التخلص من سلبياته والتأكيد على ايجابيـاته دونمـا عقـد أو حساسيات . فالقضية هى قضية المستقبل وليست قضية الماضى بأية حال من الأحوال . واذا كان المستقبل امتدادا طبيعيا للماضى فان ارادة الانسان العربى لا بد أن تتدخل لتشكيله واعادة صياغته لصالح الأمة العربية ، وخاصة بعد أن تحررت هذه الارادة من السيطرة العثمانية ثم البريطانية والفرنسية . وهى السيطرة التى شكلت الماضى العربى الى حد كبير .

ويرى ساطع الحصرى أن التخلف الحضارى الذى أصاب العرب كان نتيجة مباشرة للمعاهد التعليمية التى أقيمت فى مختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية حتى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فهى على حد قوله فى « حولية الثقافة العربية ــ السنة الأولى ١٩٤٩ » :

« انها لم تساير روح العصر ، بل بعكس ذلك تقهقرت الى الوراء خلال القرون الأخيرة لأنها تجردت ــ بالتدريج ــ عن جميع العلوم العقلية ، وصارت تكاد لا تهتم بشيء غير العلوم النقلية » .

ولا يعنى كلام الحصرى هنا سوى أن العقل العربى توقف عن الابتكار والابداع فى ذلك الماضى القريب بعد أن اقتصرت وظيفته على النقـــل والتكرار . وهذه أخطر آفة يمكن أن تصاب بها أمة من الأمم . يضاف الى ذلك أن ندرة الكتب كانت من العوامل التى ساعدت على تأخير التطور الثقافى ، واضعاف وحدة الفكر بين البلاد العربية . كما عانت اللغـــة العربية الأمرين من محاولات « التتريك » التى قامت بها الامبراطورية العثمانية لاحلال اللغة التركية محل العربية ، ثم من المحاولات التى قامت بها ــ بعد ذلك ــ كل من بريطانيا وفرنسا عندما اقتسمتا الأمة العربيـة مع انهيار الامبراطورية العثمانية .

هذا عن الماضى القريب أما عن الماضى البعيد فيضرب الحصرى المثل بالحضارة الفرعونية ، فيقول ان عظمة هذه الحضارة لا جدال فيها ، ومع

ذلك لا يمكن أن تخرج عن نطاق الماضي • ان أية حضارة انسانية هي ابنة شرعية لعصرها ولا يمكن لأى عصر آخر أن يتبناها • صحيح أنه يمكن الاستفادة من الدروس المستخلصة منها ، لكنه يستحيل استعادتها برمتها كما هي لأنها أصبحت تاريخا ، والتاريخ لا يعيد نفسه والا دارت الانسانية كلها في دائرة مفرغة من التكرار والاعادة وانعدام المعنى • لذلـــك فان المصريين الآن هم أبناء عصرهم ، أى أبناء الحضارة العربية التى يستظلون بمقوماتها والتى تكيف سلوكهم • ومصر الآن بروحها وثقافتها عربية : أى تمثل الطابع العربى فى العصر الحديث • يقول الحـــصرى فى كتابه « العروبة أولا » :

« لنا أن نفخر بهذا الجزء من التاريخ المصرى ، ولكننا لا نستطيع أن نعود فى حياتنا وفى تفكيرنا وفى اتجاهنا الى المستقبل الى أى عصر من العصور سوى العصر الذى نعيش فيه الآن » •

هكذا كانت عين الحصرى وفكره دائما على المستقبل العربى • وهذه النظرة المستقبلية الرائدة هى التى يتحلى بها الآن كل مفكرى الحضـــارة العالمية المعاصرة • فقد أصبح المستقبل علما علينا أن ندرس كل تفريعاته بموضوعية وأناة من أجل مستقبلنا فى عالم لا يعترف الآن الا بالمستقبل ، أما حساسيات الماضى وعقده فيلقى بها جانبا حتى لا تعوق تقدمه دون مبرر • لذلك يرى الحصرى أن اقامة الكيان العربى المستقل المتميز القوى المتحد لا يعنى فقط جمع القوى المبعثرة فى مختلف أنحاء الوطن العربى ، بل معناه أن هذا الكيان كفيل بأن يخلق حياة جديدة ، وأوضاع جديدة ، تولد قوى فاعلة جديدة ، تفوق مجموع القوى المبعثرة المتفرقة فى الوقت الحاضر • فكما أن الحياة الاجتماعية لا تعنى جمع فرد الى فرد بعملية حسابية بسيطة كما تجمع الكميات آحادا أو كسورا أو أصفارا ، بل تعنى حصول تفاعل بين مجموعة من الأفراد ، تفاعل حيوى خلاق ، يؤدى الى تكوين « كائن اجتماعى والى توليد قوى جديدة تختلف عما كان للأفراد من قوى على انفراد • كذلك الحال فى اتحاد الشعوب والدول أيضا ، فاتحاد الشعوب المكونة لأمة واحدة بهدف اقامة وحدة أو اتحاد لا يكون بمثابة ضم عدد الى أعداد بصورة حسابية ، ولا ربط شىء بطريقة ميكانيكية، ولا ضم مساحة الى مساحات بصورة هندسية ، وانما يكون بمثابة خلق كائن جديد وعضوية جديدة تصبح فيه الشعوب المتحدة بمثابة الأعضاء فى البدن الواحد • عضوية اجتماعية تنبض فيها حياة جديدة ، ويصدر عنها قوى وأفعال جديدة •

ومن أقوال الحصرى ذات المغزى الخطير فى مفهوم الوحدة العضوية المتفاعلة تعليقه على نتائج حرب فلسطين عام ١٩٤٨ حين قال :

« سألنى بعض الشباب كيف خسر العرب معركة فلسطين ضد اسرائيل مع أنهم كانوا سبع دول .. ولكننى أجبت على هذا السؤال : لا يجوز أن يقال ان العرب خسروا معركة فلسطين مع أنهم كانوا سبع دول ، بل يجب أن يقال : ان العرب خسروا معركة فلسطين لأنهم كانوا سبع دول » .

وكان ساطع الحصرى دائم الاستشهاد بنماذج التاريخ المتعددة للتدليل على منهجه التاريخى . فهو يؤمن بأن التاريخ الانسانى يملك فى جوهره منطقا متماسكا يعتمد فى تفاعله الداخلى على مبدأ السبب والنتيجة، ويستشهد بالوحدة الألمانية على أساس أنها لم تكن تعنى جمع قوى الدويلات الألمانية بعضها الى بعض فحسب ، بل انها أوجدت دولة جديدة ذات أوضاع جديدة وقوى جديدة بمعنى الكلمة . كذلك لم يكن اتحاد الولايات الأمريكية يعنى جمع القوى المبعثرة فى انحاء القارة الأمريكية ، بل كان معناه مولد قومية فاعلة جديدة ، ودولة كبرى تفوق مجموع قوى الولايات المتفرقة . فالوحدة ــ فى نظر الحصرى ــ ليست مجرد تجميع للقوى والطاقات ولكنها توليد جديد لها عن طريق تحويل الجمود أو الاستاتيكية أو التنافر بينها الى تفاعل وتجاوب يؤديان الى نتائج جديدة تماما .

من هنا كان مفهوم ساطع الحصرى للوحدة العربية ينهض على الكيف قبل أن يهتم بالكيف . فالوحدة العربية ليست شعارا جميلا براقا بل تعنى بالفعل الاستقلال السياسى ، والتقدم الاقتصادى ، والتطور الاجتماعى . وبذلك تعبر الوحدة عن فكرة القومية العربية فى الوقت الحالى . وهى فكرة حضارية شاملة ترفض منهج القوميات العدوانية التى تؤمن بالغرور القومى ، وتعتقد فى وجود أجناس مختارة من حقها أن تسود العالم وتتحكم فى مصائره .

والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المؤدية الى الوحدة القومية لا تعتمد أساسا على المنافع المادية والمصالح الاقتصادية المتبادلة . فالانتماء القومى ــ فى نظر الحصرى ــ مرتبة انسانية أرقى من ذلك بكثير . لذلك يقول :

« الأحاسيس الوطنية والقومية لا ترتبط بالمنافع والمصالح المادية الاقتصادية . انها من النوازع والعواطف التى تسمو على الحسابات النفعية . انها تشبه حب الأطفال لأمهاتهم ، وحب الأمهات لأطفالهم . انها لا تخضع لدواعى المنفعة والمصلحة . ولو عمل الناس فى كل شىء بسائق المنفعة ، دون أن يلتفتوا الى الأمور المعنوية والعاطفية .. لتفككت جميع

الروابط الاجتماعية ، من العائلة الى القومية ، ولانحطت البشرية الى مرتبة البهائم ، بل الى مرتبة أحط منها • كلنا نعلم أن النوازع الوطنية والقومية ، تدفع الناس — فى بعض الأحوال — الى تضحية النفس • فمن الطبيعى — بل من الأولى — أن تدفعهم الى تضحية المصالح الاقتصادية عند الاقتضاء »•

ويذكر الحصرى شواهد تاريخية عديدة تـدل على أن العامـل الاقتصادى لم يكن السبب فعلا فى اقامة الكيانات القومية ، وان كان يعترف بدوره كعامل مساعد فى القيام بهذه المهمة القومية • ذلك أن نظرية الحصرى فى القومية العربية تمتاز — كما قلنا — بالمرونة والديناميكية ، ولا تخضع لقالب أصم جامد • فهو يرى أن النظرة النسبية مفيدة — الى حد ما — فى استيعابنا لعناصر التاريخ الذى يؤكد لنا من حيث المبدأ أن القومية هى السمة الطبيعيـة العريقـة والبارزة للانسـان والمجتمعات الانسانية • فهى تقوم على تمايز الانسان عن الحيـوان بالنطق واللغة والاتصال والتواصل والتآلف • ولذلك فالنزعة القومية نزعـة غريزيـة سامية •

وقد حكمت الفكرة القومية التاريخ منذ أوائل القرن التاسع عشر • وما تاريخ أوروبا فى القرن الماضى وأوائل الحالى الا تاريخ انتصار الفكرة القومية التى تحكم الآن تاريخ الشرق ، وليس من فرق جوهرى بين الشرق والغرب • لدرجة أن الصراع الأساسى فى الوطن العربى هو صراع فى حقيقتـه بين القوميـة والاقليميـة • ويؤمن الحصرى بأنه صراع سينتهى بانتصار القومية والوحدة العربية لحتمية تاريخية سوف تضع العرب أمام أحد اختيارين : اما أن يتحدوا أو يندثروا • ويحـدد الحصرى مفهومه لوحدة التاريخ فيقول فى كتابه « آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية » :

« عندما نقول وحدة التاريخ يجب أن لا نفهم من ذلك الوحـدة التامة فى جميع أدوار التاريخ ، بل يجب أن نفهم من ذلك الوحدة النسبية والغالبة التى تتجلى فى أهم صفحات التاريخ التى أوجدت ثقافة الأمـة الأساسية ، وأعطتها لغتها الحالية ، وطبعتها بطابعها الخاص • والا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة كانت موحدة على طول تاريخها توحيدا تاما »•

ويرفض الحصرى نظرية الأصل المشترك أو الوحدة العرقية للأمـة لأن ذلك مناف للحقيقة العلمية والتاريخية ، فليست هناك أمة تستطيع أن تدعى النقاء العرقى مثلما يفعل من يؤمنون بما يسمى العرق الآرى أو العرق السامى مثلا • كذلك يخالف الحصرى نظرية المشيئة التى تنادى بأن الكيان القومى لأية أمة نتيجة مباشرة لارادة الجماعة فى تكوين هذه الأمة • فالمشيئة فى رأيه ليست سببا وانما نتيجة مترتبة على القوميـة

ذاتها ٠ فمثلا لم يستطع أهالى الجنوب فى الولايات المتحدة أن يكونوا دولة رغم ارادتهم ٠ واذا كان أهالى سويسرا أو بلجيكا قد كونوا دولة بارادتهم فان الدافع لديهم لم يكن قوميا ، كما انهم لم يقيموا قومية بمعنى الكلمة بعد اتحادهم ٠

ويحبذ الحصرى نوعا علمانيا من القومية العربية ، بعيدا كل البعد عن الدين ، وهو يستند فى موقفه هذا الى طبيعة الاسلام التى تشدد على القيم الكلية الشاملة لا على الاتجاهات العنصرية ، والى تجارب العرب التاريخية التى أيقظت فيهم الوعى القومى ، ثم الى وجود مسيحيين عرب تربطهم بالعرب الآخرين روابط اللغة والتاريخ ٠ وهو يعكس بقوة ووضوح نظرية ابن خلدون فى العلاقة بين الدين والعصبة ٠ فالدين لا يمكنه فى حد ذاته أن يكون جماعة سياسية بل بوسعه فقط أن يقوى الجماعة التى تكونت ونشأت عن تضامن طبيعى ٠ والعرب لا يشكلون جوهريا أمة اسلامية لأنهم يبقون عربا حتى لو لم يبقوا مسلمين ٠ وعلى هـــذا فالمسيحيون الناطقون بالضاد عرب كالمسلمين ، وبالمعنى ذاته بالضبط ٠ ويمكنهم أن يكونوا عربا بدون أن يتخلوا عن أى شىء من تراثهم الدينى ٠

ودفاعا عن هذه المفاهيم القومية خاض الحصرى معاركا فكرية مع بعض المفكرين العرب ، فمثلا عارض دعاة الوحدة الاسلامية الذين يرفضون الوحدة العربية ويرون أن ولاء العرب السياسى هو للأمة الاسلامية جمعاء ، أكانت لغتها العربية أم سواها ، ثم كان هجومه العلمى الكاسح على دعاة الاقليمية الذين ينادون بأمم متميزة داخل العالم العربى ، مثل القومية السورية التى دعا ليها أنطون سعادة ، والقومية المصرية التى دعا اليهـا لطفى السيد وطه حسين ٠ كما رفض تعبير الشرق والشرقيين لأنه تعبير غامض غير علمى ٠

وتبدو ريادة الحصرى واضحة فى دفاعه عن عروبة مصر فى وقت كان فيه القوميون العرب من أبناء جيله يعتقدون أن الأمة العربية تنتهى عند صحراء سيناء ٠ فأراد الحصرى أن يؤكد دور مصر فى نهضة العرب القومية فكتب فى عام ١٩٣٦ :

« لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليهـا أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى انهاض القومية العربية ٠ لأنها تقع فى مركز البلاد العربية ، بين القسمين : الأفريقى والأسيوى منها ، كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم اليها العـــالم العربى بحكم السياسة والظروف ٠ وهذه الكتلة قد أخذت حظا أوفـر من غيرهـا من الحضارة العالمية الحديثة وأصبحت أهم مركز من مراكز الثقافة فى البلاد

العربية • وهى أغنى هذه البلاد بأجمعها • كما أنها أقدمها فى تشكيلات الدولة العصرية وأقواها فى الآداب وأرقاها فى الفصاحة » •

وبرغم كل الهجمات والسلبيات والثغرات التى وجدها الحصرى فى الفكر العربى بصفة عامة ، فان ايمانه بالقومية والوحدة العربية لم يهتز • وكان يرى أن كل الاحباطات والآلام والمحن والكوارث والنكسات والهزائم التى يمر بها العالم العربى فى تاريخه الحديث ، ليست سوى آلام المخاض الطويل الذى سيعقبه ميلاد الأمة العربية المتحدة • ولذلـــك فالمتشائمون الذين سرعان ما يفقدون الأمل هم فى نظر الحصرى مجرد يائسين عاجزين عن التفكير العلمى السليم ، وعن استشراف آفاق المستقبل وسط ركام الأطلال والخرائب التى نتجت عن كل أنواع الاستعمار التى مرت بها الأمة العربية • لذلك لم يأبه بتشاؤم المتشائمين أو يأس القانطين ، فكتب يقول فى عام ١٩٤٧ :

« وأما الذين يستسلمون الى القنوط والتشاؤم من كثرة المشاكل والمساوىء التى يلحظونها ، فانى أدعوهم الى التوسع والتعمق فى درس تواريخ النهضات القومية الحديثة ، لأنى أجد فيها أحسن الأدوية الشافية من داء التشاؤم والقنوط ، وأقوى المؤشرات الموقظة للايمان القومى » •

وما قاله الحصرى فى عام ١٩٤٧ لا ينطبق على أوضاع الأمة العربية مثلما ينطبق عليها الآن ونحن فى الثمانينيات • ولذلك يبدو فكر الحصرى نورا هاديا لكل العرب المخلصين وسط هذا الكابوس الزاخـر بالظـلام والتمزق والصراع • نجده يقول :

« لا شك فى أن سبيل النهضة والوحدة محفوفـة بأنواع المشـاكل والعقبات • ولا شك فى أن الموانع التى يجب علينا أن نقتحمها قبل أن نصل الى غايتنا المنشودة كثيرة وكبيرة جدا ، غير أن هذه المشاكل مهما كانت عويصة ، وهذه العقبات مهما كانت عظيمة ، يجب ألا تثنينا عن عزمنا ، وألا تزعزع ايماننا •• ولا يجوز لنا أن نرتاع من كثرة المشاكل ، وأن نفزع من هول العقبات ، بل يجب علينا أن نؤمن ايمانا راسخا بأن تلك المشاكل والعقبات ستتلاشى أمام نهضتنا القومية ، وستزول أمام حقنا فى الوحدة والحياة » •

ويضيق بنا المجال كى نتعرض لكل الانجازات الفكرية الضخمة لهذا الرائد العربى القومى الكبير • ولذلك كان من الضرورى توافر الدارسين والمفكرين على مؤلفاته الغزيرة والخصبة لأنها تشكل مصدر الهام لا ينضب لكل من يعمل من أجل المستقبل العربى المرجو •

٢١ ـ توفيق الحكيم « مصر »

لعله لا يوجد مفكر عربى كبير تميز موقفه تجاه القومية العربيـة بالتناقض والحيرة والتردد مثل توفيق الحكيم ٠ فعلى مدى خمسين عاما وأكثر كان يطلع على العالم العربى بالرأى المؤمن بالقومية العربية ثم يعقبه بالرأى المناقض له تماما والمنادى بالاقليمية الانعزالية البحتة ٠ وعلى الرغم من تأكيد الحكيم – فى مناسبات عدة – على اتجاهه الفرعـونى البحت ، فان محاولاته لارتداء ثوب الفكر القومى العربى ، أكبر دليل عملى على رسوخ القومية العربية وقدرتها على جذب كل المفكرين العرب الى فلكها ، حتى أكثرهم مقاومة لها مثل توفيق الحكيم ٠ فهو على الأقل لم يستطع تجاهلها ، ووجد نفسه مرغما – فى أحيان كثيرة – على تحديد موقفه الفكرى منها سواء بالسلب أو بالايجاب ٠ لذلك يعد توفيق الحكيم من مفكرى القومية العربية سواء شاء أم أبى ، اذ أن هذه القومية أكبر من أن يحكم عليها كاتب بالوجود أو العدم ، مهما علت مكانة هذا الكاتب ٠ فاذا كان قد قال فى كتابه « تحت شمس الفكر » ١٩٣٨ « ان مصر والعرب طرفا نقيض » فانه يقول فى كتاب « رحلة بين عصرين » ١٩٧٢ : « اذا كنت أغضب تلقائيا لما يمس أى شعب عربى ، فمعنى هذا أنه لا بد أن يكون هناك شىء مشترك » ٠ بل انه يقول فى مقـال له نشر فى « الأهرام » بتاريخ أول فبراير ١٩٨٠ بعنوان « مائة جنيه للعروبة » :

« منذ أن تأكد عندى أن العروبة الحقيقية تقوم على الثقافة وليس على السياسة شغلنى هذا الموضوع ٠ وسبب التأكد عندى التجربة الحية ٠ فقد سبق أن ذكرت أن الخصومات السياسية امتدت الى رجال الفكر الى حد أن قيل أن حياتنا نحن الأدباء مهددة اذا ظفر بنا العرب المخاصمون ، ونصحنى الناصحون بعدم السفر خارج بلدى محافظـة على حياتى ٠٠ وراجعت نفسى قائلا : وما قيمة حياتى اليوم وفى مثل سنى ووحدتى ؟ ان

حياتي اليوم لا تساوى المحافظة عليها · وسافرت متحديا الموت · فماذا وجدت ؟

وجدت فى كل مكان اخوة من الدول المخاصمة الرافضة يقابلوننى بالأحضان · وكأنهم لم يسمعوا بأى خصـــومة قائمـة بين بعض الدول العربية والبعض · كل ما عرفوه واتفقوا عليه وتحادثنا فيه هو انتاجنا الثقافى وتراثنا المشترك فى ماضينا وحاضرنا ·· اذن العروبة حقيقـــة واقعة ، لأنها داخل قلوبنا وعقولنا وليست موقفا خارجيـــا ولا شعارات حماسية ·· وكتبت فى مقال سابق متمنيا أن تقوم جامعـــة عربية على الأساس الثقافى لأن هذا الأساس هو الثابت فى أعماقنا والأبقى ·

ولا يكفى أن يكون هذا الأساس مجرد فراغ أو ادارة تلحق بذيل السياسة لأنى أخشى السياسة بطبيعتها المتغيرة · فهى اذا دخلت الهيكل المقدس للثقافة فسوف تلون نوره الدائم بلونها المتغير ·· أريد للثقافة وجودا ذاتيا وشخصية مستقلة · تلك التى جمعت بينى وبين دول عربية مختلفة سياسيا ومتحدة ثقافيا · فالسياسة تفرق والثقافة توحد · وعندما فرقت بيننا السياسة اقترحت الحياد السياسى لنا ولغيرنا لاعطاء كـل دولة شقيقة حرية التصرف فيما يناسب مصلحتها السياسية وتبقى بعد ذلك الثقافة نورا للجميع · وهى التى تمثل العروبة الواحدة المتحدة · وهو ما لمسته حقيقة واقعة فيمن قابلته وقابلنى من أبناء الدول العربيـة الشقيقة التى رفضتنا سياسيا وخاصمتنا ·· كان الذى يربطنا برباطه الوثيق عروبتنا المتجسـدة فى لغتنا العربيـة ، المعبـرة عن نتاج العقل والوجدان فى ماضينا المجيد المشرق وحاضرنا الواعـد بالمجد والاشراق ·· فلنحافظ اذن على سلامـة هيكلنا المضىء بثقافتنا ، ولنعمل على حمـايتـه باستقلال شخصيته لتبقى لنا عروبتنا الحقيقية سليمـــة · ولا نسمح لسياسى بدخول هذا الهيكل المقدس الا اذا خلع نعليه من سياسة التفريق، وجاء بالزيت الطاهر يزيد ثقافة العروبة تألقا ·· وليت لمثلى من الزيت ما ينفع فى تألق ثقافتنا · فاحتياجاتنا كثيرة كبيرة اذ لا بـــد للعروبة الحقيقية من دائرة معارف بلغتها واسعة شاملة لكل معارف العرب فى حضارتهم على مر العصور الماضية حتى عصرنا الذى نعيش فيه ، بكـل ما وصل اليه نشاط الانسان العقلى والوجدانى فى جميع فروع المعرفـة وهى مذهلة فى عمقها وتنوعها ، حتى تضاهى دائرة معارفنا العربية أعظم وأشمل ما فى دوائر معارف اللغات الأخرى عند أقوى الدول وأعظمهـا حضارة ·· وليس هذا بعزيز على دولنا العربية التى حباها الله اليوم بالثروات الطبيعية والخير العميم ·· والى جانب دائرة المعارف لا بـد أيضا من جمع ونشر تراثنا العربى المشترك فى ماضى لغتنا وحاضرها مع

كل انتاج قيم لثقافات الأمم الأخرى في ترجمات جديدة نثرى بها لغتنا العربية وحضارتنا المعاصرة ·· وحبذا لو أنشىء صندوق تغذيه تبرعات المتحمسين للعروبة الحقيقية ، ويكون نواة للجامعة العربية الثقافية ، في يوم من الأيام · ولا بأس من قبول تبرعات الدول بشرط عدم اتخاذ هذا التبرع ذريعة للنفوذ السياسي ·· وحتى لا يكون اقتراحي هذا مجرد كلام يلقى في مقال فاني أبدأ بالتبرع منذ الآن لهذا الصندوق بمبلغ مائة جنيه · هو كل ما أستطيع دفعه · وهو مبلغ لم يسبق أن تبرعت بمثله طول حياتي ·· ولكن تبقى المشكلة : لمن أسلم الآن هذا المبلغ ؟ ·· أشيروا على » ·

لقد أردنا أن نستشهد بمقال الحكيم كله لكي يكون بمثابة شهادة على الجانب القومي الايجابي في فكره · وخاصة أن هذا الجانب القومي ليس طارئا على فكره بل من السهل تتبع بداياته وخطواته في كتابات الحكيم · ففي كتابه « تحت شمس الفكر » ١٩٣٨ يناقش قضية الوحدة العربية ويوضح أنه على الرغم من رغبته في تكوين شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من الأمم العربية والشرقية ، فان دول الغرب تنظر الينا بصفتنا كتلة واحدة ، وهذه النظرة يجب أن نحافظ عليها · فاذا كانت الدول الأوروبية – عندما استشعرت خطر الحروب التي يمكن أن تدمر الحضارة الغربية – أقامت المؤتمرات ودعت كبار مفكريها ليدرءوا الاخطار التي تهدد هذا الروح الأوروبي ·· ونحن الشرقيون لنا – من غير شك كذلك – ما نستطيع أن نسميه الروح الشرقي · يقول الحكيم :

« ان طابعنا الفكري ، وطريقة نظرنا الى الأشياء ، وتقاليدنا واحساسنا بالجمال الذهني ، ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة · وأسلوبنا في التعبير عن حقائق الأشياء ؛ كل ذلك ينم عن عقلية خاصة ، وعبقرية مستقلة ، لا ينبغي أن تتحلل وتتزايل تحت طغيان موجة أقوى ! ·· فاذا نادينا بالوحدة العربية فانما ذلك لتدعم كتلة « الروح الشرقي » أمام كتلة « الروح الغربي » ! » ·

وعندما يتكلم الحكيم عن احياء الثقافة العربية القديمة ، لا يقصد اعادتها الى الوجود بعينها وحالتها وكميتها ، بل يقصد احياء المجد الغابر والمكانة والازدهار الذي لفت الأنظار الى الثقافة العربية القديمة في عصرها· ويرى الحكيم أن هذا أمر ممكن لو عملنا واجتهدنا في سبيل احداث نهضة ثقافية ، يشعر بهزتها العالم المتحضر · ووسائلنا في هذا ، هضم كل ثقافة موجودة قديمة أو حديثة واخراج ثقافة جديدة تنم عن روحنا وشخصيتنا الشرقية ، تستطيع أن تقف جنبا الى جنب مع الثقافتين العظيمتين

الحاضرتين : اللاتينية والأنجلوساكسونية · ويهيب الحكيم بالرأى العام فى الشرق العربى الحديث لكى يمهد الطريق للقيام بحركة ترجمة عظيمة واسعة ، ولننفق فى هذا السبيل الأموال ، فان ربحنا سيكون عظيما ، وسنشترى بهذا حياة لغتنا العربية ، وسنضع بهذا كل أساس نهضتنا الفكرية التى قد يسجلها التاريخ كنهضة للفكر الشرقى ، لا تقل فى أهميتها عن نهضة الفكر الغربى التى ختمت القرون الوسطى · ويبدو اصرار الحكيم على أصالة الشخصية العربية عندما يقول :

« أحب أن أقول لأدباء العربية الحديثة : لاتخشوا مطلقا من الباس أفكاركم الأثواب الأوربية ، على شرط أن يكون طابع هذه الأفكار وروحها شرقيا محضا ، وأن يحس القارىء الأوربى ازاء أعمالكم أنه أمام نفس غير نفسه ، وشخصية غير شخصيته ، وان كان الرداء ليس غريبا عليه ، لأن الرداء ليس ملكا لأحد : انه ملك الحضارة ، والحضارة وليدة الحضارات التى سبقتها ! » ·

هذا ما قاله الحكيم فى عام ١٩٣٨ فى كتابه « تحت شمس الفكر » ، أما فى عام ١٩٤٩ فقد أراد أن يسافر الى فرنسا ، لكن القنصل الفرنسى رفض منحه تأشيرة الدخول قائلا له :

« أنت فى عام ١٩٤٣ كتبت مقالا عنيفا ضد فرنسا بعنوان « خيبة أمل » قلت فيه أن أملك قد خاب فى فرنسا التى تطأ بأقدامها استقلال شعب صغير » ·

وكان القنصل الفرنسى يقصد مقالا للحكيم كتبه على أثر اعتداء السلطة الفرنسية فى بيروت على كرامة لبنان واعتقالها يومئذ رئيس جمهوريته ووزرائه ونوابه ! ·· وعندما دافع الحكيم عن موقفه القومى لم يلتفت القنصل الى كلامه بل استمر فى تقليب صفحات الملف الذى أمامه وقال ان الحكيم أهان فرنسا برد نيشان فرنسى اليها كانت قد أهدته اليه بمناسبة ترجمة مؤلفاته الى الفرنسية عام ١٩٣٨ · وكان موقف الحكيم هذا نتيجة لاعتداء فرنسا على تونس ، وكانت مذابح وضحايا فتكونت فى مصر لجنة من الهلال الأحمر لتذهب الى تونس بالأدوية اللازمة للجرحى، واذا بالسلطات الفرنسية هناك ترفض دخول هذه اللجنة المكونة من أطباء مصريين يحملون الدواء · واعتبر الحكيم موقف فرنسا هذا بمثابة اعتداء على شقيقة لمصر ومن هنا كان هجومه على فرنسا ورفضه النيشان الذى

قدمته اليه كاحتجاج عملى على وحشيتها · ويعلق الحكيم على هذا الموقف فى مقال له بعنوان « العروبة بين الوحدة والحياد » نشر فى « الأهرام » بتاريخ ٢١ ابريل ١٩٧٨ فيقول : « واذا كنت أغضب تلقائيا لما يمس أى شعب عربى ، فمعنى هذا أنه لا بد أن يكون هناك شيء مشترك » ·

وعندما عقد مؤتمر الأدباء العرب فى القاهرة فى ديسمبر ١٩٥٧ واتخذ قضية القومية العربية موضوعا أساسيا له تدور حوله الأبحاث والدراسات والمناقشات ، قال الحكيم فى مجلة « الرسالة الجديدة » بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٩٥٧ : « ان الموضوع الرئيسى لمؤتمر الأدباء العرب القادم هو الأدب والقومية العربية وتوصيتى الوحيدة لهذا المؤتمر هو أن نتعمق الموضوع · وأن لا نقصر الحديث فى القومية العربية على وضعها السطحى فالمؤتمر مؤتمر فكرى يضم متخصصين فى شئون الأدب والفكر · لذلك أحب أن تبحث فكرة القومية العربية من جذورها بحيث تشمل روح التفكير العربى منذ القدم ، والطابع الذى يميزه عن التفكير الأوروبى مثلا· وهل نستطيع أن نجابه الدنيا اليوم قائلين : نحن العرب لنا تفكير عربى هو جزء من قوميتنا ؟ » ·

وفى مقال فى جريدة « الأخبار » ١٢ مايو ١٩٧٨ قال الحكيم ان الحياد لا يتنافى اطلاقا مع الوحدة العربية ، ومن يحاول تحريف كلامه هذا فانه يكون مدفوعا اما بسوء النية أو بعدم الفهم · وخاصة أن الحكيم يدرك جيدا أنه لا يكتب للمصريين فحسب بل لكل من يتكلمون العربية ، ذلك أن وطن الكاتب هو اللغة التى يكتب بها · ولذلك يأسف الحكيم لمحاولات تحريف آرائه ويتذكر بالفعل كتابا له يدرس فى مدرسة لدولة عربية شقيقة ، فيقول فى نفسه :

« ما الذى سوف يقع فى نفوس التلاميذ وما سوف يقوله لهم مدرسهم ؟ أسيقول لهم : « هذا المؤلف لهذا الكاتب الذى تحبونه لا يحبكم ويريد أن ينعزل ببلده عنكم ؟ » عندئذ قلت لنفسى : « يا ويلى من تحريف الآراء وانحراف المقاصد ؟ » ·

ثم يوجه كلامه الى كل العرب مؤمنا بأن الوحدة العربية بكل أبعادها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية هى أمل كل عربى مخلص متحضر · يقول :

« أما الرد على الحياد بأنه انعزال فهذا خطأ كبير وربما كان المسئول عنه الكلمة من الجهة القانونية ·· ذلك انى أقول وأردد وسأردد دائما

وافهموني جيدا أيها العرب في كل مكان : ان ارتباطنا الاقتصادى والثقافى يجب أن يزداد قوة ٠٠ وانه لهو يوم الحلم الجميل لنا جميعا ، يوم أن يتم التكامل الاقتصادى ، والتناسق الثقافى ، والتعاون الاجتماعى ٠٠ بيننا جميعا بما يحقق للعرب الأشقاء هذه الوحدة المثمرة ، وهـــذا الترابط الأخوى المفيد لنا كأمة لها مجد قديم ٠

اذا شكك أحد فى رأيى هذا أو انحرف به ، فالذنب ذنبه ، وليس ذنبى ولا ذنب رأيى ٠٠ وأشهد على ذلك ربى وبلدى والعـرب الأشقاء أجمعين » ٠

ولم يشأ الحكيم أن يعلن رأيه القومى على الأمة العربية فحسب ، بل أعلنه على العالم أجمع فى حوار أجرته معه صحيفـــة « لومـوند » الفرنسية فى يوليو ١٩٨٠ وفيه أكد حتمية الوحدة الفعلية بين العرب على المستوى الثقافى الذى يجعلهم متحدين دائما برغم تقلبات السياسة ٠ واذا كنا نختلف أحيانا من الناحية السياسية ، فان الجوهر واحد لأن اللغة واحدة ، والتاريخ واحد ، والمصير واحد ٠ أما السياسة ، فهى فى كل زمان ومكان تتغير ولكن الذى لا يتغير أبدا هو الأساس المشـــترك لثقافتنا ، لتقاليدنا ، لأصولنا ، ولحضارتنا ٠ ووضع مصر هــو أنها دائما دعامة الوحدة العربية الثقافية ٠

٢٢ ـ خيرى حماد « فلسطين »

خيرى حماد من المفكرين العرب القوميين الذين كرسوا حياتهم فى دراسة التطورات التى مرت بالقومية العربية ، والتحديات التى واجهتها ، والضغوط المتعاقبة والمتزايدة التى حاولت ومازالت تحاول القضاء عليها · ولم يقتصر نشاط خيرى حماد على التأليف والدراسة والتحليل بل امتد الى الترجمة أيضا بحيث ترجم كتبا عديدة عالجت قضايا القومية العربية والشرق الأوسط بأقلام مؤلفين أجانب · وكان هدفه من هذا الجهد الضخم فتح نافذة للفكر القومى العربى حتى يرى نفسه فى مرآة الآخرين · ولم يتبع خيرى حماد فى ترجماته المنهج التقليدى للمترجم الذى يقوم بعمله فى آلية بحتة بصرف النظر عن نوعية المضمون الفكرى الذى يترجمه ويعربه ، بل كان بالمرصاد لكل الأخطاء والهفوات التى يرتكبها الكتاب الأجانب فى حق العرب سواء عن قصد أو غير قصد ولذلك لم تكن ترجماته تخلو من الهوامش والحواشى التى يقوم فيها بتصحيح هذه الأخطاء والهفوات تصحيحا مدعما بالأسانيد والبراهين والمراجع العلمية والتاريخية · ولعل هذا هو السر فى تفضيله اصطلاح « تعريب » على كلمة « ترجمة » ·

من أهم الكتب التى ألفها خيرى حماد فى الفكر القومى كتاب « حتمية الوحدة العربية فى المفهوم الاشتراكى » عام ١٩٦٧ فى أعقاب نكسة يونيو (حزيران) وذلك فى محاولة منه لتخطى آثار النكسة فكريا ونفسيا · فقد رأى أن العدوان الاسرائيلى الاستعمارى وما صاحبه من انتكاس ، قد خلق حالات جديدة من البلبلة الفكرية ، التى تعقب عادة كل نكسة عبر مسيرة التاريخ الطويلة ، ولدى كل أمة من الأمم ، لا سيما وأن آثار العدوان ، تخطت كل التنظيمات القائمة فى الوطن العربى ، وتجاوزتها من الناحية التنظيمية · ومن هنا كانت محاولات القوى الخارجية الطامعة

فى موقع العالم العربى وخيراته للاستفادة من هذه البلبلة فى تحطيم كل مقومات القومية العربية التى تعد بمثابة الأسس المذهبية التى يقوم عليها كيان الأمة العربية ·

ويرى خيرى حماد عدم جدوى كل الأســـاليب التقليديـــة فى حل المشكلات العربية القومية ، فهى بمثابة دوائر مفرغة يدور فيها القـادة العرب لكى يعودوا الى نقطة البداية من جديد · لذلك كانت الثورة العربية ـ فى نظر خيرى حماد ـ بكل ما فيها من مضامين ومحتويات ، هى سبيل الأمة العربية لمواجهة أعدائها والانتصار عليهم · وتعنى الثورة أول ما تعنى الالتحام الكامل والعضوى بين القيادة والجماهير ، لأن هذه الجماهير هى صاحبة المصلحة الحقيقية فى الثورة · وتعنى الثورة أيضا استراتيجيـة شاملة طويلة المدى للعالم العربى كلـــه · واذا كانت ضرورات الواقع العربى ، وما ينطوى عليه هذا الواقع من أبعاد وتناقضات ، قد تفـرض أحيانا الاجراءات التوفيقية التى تبدو ، وعلى الصعيد السطحى ، بعيدة عن الروح الثورية ، فان هذا الفرض مرحلى لا يؤثر على الخط الاستراتيجى العام للثورة الأصيلة الصادقة · فمن المسلم به أن هذا الواقع العربى ، يحدد بعض متطلبات العمل العربى الموحد ، التى لا بد من توافرها ، لتمكين الثورة العربية من المضى فى مواجهة التحديات التاريخية والحضارية للأمة العربية ، لكن لهذا العمل حدوده التى لا يستطيع تجاوزها ، مهما أغرقنا فى تبنى التكتيك المرحلى ، كوسائل عاجلة وأسلحة آنية لمواجهة الضغوط المشتركة ·

أما التفكير فى الوحدة العربية فليس نتيجة تلقائية للأزمات التى يمر بها العالم العربى ، وانما هو حقيقة علمية ثابتة تفرضها وحـــدة التاريخ العربى من ناحية ، ووحدة الوجود والمصير الغربيين من الناحيـة الأخرى · واذا كان لأزمات العالم العربى من أثر ، فهى أنها تبرز هـذه الحقيقة بصورة صارخة ، وواضحة ، وتجعل تحويلهـا الى واقـــع حى ومتحرك ، ضرورة ملحة ، تفرضها طبيعة المعركة التى تخوضها الأمة العربية ضد أعدائها فى الداخل والخارج · ويكفى أن الأمة العربية كلها مشتركة فى الكفاح ضد كل أشكال الاستعمار الجديد ، فان هذا الهدف نفسه لا بد وأن يوحد الأمة العربية · فالخطر واحد ، والكفاح واحد ، والمصير واحد ·

ويؤكد خيرى حماد أن القومية العربيـة الآن قـــد تخطت مستوى الاحساس العفوى بوحدة وجودها ومقوماتها ، وارتقت الى مستوى الوعى الارادى الذى تجسد فى نظم ومؤسسات اجتماعية ، تباينت فى مضامينها

ومحتوياتها بتباين المراحل التى مرت بها حتى أصبحت تمثل بفضل الوعى الممثل فى الأمة حركة ديناميكية تعبر عن نفسها بمضامين اجتماعية وسياسية واضحة · ومن خلال هذا المفهوم حلل حماد القومية العربية وخصائصها التاريخية وشرح التطور التاريخى الحديث للفكر القومى العربى عبر المراحل المتعددة التى مر بها الى أن وصلت الى المرحلة الجديدة فى النضال القومى ، وتجربة الوحدة بين مصر وسوريا بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦١ ·

يرجع خيرى حماد بالقومية العربية الى جذورها الأولى وخصائصها التاريخية فيقول :

« لا شك فى أن القومية العربية ، وجود ذاتى ، منذ وجدت الأمة العربية ، بل هى حقيقة مطلقة ، قد وعت الأمة العربية ذاتها ، وتمثل وعيها فى ارادة تحولت الى حركة ذاتية مستمرة ، عملت على تحول المجتمع العربى من النظام القبلى الذى ساد الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى ، الى نظام الأمة الواحدة · ولقد تبلور هذا التحول فى صورته الكاملة ، فى الثورة العربية الكبرى التى رافقت ظهور الاسلام ، وان بدت بعض مظاهره العفوية ، حتى فى العصر الجاهلى ، كتضافر القبائل العربية كلها ، واجتماع كلمتها على حرب الفرس فى معركة ذى قار ، وعلى محاربة غزو الأحباش لليمن · وهكذا مثلت الثورة العربية فى عهد النبى ، وخلفائه الأول ، تبلور الوعى بالوجود الذاتى للأمة العربية ، فى شكل عقيدة واضحة الحدود والمعالم ، انسانية الشمول والهدف ، مستمرة الحركة والاندفاع ، تسعى الى هدف محدد ومعين ، وهو تحرير الأمة العربية من ربقة الاستعباد والاستعمار ، ممثلين فى امبراطوريتى الروم والفرس ، وتحقيق وحدتها القومية الواعية لا العفوية ؛ وتحريرها من سيطرة الاستغلال الاجتماعى الممثل فى وجود طبقتى السادة والعبيد · ولا ريب فى أن اشتراك القبائل العربية النصرانية ، كتغلب ونمير واياد فى معارك الجسر والبويب والقادسية ، جنبا الى جنب مع الجيش الاسلامى ، وتحت قيادة سعد بن أبى وقاص ، فى حرب الفرس ، وبلائها فى هذه المعارك أحسن البلاء ، بما أظهره فرسانها من بطولات ، خلدتها كتب التاريخ العربى ؛ لخير دليل على تبلور المبدأ القومى فى ثورة حركية واعية ، تستهدف هدفا واحدا ، وهو تحرير الأمة العربية من السيطرة الأجنبية ، والنفوذ الفارسى الغريب ، قوميا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا » ·

ومرت القرون والأجيال وواجهت القومية العربية تحديات من أعنف ما تعرضت له المبادىء القومية ، وواجه الوعى بهذه القومية أقصى ما عرفه التاريخ من ضروب الاضطهاد والتنكيل والاستعباد ، ممثلة فى العناصر

الشعوبية التى تسللت الى الأمة العربية متسترة بستار الدين المشترك ، تحاول خنق الوعى وقتله • ولكنه صمد أمام التجارب والمحن ، وحافظ على وجوده ويقظته ، طيلة عهود الاستعباد المغولى ، والاستعمارين التركى والغربى ، وظل دائما مصدر الحياة للمبدأ الذاتى الذى لا يذوى ولا يموت. بالرغم من التحديات والتجزئات ، وبالرغم من التخلف وعهود الظلام ، ليعود من جديد ، ليجلجل صوته الذى لم يخرس قط ، معلنا البعث القومى من جديد •

ان العرب أمة واحدة ، وأهل مصر والعراق والشام والمغرب وغيرهم ، ليسوا الا فروعا من أمة واحدة ، هى الأمة العربية • وجميع البلاد التى يتكلم سكانها بالعربية ، ويشدهم الى بعضهم تاريخ واحد ، ومصير واحد ، وصلات اقتصادية واضحة تفرض حتمية التكامل الاقتصادى هى عربية مهما تعددت الدول التى تحكمها • فالعروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة العربية ، ولا بالمسلمين وحدهم • وهنا يرفض خيرى حماد ما يكتبه الكثيرون من الكتاب الأجانب ولا سيما من الغربيين ، عندما يسمون أبناء الجزيرة العربية وحدها ، العرب ، ويطلقون على غيرهم اسم الشعوب الناطقة بالعربية ، محاولين أن يبينوا أن أهل ليبيا أو السودان أو الجزائر مثلا ، ليسوا من العرب ، وانما من الناطقين بالعربية • لكن الحقائق التاريخية والحضارية بكل أبعادها تؤكد أن كل من ينتسب الى الوطن العربى ، ويتكلم اللغة العربية ، ويعتز بالتاريخ العربى ، ويعى قوميته العربية ؛ هو عربى ؛ سواء أكان فى مصر أم فى الكويت ، فى المغرب أم فى السودان ، وسواء أكان مسلما أم مسيحيا ، سنيا أم شيعيا أم درزيا ، وكاثوليكيا أو أورثوذكسيا أو بروتستانتيا •

فالدول العربية التى نراها قائمة الآن لم تقم بمشيئة شعوبها ، أو بمقتضيات طبيعتها ، انما تكونت وتعددت نتيجة الاتفاقات بين الدول الاستعمارية السابقة ومخططاتها التى عملت على تجزئة الوطن العربى ، واقامة كيانات عدة فيه ، ما لبثت أن ولدت مصالح اقتصادية واجتماعية خاصة لدى بعض الفئات فيها ، مما دفعها الى محاربة الوحدة ، والعودة الى الصورة الطبيعية للوطن العربى • وتقررت الحدود التى تفصل هذه الدول العربية على ضوء المساومات بين الدول الاستعمارية وضمانا لمصالحها ، اذ أن المصلحة الأولى والأساسية للعرب جميعا تتمثل فى وحدتهم • ولذلك فان الفروق والتباينات التى تشاهد الآن فى نظم الادارة والتشريع ، والاقتصاد ، والاتجاهات السياسية بين الدول العربية ، انما هى وليدة الاستعمار ، الذى خلقها عن طريق الفئات ذات المصالح المترابطة مع مصالحه ، ومن مواريث عهود الاحتلال المباشر • ولا شك فى أن هذه

الفروق والتباينات ، اذا استمرت فى الوجود ، وسمح لها بهذا الاستمرار ، ستعمق مشاعر التجزئة ، وتؤلف عقبات ضخمة فى طريق الوحدة ٠

ان التجزئة الى وحدات سياسية مختلفة ، تؤدى الى ضياع قسم كبير من ثروات الأمة العربية وتبديدها فى غير طرقها الصحيحة ٠ أما الوحدة فضرورة حتمية لأنها سبيل العرب الى الحياة الحرة الكريمة التى تدرأ الأخطار عنهم ، وتحمى لهم شخصيتهم القومية المستقلة ، وتضمن لهم النجاح فى المخططات الاقتصادية الرامية الى تنميتهم ٠ فالوحدة ليست نزعة عارضة ، تفرضها ظروف خاصة كوجود الاستعمار بأقنعته المتعددة فى الوطن العربى ، أو كوجود الخطر الاسرائيلى ، بل انها حتمية يفرضها الوجود القومى ، سواء أبقى الاستعمار ، أم زال ؛ وسواء أكانت اسرائيل أم لم تكن ٠ فكل تطبيقات التقسيم والانفصال والعزلة والتجزئة والاقليمية والشعوبية تركت تخلفا مريعا على كل المستويات عند الأمة العربية ٠

ومع ذلك فان هذه الأمة لم تفقد ، حتى فى عهود التجزئة هذه ، ارادتها الواعية فى وحدة وجودها ، ولم تلن لها قناة أمام الضغوط التى كانت تفرض عليها التجزئة ٠ واستطاعت الأمة العربية أن تقف فى مواجهة جميع التحديات التى تعرضت لها ٠ وكافحت كفاحا يبز فى عنفه وقسوته، ما مرت به الأمم الأخرى ، من مراحل الكفاح فى سبيل وحدتها ، وذلك لأن قوى رهيبة ، وطاغية ، يمثلها الاستعمار بأقنعته المتعددة ، والصهيونية بمخططاتها الخبيثة ذات النفس الطويل ، والتخلف بكل رواسبه المعوقة ، كل هذه القوى تضافرت وتعاونت لتفتيت وحدة الأمة العربية وتجزئتها ٠ ومع ذلك ظلت الأمة العربية على وعيها الحاد ومقاومتها الملحمية ، مما يقدم الدليل العملى الدافع لكل الدارسين والمؤرخين على حتمية الوحدة القومية العربية سواء فى المستقبل القريب أو البعيد ٠

٢٣ ـ سعدون حمادى « العراق »

سعدون حمادى من المفكرين القوميين العرب الذين ينادون بالمنهج الثورى فى تحقيق النموذج الذى يصبون اليه من القومية العربية · فهذه القومية ـ فى نظره ـ عبارة عن ثورة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان · وقد كتب سعدون حمادى دراسات مستفيضة حول هذا المفهوم ، نشرتها عدة مجلات فى العالم العربى ، ثم تم جمعهـــا فى عام ١٩٦٨ فى كتاب بعنوان « قضايا الثورة العربية » ، ألقى الأضواء الموضوعية على العلاقة بين الثورة العربية وكل من الوحدة والديمقراطية والاشتراكية من خـلال تحليل الواقع العربى بكل سلبياته وايجابياته بعيدا عن الحساسيـات العربية التقليدية ·

والثورة بصفة عامة ـ فى مفهوم سعدون حمادى ـ ليست الانقلاب المفاجىء من الضد للضد ، لكنها تعبير عن نزعة للخير موجودة فى الانسان تدفعه لتحسين أوضاعه وتغيير « ما هو كائن » لما « يجب أن يكون » · ومن هذا المفهوم تتفرع فكرة دور الارادة البشرية فى التطور الاجتماعى · فالانسان هو محور ذلك التطور وكل ما يحدث هو من صنعه · وبذلك تنتفى كل الأفكار الحتمية القائلة بوجود قوانين ثابتة خارجية عن ارادة الانسان تسير المجتمع سواء أكانت تلك الأفكار فى أقصى اليمين أم فى أقصى اليسار · ومن هنا كانت الثورة تطويرا لميول الخير فى الانسان ، وهو تطوير لا يحدث الا بالمعاناة العملية النابعة من تناقضات الواقـع وروح العصر ·

أما النظريات الفكرية فغالبا ما تتكون بوحى من روح العصر هذه · لذلك يرى حمادى أنه من الخطأ اعتبار هذه النظريات منفصلة عن واقع الأمم التى نشأت فيها ، أو أنها خلاصة لبحث علمى كامل الموضوعية ومتحرر

من الأفكار المسبقة · وبذلك يتضح الخطأ الذى يقع فيه البعض ممن يأخذون تلك النظريات على أساس أنها مطلقة صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ·

واذا كانت القومية العربية – هى فى جوهرها ثورة – فلا بد أن تكون لها النظرية النابعة منها والمرتبطة بروح عصرها · وهذه الخصائص توضح لنا أن حركة الثورة العربية لم تولد موحدة بل تضم أطرافا متعددة، لكن هذه الأجزاء المتعددة وان كانت متباينة فى منشأها الا أنها قابلة للتوحيد بسبب ما بينها من عوامل التشابه القوية من حيث الأفكار · كما أن كثيرا من نقاط الاختلاف جاءت مصطنعة · وحتى عندما توجد خلافات أو اختلافات حقيقية فان ذلك لا يمنع أن تتطور شطر التوحيد بتفاعلها مع الواقع العربى · كما أنه لا يمكن تجاهل العوامل الذاتية الداخلية التى يمكن أن تعوق انتشار القومية العربية ، وخاصة أن الحجة القديمة التى كانت تستعمل لتفسير أسباب التجزئة على أساس وجود أنظمة متأثرة بالاستعمار ، أصبحت غير مقنعة تماما بعد أن تحررت الارادة العربية داخل أجزاء العالم العربى دون أن تتمكن من توحيد تلك الأجزاء ·

ويلتزم سعدون حمادى بالمنهج العلمى القائم على الملاحظة والدراسة والتحليل والتجربة الشخصية ، وهو لا يحاول فرض آرائه على القارىء بل يسعى الى حوار معه حول مشاكل التطبيق التى يرى فيها العقبة الرئيسية فى طريق القومية العربية المنشودة · فالجميع يقتربون من بعضهم بعضا – الى حد كبير – فى المجال النظرى الفكرى ، أما عندما يخوضون مجال التطبيق العملى فانهم يتباعدون بنفس القدر الذى جمعهم سويا من قبل · ويرجع هذا الى حالة التمزق التى وصلت اليها الحركة الثورية العربية سواء من حيث انقساماتها الداخلية أو من حيث صدامها مع أطراف الحركة الثورية الأخرى · لذلك يدعو حمادى لضرورة قيام حكم وطنى مؤتلف من كافة أطراف الحركة الثورية كبديل لنظام حكم الحزب الواحد الذى طبق محاكاة لنظم الحكم فى الدول الاشتراكية والذى يبدو أنه قد فشل ·

والوحدة – كحلم ذهبى لا يزال بعيد التحقيق – ما زالت تمثل الهدف الأول للثورة العربية والمقياس الصحيح لصدق أو انحراف أى عمل سياسى ، أما كونها حلما بعيد التحقيق فيرجع الى الدور السلبى الذى تلعبه العوامل الذاتية فى انقسام الحركة القومية وعرقلة قيام الوحدة · ولكى تتفادى هذا الدور السلبى – بقدر الامكان – يتحتم على العرب تطبيق النظام الديمقراطى الذى يعتمد على النضج السياسى وتمكن النظرة الديمقراطية فى نفوس القائمين عليه ، أما الجدل العربى التقليدى حول

الأشكال والنصوص القانونية فمن شأنه تشتيت الجهد وتضييع الوقت في سفسطة لا طائل من ورائها ٠

ويقول حمادى : ان السلوك المثالى والحرص على الأخلاق والتزام المثل العليا هى العمود الفقرى للثورة وهى بمثابة الحياة فى الجسم ، بدونها تصبح الثورة عملية هدامة عمياء تدفعها الغرائز ٠ من هنا كانت ضرورة تحويل الثورة من مجرد شعور تلقائى وشعارات لحظية الى تنظيم علمى ينهض على مجموعة قواعد وأصول للعمل والتصرف ٠ والتنظيم ـ كما نجده فى الدولة أو الأحزاب أو الشركات أو المؤسسات أو الهيئات أو النقابات ٠٠٠ الخ ـ ليس هدفا فى حد ذاته ، وانما هو وسيلة عملية لتحقيق أقصى قوة ممكنة من عدد محدد من الأفراد ، بكل ما ينطوى عليه ذلك من مزايا التنسيق والتفاعل والتعاون ٠ اذن فالحركة الثورية هى مثل الثورة زائدا عليها التنظيم ٠

ويركز سعدون حمادى على التخلف الاجتماعى فى العالم العربى بصفته أخطر الأمراض التى تعانى منها الحركة الثورية العربية الآن ٠ فظاهرة التجزئة التى تعانى منها الحركة القومية لا يمكن تفسيرها بصورة كلية بوجود اختلافات عقائدية ٠ اننا نعرف مثلا أن حركة تنادى اليوم بتوحيد المجتمع العربى وتحريره من الاستعمار وبناء الانسان العربى قد نشأت فى الأساس بدافع المنافسة الكلامية بين مؤسسى هذه الحركة عندما كانوا طلابا وبين أعضاء حركة أخرى تنادى بنفس المبادىء فى نفس الجامعة ٠ والصراع الذى وقع بين القوى الثورية العربية لا يتلاءم اطلاقا مع الدرجة العالية من التلاؤم العقائدى الذى تدل عليه الشعارات المرفوعة والمبادىء المعلنة ٠

ان ضيق الأفق والأحقاد الشخصية والميول السياسية البدائية كفكرة تفتيت الآخرين والمهاترات ، والأهم من كل ذلك الفشل فى تحقيق حد أدنى معقول من التعاون مما أصبح معروفا عن علاقات القوى القومية العربية أمور لا يفسرها الا وجود سموم مرضية فى هذه القوى ترشحت اليها من المجتمع ٠ ويدل تطور ازمات العربية على وجود هذه العوامل الذاتية منذ بداية بذور الانشقاق ٠ فالعلاقات الشخصية والارتباطات العاطفية ورواسب الاقليمية والعشائرية والطائفية والنزوع للسلطة والانفراد بالقيادة والتكتل والمزايدة وتغيير المواقف الفكرية والحب والكره فى العلاقات الحزبية ، كلها أمور موجودة بدرجات متفاوتة ولكن بصورة واضحة فى حركة القومية العربية ٠

ولا ينفى حمادى وجود العوامل الذاتية فى الحركات السياسية فى

البلدان الناضجة المتقدمة ولكنها خضعت للتهذيب ولسيطرة الارادة والوعى مما حصر مفعولها فى نطاق ضيق غير مضر بقضايا الأمة الكبرى ٠ أما عندنا فهى نسبيا فجة وحادة ومفلوتة العنان وتكاد تطغى ، أو أنها طغت بالفعل ، على الاعتبارات الموضوعية وأصبحت مضرة بالقضايا المصيرية للأمة ٠ والا كيف نستطيع تفسير وجود حكم ثورى وحدوى قومى فى قطرين عربيين دون أن يستطيعا الاتحاد فيما بينهما ؟! بل انهما لم يتخلصا من عوامل الصراع فيما بينهما بعد ٠

ولا شك فان الوحدة العربية — برغم كل العقبات التى تعتور طريقها — هى القضية الكبرى للأمة العربية ٠ فهى ليست هدفا كأى هدف ، وليست قضية كأى قضية بل الهدف الأول والقضية الأولى ، لا لأنها الأساس المادى للقومية العربية فحسب بل أنها الوسيلة الوحيدة للبقاء والدفاع عن النفس فى عالم يموج بالضغوط المتزايدة ولا يعترف الا بالكيانات الضخمة ٠ ان قضية الوحدة لا تحتاج لأساس نظرى ولا لبحث علمى الا من أجل حسن تطبيقها وليس من أن نقرر قبولها أو رفضها ٠ ان البحث العلمى والجهد النظرى يجب أن يكون مشتقا منها ، فهى روح العصر بالنسبة لنا نحن العرب وكل نظرية جديدة أو قديمة تنتهى بالتعارض معها لا بد أن يكون الخطأ فى النظرية وليس فى الوحدة ، لأن التعارض مع الوحدة معناه الابتعاد عن واقع الشعب العربى ٠

ويؤكد سعدون حمادى على ضرورة المنهج العلمى فى معالجة قضايا القومية العربية ، فهو المقياس الوحيد للتفريق بين الخطأ والصحيح ، أما الاحتكام للتقاليد فمن شأنه تفسير الظواهر الموضوعية طبقا للأهواء الشخصية والأفكار المسبقة الجاهزة ٠ لذلك يجب على القوى القومية فى العالم العربى أن تعير توجيه التربية والثقافة العامة والاعلام الأهمية القصوى ٠ فلا بد من توجيه التعليم وكافة سبل التربية العامة بصورة علمية تهدف لترسيخ مبادىء القومية وأفكارها واقتلاع جذور الشعوبية برمتها ٠ ان الاهتمام الزائد بالتربية من شأنه أن يقلل النزعات الاقليمية والانطوائية والانعزالية لأنه يخلق عند الجيل الجديد انسجاما ذاتيا مع تيار القومية من شأنه أن يزيل من الطريق العقبات التى تمنع ذلك الانسجام ٠

ويستطيع التشريع أن يلعب دورا مساعدا على دفع عجلة القومية العربية الى الأمام ٠ فالقانون — بمختلف درجاته — يشكل اطارا منظما يساعد على رسم حدود التصرف وكيفية العمل ٠ لذلك من الخطأ الفادح أن يسلك المفكرون القوميون طريقا يؤدى الى خارج حدود القانون الموجود٠

ان كل تغيير في العمل يجب أن يقترن بتغيير في القوانين وخاصة أن فلسفة القومية أصبحت من النضج والتحديد بحيث تحمـــل في طياتها قوانينها النابعة من طبيعتها ٠ ولا بد أن تقترن جميع الاجراءات والأعمال الجديدة بتغيير تشريعي يضبطها ويوضح معالمها ٠ ففي مرحلة الانتقال من العزلة الاقليمية الى القومية الشاملة تظهر مجالات جديدة للتشريع لتنظيم أمور أو لتلبية طلبات لم تكن موجودة من قبل ٠ وهذه القطاعات المستجدة لا بد أن تضبط بقوانين وأنظمة لتقليل احتمالات الأخطاء والفوضى والمحاذير التي تنشأ عن غياب التنظيمات القانونية ٠

يقول حمادي ذلك لان أفكارا ساذجة عن القومية العربية قد تنشأ في مرحلة التحول الى القومية ، أفكارا تعتبر احترام القانون صفة محافظة أو رجعية ٠ ان هذه الآراء السطحية ــ والانتهازية أحيانا ــ يجب تصحيحها لمصلحة المسار القومي للأمة ٠ وكلما كانت اجراءات التشريع القومي مبسطة سلسة مباشرة ، كانت قادرة على القيام بمهمة التصحيح تلك ٠ والبساطة هنا لا تعني اطلاقا أن يكون التشريع غير مدروس ، بل على العكس تماما فلا بد أن يستند تغيير القوانين الى احاطة بـــكافة الظـــروف وبجميع الاحتمالات والتفاصيل المتعلقة بموضوع التشريع ، اذ أن الأثر التشويشي للقوانين الارتجالية معروف لا يحتاج لاثبات ٠

ويضع حمادي يده على مصدر الألم الذي تعاني منه القومية العربية فيقول ان الأمر المؤلم حقا هو أن الحركة القومية العربية ينقصها الكثير من الوعي ، والقدرة على الاستفادة من تجاربها ومن تجارب الآخرين ، والاهتمام بالتثقيف القومي لقياداتها ، ورصد الانحرافات الفـــكرية في بداية ظهورها وتصحيحها أولا بأول ٠ فاستفادتها من تجاربها غير أكيدة ، واستفادتها من تجارب الثورات الأخرى لم تكن ــ حتى الآن ــ كما يجب أن تكون بل كانت دوما منفعلة أو رافضة كلية أو مقلـــدة تماما لتلك التجارب ٠ كما أنها تعاني من نقص كبير في الثقافة القومية ومن الاطلاع على علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، ومن نقص المعرفـــة الكـــاملة لأوضاع المجتمع العربي وتعقيداته ٠ وخطر هذه العيوب يتفاقم أكثر عندما تكون القيادات نفسها تعاني من ذلك أكثر من القواعد ٠ ان ظروف الحركة القومية العربية قد سمحت بصعود قيادات ينقصها الكثير من هذه الشروط مما بذر بذور التناقضات الداخلية التي أدت الى كل السلبيات التي تعاني منها الحركة القومية العربية ٠ ولا أمل لهذه الحركة في الانطـــلاق في الاتجاه السليم الا بعد التخلص من هذه التناقضات والسلبيات بطريقـــة أو بأخرى ٠

٢٤ ـ جمال حمدان « مصر »

يعد جمال حمدان من الرواد الكبار فى مجال الدراسات الجيوبوليتيكية المرتبطة بحركة القومية العربية المعاصرة • فهو لا يرى فى القومية العربية شعارا مثاليا بل يعتقد أنها نظرية نابعة من أرض الواقع بكل ايجابياته وسلبياته ، وعلى العرب تطويرها علميا وعمليا من أجل أن تواكب المتغيرات العربية والعالمية ، وحتى لا تتحول الى صنم يتعبد الجميع فى محرابه دون أن يمسه أحد بالنقد الذاتى أو النقد الموضوعى • ومن الواضح أن هذا الاتجاه يشكل المحور الأساسى لدراسات جمال حمدان ، حتى فى الدراسات التى قد تبدو ـ ظاهريا ـ بعيدة عنه ، فانه يشكل الخلفية الفكرية التى تحدد نظرتها الى الأشياء • ذلك أن جمال حمدان لا ينسى على الاطلاق أنه عربى قبل أن يكون باحثا ودارسا ذا باع طويل فى الأمور السياسية والاقتصادية والجغرافية العالمية • فالقومية العربية فى أشد الحاجة الى مجهوداته التى لا يبخل بها عليها •

تبلور هذا الاتجاه فى كتبه ودراساته المتتابعة : « أفريقيا الجديدة » ١٩٦٣ ، و « شخصية مصر » ١٩٦٧ ، و « اليهود انثروبولوجيا » ١٩٦٧ التى تشكل تنويعات فكرية على مفهومه للقومية العربية ، ثم دراساته العربية مثل « دراسات فى العالم العربى » ١٩٥٨ ، و « الاستعمار والتحرر فى الوطن العربى » ١٩٦٤ ، و « جوانب سياسية فى بترول العرب » فى مجلة « المجلة » يوليو ١٩٦٤ ، و « مواطن الخطر فى قوميتنا » فى مجلة « الهلال » يناير ١٩٦٥ ، و « استراتيجية الاستعمار والتحرر » ١٩٦٨ •

ولعل أخطر كتاباته تتمثل فى « مواطن الخطر فى قوميتنا » التى يطبق فيها المناهج العلمية البيولوجية والجيولوجية على قوميتنا العربية حين يقول :

« فى البيولوجيا أن الأطراف أضعف الأعضاء فى الكائن العضوى ، عندما يصل دفع الدورة الدموية فى الجسم الى حـــده الأدنى ٠٠ وفى الجيولوجيا أن القشرة أقل طبقات الارض قوة ومقاومة وهى موطن مناطق الضعف الكامنة فيها ٠ وفى الوطن العربى ، سواء اعتبرناه جسما حيا « متعضونا » أو كتلة أرضية متراصة ، نجد أطراف العروبة وهوامشها هى مناطق الضعف والثغرات المكشوفة المعرضة ٠ وجبهة العرب الهامشية، برية وبحرية ، جبهة عريضة مترامية للغاية ، ولذا لم يكن غريبا أن تصل كثافة العروبة فى قطاعات منها الى درجة التخلخل ، وأن ينخفض فيها نبض العروبة وضغط الدم القومى الى درجة قد تشجع أحيانا على غـزو العناصر الغريبة والأجسام الطفيلية للكائن الكبير ، وعلى اختطاف واقتطاع مناطق الضعف فيه » ٠

يوضح جمال حمدان أن أطراف العروبة كانت دائما بوابات الغزو الاستعمارى ومواطىء أقدام التسلل الأجنبى الحديث ٠ وكانت الأطراف الساحلية بالذات هى أول ما خضع للاستعمار وهى الآن آخر ما خرج ـ أو ما لم يخرج ـ منه بطريقة أو بأخرى ، اذ أن الاستعمار الحديث ليس عسكريا أو سياسيا بالضرورة ٠ ومن ناحية أخرى فان أطراف العروبة هى التى تعرضت لعمليات السلخ الاقليمى بواسطة القوة المجاورة حتى أصبحت مرصعة بأكثر من « لواء سليب » ابتداء من الاسكندرونة وطوروس فى سوريا الى عربستان العراقية وهكذا ٠ ومن هنا كانت بحاجة ماسة الى أن يلتفت اليها العرب وأن يفتحوا أعينهم عليها حتى تستعيد ما ضاع منها وتحفظ عروبة ما لم يضع منها بعد ٠

واذا كانت فلسطين ، وهى الوطن السليب الأكبر والأخطر فى العالم العربى ، تقع فى قلبه وعلى ناصيته وقرب رأسه فان هذه حالة خاصة جدا وقائمة بذاتها ٠ واذا كانت حركات التحرير القومية أولويات ، وكانت فلسطين تأتى على رأس سلم هذه الأولويات ، فان المرتبة التالية مباشرة انما ينبغى أن تكون لهذه الأطراف المتطوحة المفقودة ٠ فنحن اذن بحاجة الى برنامج مدروس طويل الأمد للعمل السياسى التحريرى ، ليس فقط فى القلب والنواة وانما كذلك فى الاطار والهوامش ٠

ويؤكد جمال حمدان على أنه الى جانب مقومات القومية العربيـــة الأصيلة توجد معوقات بعضها موروث وبعضها مكتسب ٠ ولا شـــك أن قوة العرب البشرية المعتدلة التى لا تتطرف افراطا أو تفريطا هى من أصلب مقوماتها ٠ ومهما زاد تعداد العالم العربى فانه لن يشغل مســـاحته الشاسعة ٠ وحتى ندرك معنى هذه المساحة الشاسعة يكفى أن نعلم أن

عرض العالم العربى من المحيط الى الخليج فى أبعد نقطتين بين الرأس الأبيض فى موريتانيا ورأس الحد فى عمان لا يقل عن ٧٠٠٠ كم ، أى ما يعادل سدس قطر الكرة الأرضية برمتها ، هذا فى حين أن كل مساحته يمكن أن تنتظمها دائرة مكتنزة كل قطرها لا يزيد على ٢٠٠٠ كم ٠

ان مواطن الخطر فى قوميتنا العربية أنه لا توجد فى العالم قومية منفردة تدور فى حدود هذا العدد من السكان وتحتل فى الوقت نفسه مثل هذه الرقعة الجغرافية ٠ ولو أننا عرضنا للقوميات التى يقترب تعداد سكانها من تعداد العرب كاليابان أو ألمانيا أو حتى باكستان لما وجدناها تزيد على شريحة أرضية من الوطن العربى ٠ وبالعكس ، ان نحن استعرضنا الدول السياسية التى تناهز رقعة الوطن العربى مساحة لوجدناها أضعاف العرب سكانا ٠ لذلك يؤكد أعداء العروبة دائما على أن جسمها يتمدد فى ثوب فضفاض من حجم مفرط حتى ليكاد أن يتعثر فيه ٠ وقد تكون حجتهم فى هذا الادعاء أن نمط العمران العربى نفسه أبعد ما يكون عن الانتشار الغطائى المتجانس ، فهو يتألف تقليديا وأساسا من مراكز كثيفة متباعدة محددة هنا وهناك تفصل بينها فراغات شاسعة من اللامعمور ، ومن الطبيعى والمؤسف معا أنها تقلل من قوة التلاحم والترابط بينها ٠ واذا كانت هذه الكتل الجزرية البشرية تجنح الى أن تتوزع على هوامش العالم العربى وأطرافه بوجه عام ، فاننا حينما نصل الى الصورة التفصيلية نجدها تتخلخل وتدق بالذات على تخوم الحدود السياسية الدقيقة ٠

والغريب أن العروبة أضخم ما تكون حجما وأشدها كثافة فى قلبها المحمى العميق كما فى مصر مثلا حيث نجد مركز ثقلها البشرى والسياسى والعسكرى ، فى حين تتضاءل وتتخلخل عند الأطراف حيث تلتقى بقوميات أخرى وحيث تكون الضخامة وقوة التماسك والنسيج البشرى ألزم ما تكون سياسيا وقوميا ٠ ويركز جمال حمدان بصفة خاصة على الجناح الآسيوى للأمة العربية حيث يشتد الانحدار الديموجرافى بشكل خطير حيث نجد تعداد سوريا لا يزيد على خمس تعداد تركيا التى تجاورها ، فى حين لا يزيد تعداد العراق على نصف تعداد ايران ٠ ويضاعف من حدة هذا الانحدار فى حالة ايران أن كتلة المعمور الفعال وجسم السكان الأكبر يقع بالذات فى الركن الغربى من الرقعة السياسية ، أى أقرب ما يكون من حدود العراق ٠ وبهذا يتركز على هذا الجانب من الحدود ضغط بشرى ومن ثم اقتصادى واستراتيجى وسياسى ثقيل أو موجب بقدر ما يتركز على الجانب العربى ضغط خفيف أو سالب ٠

فاذا أضفنا الى ذلك جميعا تاريخا سياسيا لا يخلو بدرجة أو بأخرى من المشكلات والعقد ، تأكد لنا ضعف العروبة النسبى فى هذه الأطراف الحرجة . ولهذا فليس غريبا أن تكون أخطر المناطق السلبية فى العالم العربى هى ما تقع على هوامش العرب فى آسيا ، وأن تكون بالتحديد مع هاتين الجارتين بالذات . من هنا كان العالم العربى فى أشد الحاجة الى استراتيجية ديموجرافية جيوبوليتيكية تعيد توزيع مراكز الثقل العمرانى على مدى طويل وبأسلوب يجنب الأمة العربية أن تكون مطمـــح القوى الخارجية التى تريد أن تنشب أنيابها فى جسدها .

أما فى كتاب « شخصية مصر » فمن الطبيعى أن يدافع جمال حمدان عن مصيرها العربى وقوميتها الأصيلة . فبصفته أستاذا متبحـــرا فى الجغرافيا السياسية يدحض نظرية ربط مصر حضاريا وتاريخيا بحوض البحر المتوسط بأسلوب لم يسبقه اليه دارس عربى من قبل . ويقـول ببساطة وايجاز ان اللغة والتاريخ والثقافة مقومات أساسية ومعنويـــة للوحدة والتضامن وعلى هذا فان البحر المتوسط بالنسبة لمصر ليس سوى نافذة جغرافية لها على الشمال . وعلى هذا فان البعد المتوسطى لمصر بعد حضارى أكثر منه طبيعى ، واقتصادى أكثر منه بشرى . وهو فى النهاية وعلى خطورته وأهميته يعد تكميليا لا يرقى بالقطع الى مستوى البعـــد الآسيوى أو العربى الذى هو أسبق وأثبت .

ولا يعنى هذا عزلة مصر عن الدول التى تقع على سواحل البحـر المتوسط ، بل لها مطلق الحرية فى التعاون معها فى جميع المجالات ، وفى التنافس الشريف لازدهار الحضارة وتقدمها ، ولكن لا بد أن يكون هـذا التعاون فى اطار المصالح القومية العربية ، ومعنى ذلك أن يكون لمصر قوة بحرية ضخمة وثقل تجارى اقتصادى فى حوض البحر المتوسط ، ولكن الدائرة أو العلاقات التى يجب أن يكون لها الأولوية هى الدائرة العربية ، ذلك أنها جزء عضوى من جسم العالم العربى تتفاعل معه باللغة والتاريخ والثقافة .

وقد نشأت حساسيات متعددة عند بعض الزعماء العرب نتيجة لاعتبار العرب مصر قلب العروبة النابض الذى يربط جناحى الأمة العربية ، ومن ثم فهى تتبوأ مكان الطليعة والصدارة للأمة كلها . فقد زودتها الطبيعة بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى انهاض القومية العربية . ويحسم جمال حمدان القضية كلها بقوله أن دور الزعامة الجغرافية ليس ادعاء فظا غليظا ، وانما ممارسة متواضعـة صامتة ، وهو بهذا لا يمكن أن يكون تشريفا أو تخليدا ، بل هو تكليف وتقليد : تكليف من الجغرافيا وتقليد من التاريخ . انها ليست أبهة أو

نعرة سياسية بل مسئولية فادحة تفرضها الطبيعة · فمصر تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الأفريقى والآسيوى ، وهى أقدمها فى تشكيلات الدولة العصرية ، وكانت رائدة لها فى مجالات عديدة ·

وعلى الرغم من كل المحاولات الداخلية والخارجية لعزل مصر عن شقيقاتها العربيات منذ فجر القومية العربية الحديثة ، فان روح العروبة تجلت فى تعدد الزيارات والمؤتمرات ولقاء المصريين بأشقائهم من سائر البلاد العربية ، لدرجة أن الاتجاه الاسلامى أصبح وحدة عقيدة وتعاون لا وحدة قومية ومصير كما هو الحال مع الأسرة العربية · حتى وحدة وادى النيل التى كان كثير من المصريين يحلم بها ، أصبحت مجرد جزء من كل فقط ، واذ بالوطنية المحلية جزء قاصر ناقص من نفس الكل ، أما هذا الكل فهو العروبة وحدها · فمهما كانت العقبات والاحباطات فان قدر مصر هو القومية العربية ومصيرها هو الوحدة العربية · ان المسألة ليست سوى مسألة زمن طالما أن القلوب العربية ــ من المحيط الى الخـــليج ــ تزخر بالايمان القومى الوحدوى ·

وكثير من الحروب التى خاضتها مصر دفاعا عن نفسها ، كانت نتيجة لهجمات قادمة من خارج الأمة العربية ، عبرت الشام لضرب مصر · وهذا يعنى أن الدفاع عن الشام دفاع عن مصر فى الوقت نفسه · فاذا كان خطر الشمال البحرى قد داهم مصر رأسا ومباشرة فى أغلب الظروف التاريخية، فما أكثر ما استدار اليها كذلك بطريق مباشر عبر الشام كما حدث فى الحروب الصليبية والحروب الاسرائيلية · وكان الشام كذلك هو الطريق الحتمى الى مصر الذى سلكته ضغوط الهجمات الآسيوية · ومن هنا يبرز الشام ــ تاريخيا ــ كعقدة تلتقى فيها كل أنوع الضغوط الموجهــة الى مصر · وبذلك تحدد مصدر الخطر الأكبر على مصر من الاتجاه الشمالى الشرقى عامة ، حيث تحتشد النواة الصلبة لهذا الخطر فى الشام على وجه التخصيص · والشام قد لا يكون فى حد ذاته مقر الخطر ــ ولم يكنه قط ولكنه ممر محورى للخطر انه استراتيجيا جسر معلق الى مصر بالدقة ·

وبالنسبة لقناة السويس فان جمال حمدان يرى أن أهميتها لمصر تعادل أهميتها للعالم العربى · ففى عصر الازدهــار الاستعمارى ، عصر دبلوماسية البوارج المسلحة ــ مثلا ــ كانت قناة السويس أهم عنصر منفرد على الاطلاق فى الجغرافيا السياسية لا لمصر وحدها ولكن للعالم العــربى والشرق الأوسط بأسره · وكان الخليج العربى طوال ذلـــك العصر ، استراتيجيا وجيوبوليتيكيا مجرد تابع أو ملحق أو قاعدة خلفيـــة لقناة السويس ، التى لم تكن بدورها مجرد بوابة أو قاعدة أمامية متقدمة ،

وانما بحق عاصمة المنطقة برمتها استراتيجيا وقطب الرحى فى هيكلها الجيوبوليتيكى جميعا ٠

والأمن المصرى لا ينفصل أبدا عن الأمن العربى ، بل يكمل أحدهما الآخر ويتمه ٠ فمثلا يعد البحر الأحمر - فى هذا الاطار - أحد الأبعاد الرئيسية لمفهوم الأمن المصرى والعربى ، بل يمكن القول من الناحية الجغرافية عامة أن هذا البحر هو عربى ٠ فالساحل الشرقى كله تطل عليه بلاد عربية (الأردن ، والسعودية ، واليمن الشمالى ، واليمن الجنوبى) ، والساحل الغربى تطل عليه ثلاث بلاد عربية (مصر والسودان والصومال) ٠ وتزداد أهمية البحر الأحمر اذا عرفنا أنه يمثل المنفذ البحرى الوحيد لكل من السودان والأردن والصومال عبر قناة السويس ٠

هكذا لا يمكن أن نتصور - مجرد تصور - مصر بدون الأمة العربية ، والأمة العربية بدون مصر ٠

٢٥ ـ جورج حنا « لبنان »

جورج حنا من المفكرين القوميين العرب الذين يرون فى القومية العربية مفهوما شاملا يسرى فى كل مكونات الأمة العربية الفكرية والعقلية والوجدانية والسلوكية . فالاستراتيجية القومية لا بد أن تستوعب جميع نواحى الأمة لا ناحية واحدة فحسب ، ذلك أنه من المستحيل أن تكون الحياة السياسية للأمة قومية فى حين يكون الاقتصاد أو التعليم أو الدفاع أو الاجتماع غير قومى . فالقومية العربية بطبيعتها وحدة فكرية وسلوكية ووجدانية وحضارية لا تقبل التجزئة ، فهى نظرة متكاملة وشاملة الى المجتمع والانسان والحياة ، وهذه النظرة تطورت مع الزمن حتى تحولت الى نظرية يعتنقها كل العرب المؤمنين بكيانهم ووجودهم القومى . فالقومية العربية نظرية سياسية اجتماعية اقتصادية حضارية ، وهذا اتجاه نابع من طبيعة العصر أساسا ، فاذا كانت السياسة فى عالم اليوم لا تنفصل عن الاقتصاد أو الاجتماع ، فكيف بالقومية ـ وهى مشتقة من القوم ـ أن تنفصل عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى حين أنها تهدف لايجاد نظام صالح لهؤلاء القوم فى شتى مناحى حياتهم ، ومختلف دروبها ؟!

هذا هو المفهوم الشامل الذى يبلوره جورج حنا للقومية العربية فى كتبه التى تعالج هذه القضية المصيرية مثل : « واقع العالم العربى » فى عام ١٩٥٢ ، و « معنى القومية العربية » ١٩٥٧ ، و « الانسان العربى : قديمه وجديده » ١٩٦٤ . لذلك يرى أن العامل الاقتصادى مثلا من أهم مكونات القومية العربية بصفة عامة ، وهو يعنى بهذا العامل المصالح المادية التى تدفع الجماعة وتحفزها الى الارتباط والتضامن لتشكل قومية واحدة . قد يكون الهدف من التضامن والاندماج اقتصاديا ماديا بحتا ، لكنه بمرور الزمن ومع اتساع المعاملات الاقتصادية يتحول الى رابطة قومية نظرا لتشابك الاقتصاد مع العوامل السياسية والاجتماعية والحضارية . بل ان

الاقتصاد فى عالم اليوم يشكل الأساس الصلب لأية سياسة فعالة ولأى مجتمع مستقر ، فى حين كان الاقتصاد تحت رحمة التقلبات السياسية والاجتماعية فى الماضى ٠

ومن ثم فان القومية الحديثة لا ترتكز على القيم الروحية فحسب ، وانما يسندها ويدعمها التعامل الاقتصادى المادى والمصـــالح المتبادلـة المشتركة ٠ فالمعايشة المشتركة تقضى بوجود مصالح مادية متبادلة ، تسهل التعامل بين أجزائها ، بحيث يشعر الجزء الواحد أن مصالح الجزء الآخر تتكامل مع مصالحه ٠ ومن الأدلة العملية على أهمية العامل الاقتصادى فى نشأة القومية أن القوميات الحديثة ارتبط ظهورها بانهيار الاقطاع ، كنظام سائد فى العلاقات الاقتصادية وبداية ظهور النظم الرأسمالية فى الانتاج وما ارتبط بهذا العامل من ظهور الطبقة الوسطى المشتغلة بالتجـــارة ، والساعية الى السيطرة على الاقتصاد القومى ، فالاقطاع من شأنه تفتيت المجتمع أو تجزئته الى وحدات منعزلة أو شبه منعزلة ليس فكريا واجتماعيا فحسب ، وانما اقتصاديا أيضا ، على حين أن النظام الرأسمالى وما يتطلبه من سوق واحدة واقتصاد وطنى موحد يحل محل المراكز الاقتصاديـة المبعثرة التى تمثل النظام الاقطاعى ، وتطور طرق المواصلات والتقدم العلمى فى كافة الميادين ٠ كل هذا يعتبر عاملا أساسيا فى نشوء القومية ٠

لكن جورج حنا لا يعنى بهذا أن النظام الرأسمالى هو الذى خـلق القوميات من عدم ، واصطنعها اصطناعا ، وانما معناه ، أنه كانت للقوميات امكانات ومقومات ضيقة ، مبعثرة وغير مترابطة بسبب الاقطاع ، فجـاء النظام الرأسمالى فأتاح الفرصة لهذه الامكانات وطورها لا رغبة فى خلق القومية ، ولكن سعيا وراء تحقيق مصالحه الخاصة ، وبهذا ارتبط ظهور القومية كظاهرة تاريخية فى العصر الحديث بانتهاء الاقطاع وظهـــور الرأسمالية بطريق غير مباشر ٠

والقومية العربية أكبر دليل عملى على هذا ٠ فكلنا نشعر بوجودها فى حياتنا على الرغم من أن المعاملات الاقتصادية والمصالح المادية المتبادلة بين الأقطار العربية لم تصل اطلاقا الى الحد الذى نستطيع فيه القول بأنها أصبحت أساسا ماديا راسخا لازدهار القومية العربيـــة ٠ بل ان العلاقات السياسية بين أجزاء العالم العربى لم ترتفع حتى الآن الى مستوى المسئولية القومية الكبرى ٠ ناهيك عن التيارات الاجتماعية التى تفرق بين أبناء الأسرة العربية الواحدة ٠ ومع ذلك لا يستطيع أحد أن ينكر معايشتنا ــ بطريقة أو بأخرى ــ للقومية العربية التى أثبتت وجودها برغم غياب أو ضعف العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المساعدة ٠ ولنا أن نتصور الانطلاقة التى يمكن أن تحققها القومية العربيـــة اذا

ما استمدت دفعات متجددة ومتتابعة من هذه العوامل كما يحدث فى الأمم المتحضرة والمتقدمة ٠

لقد أثبتت القومية العربية وجودها من خلال تراثها العريق الأصيل، وقيمها الروحية والأدبية ، وأنماطها الثقافية والسلوكية ، ومعاييرها التى لا ترتهن بالمادة والاقتصاد ، وتقاليدها الانسانية والحضارية ٠ كل هذا منح الأمة العربية وحدتها الثقافية والفكرية برغم كل المعوقات والسلبيات والاحباطات التى تعتور طريقها ٠ لذلك يبدو التأكيد أولا وأخيرا على أهمية العامل الاقتصادى خطرا كاهماله كلية وتجاهله تماما ٠ فالقومية تقوم دون حاجة الى هذا العامل الاقتصادى ، لكن هذا العامل ينمى القومية ويمنحها أساسا ماديا صلبا ٠ من هنا كان تأكيد جورج حنا على أن القومية وجدت قبل قيام هذا العامل الاقتصادى ، وقد تستمر على الرغم من تنافر المصالح الاقتصادية أحيانا ٠

أما فى كتاب « الانسان العربى : قديمه وجديده » فيحاول جورج حنا أن يسبر غور الانسان العربى محاولا تحديد ملامح المستقبل العربى من خلال دراسة الواقع الراهن ٠ ومثل هذه الدراسات من الأهمية بمكان لأن الانسان العربى يعيش فى عالم يعانى حيرة فى الفكر ، واختلافا فى الرأى ، واضطرابا فى النظم ، وقلقا فى الحياة ٠ وقد أثبتت هذه العوامل والتناقضات والصراعات ان النظم التى يكتب لها العيش هى النظم التى تلبى حاجة طبيعية فى حياة المجتمع ، وحاجة شعورية فى ضمائر الناس ٠ فهذه هى الحقيقة الواقعة التى سجلت عبر التاريخ ٠

فى هذا الكتاب يركز جورج حنا على القيم الروحية بصفة عامة والدينية بصفة خاصة فى ترسيخ احساس الانسان العربى بقيمته وقيمه وكيانه ٠ فالانسان العربى لا بد له الاكبار من شأن الدين وأنه يجب أن يكون سنده فى الحياة وذلك أنه مهما يكن مركزنا الاجتماعى وضيعا فان الدين يرفعنا ويكسبنا الكرامة البشرية التى نحتاج اليها كلما أرهقتنا الأحداث والتجارب ٠

وينحى جورج حنا باللائحة على الشعوب العربية لتخلفها علميا ، فالعالم العربى فى جوعه العلمى يحتاج الى الخبز أكثر مما يحتاج الى الفواكه والحلوى ٠ فعلى العرب أن يتشبثوا بأساسيات العلم الحديث قبل أن ينبهروا بقشوره التى تجعلهم يعيشون على هامش العصر ، وعلى الفتات المتساقط من موائد دول التقدم العلمى المعاصر ٠ وحب العرب للعلم ليس أمرا جديدا عليهم ، ففى الحقبة التاريخية بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر عاش العرب عصرهم الذهبى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ٠

فى هذه الحقبة كان العرب حاملى مشعل الثقافة الوحيدين بينما كانت أوروبا فى ديجور الجهل • ولعل جورج حنا كان متأثرا بدراسات المفكر العربى الكبير الأستاذ الزيات حين قال :

« وبينما كان الشرق من أدناه الى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم ، كان العرب من بحره الى محيطه يعمه فى غياهب الجهل الكثيف ، والبربرية الجموح ، وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمه حصون الأمراء المتوحشـــين من بعض الكتب وما يعلمه بعض الرهبان المساكين من قشور العلم • وانقضى القرن التاسع والقرن العاشر للميلاد وأولئك الأمراء فى قصـورهم يتبجحـون بالأمية ويرتعون فى الدماء ، وهؤلاء الرهبان فى ديورهم يمحـون الكتابة من روائع الكتب القديمة لينسخوا على صفحاتها الممحوة كتب الدين ، حتى أزال الله الغشاوة عن بعض العيون ، فرأوا من وراء هذا الظلام الداجى بقعة من المغرب تسطع فيها شمس المشرق فلما تبينوا أن البقعة هى جزء من أسبانيا ، وأن النور قبس من نور بغداد استيقظ فى نفوسهم طموح الكمال الانسانى ، فطلبوا العلم فلم يجدوه الا عند العرب » •

ويكن جورج حنا للغزالى تقديرا خاصا ليس بصفته أكبر فقهـــاء الاسلام فحسب بل بصفته رائد الفلسفة العقلية العربية ، ذلك أن جورج حنا يعتقد أن العرب اليوم فى أشد الحاجة الى استخدام عقولهم الاستخدام العلمى والعملى الصحيح • فكفانا ما فعلته بنا العواطف الجامحة والشطحات الطائشة ، ولنأخذ من الغزالى رائدا من الائمة المجتهدين ومن أحرار المفكرين فى زمن قل أن نجد فيه من يجاهر بآرائه التى تخالف آراء معاصريه الذين نسج الجمود على عقولهم غشاوة منعتهم من رؤية عصرهم على حقيقته •

ويعزو جورج حنا سبب تأخر الانسان العـــربى الى تغلب الشعور الفردى على الشعور الجماعى الذى يقعده عن العمل من أجل الجماعة التى هو جزء منها ، وبالتالى يحول دون تقدم الجماعة التى يتوقف تقدمه على تقدمها • فنحن فى العالم العربى مازلنا نفضل بين المصلحـــة الخاصة والصالح العام ، مع العلم بأن من بدهيات التقدم الحضارى التى لا تحتاج الى جدل أو نقاش أن المصلحة الخاصة جزء لا يتجزأ من الصالح العام الذى هو المحصلة النهائية للتناغم بين المصالح الخاصة • ذلك أن الصـــالح العام لا بد أن يعود على كل الأفراد بالخير والتقدم ، أما الفرد الأنانى الذى لا يرى سوى مصلحته الذاتية فلن ينال حتى هذه المصلحة لأن المناخ الاجتماعى العام سيكون له بالمرصاد نتيجة لحرمان الأفراد الآخرين من التمتع بالامتيازات الخاصة نفسها •

ويلقى جورج حنا بأعباء المسئولية الكبرى على عاتق الحكام العرب لاعتقاده أن دورهم فى الحياة السياسية للعالم العربى مازال أكثر تأثيرا وفعالية من الضغوط التى يمارسها الشعب العربى عليهم . ومع ذلك فان الحكم النهائى الذى سيصدر على تصرفات الحكام العرب سيكون عسيرا وبغاية القسوة من قاض لا يساير ولا يرحم اسمه الانسان العربى الجديد .

٢٦ ـ على حسنى الخربوطلى « مصر »

يتميز انتاج على حسنى الخربوطلى فى مجال الفكر القومى العربى بالخصوبة والغزارة . فقد نشر سلسلة من الدراسات والأبحاث التى تحلل الجذور الأولى للقومية العربية وتلقى عليها الأضواء بهدف اثبات وجودها منذ أن عرف العالم قوما اسمهم العرب . يتضح هذا الاتجاه فى كتابه «فجر القومية العربية فى القرن الأول الهجرى » ١٩٥٨ ، و « القومية العربية من الفجر الى الظهر » ١٩٥٩ ، و « محمد والقومية العربية »١٩٥٩، و « المجتمع العربى فى العصور الوسطى » ١٩٥٩ ، و « الدولة العربية الاسلامية » ١٩٦٠ ، و « العرب ورسالتهم الانسانية » ١٩٦١ ، و «الحضارة العربية الاسلامية » ١٩٦٣ ، و « البحر المتوسط بحيرة عربية » ١٩٦٣ ، و « العرب واليهود فى العصر الاسلامى » ١٩٦٣ ، و « مصر العربية الاسلامية » ١٩٦٤ ، و « العرب والحضارة » ١٩٦٦ .

وكان الدافع وراء كل هذه الانجازات الفكرية ايمان الخربوطلى بأن الشعب العربى فى كل زمان ومكان من أكثر الشعوب عراقة فى الحضارة والعرفان ، وأصالة فى التقدم والمدنية . وقد اجتمعت له أسباب ومقومات الحضارة مما لم يحظ به كثير من الشعوب الأخرى ، كما أنه أصبح لهذه الحضارة من المميزات والخصائص ما جعلها تنفرد به وتتميز به عن سائر الحضارات . أما عن حضارة العرب فى العصر الجاهلى ، فقد اعتاد بعض المؤرخين أن ينظروا اليه على أنه عصر ظلمات وفوضى . الا أنه مع تقدم الدراسات العربية ، أثبت العلماء . العرب وغير العرب ـ أنه كان للعرب فى ذلك العصر حضارة وثقافة ، ونظم اجتماعية واقتصادية ، وقد ظهرت فى بلاد العرب فى العصر الجاهلى دول ومدن متحضرة أهدت الدول المجاورة لها ألوانا من الفنون والعلوم والآداب . وأثبت العرب فى تلك الفترة تفوقا واضحا فى الميدان الاقتصادى وخاصة التجارة .

ثم ظهر الاسلام فسطعت أنوار الحضارة العربية ، فقد خلق الاسلام دوافع التقدم والمدنية ، اذ سما بالانسانية ، ورفع من كرامة الانسان العربى ودعم أسس المجتمع العربى · ودعا الى أن يكون الناس اخوة متحابين فى الحياة ، وساوى بينهم فى الحقوق والواجبات وشرع كثيرا من الشرائع الاجتماعية التى تؤدى الى تماسك المجتمع ، كما أزال الفوارق الاجتماعية بين الناس والشعوب · وظهر بين العرب شعور بالوحدة القومية أدت الى قيام الدولة العربية الاسلامية على أساس الوحدة الدينية والسياسية ·

كان ظهور الاسلام ايذانا بمولد الدولة العربية الاسلامية ، وأصبح العرب رسل الحضارة الاسلامية · وبدأوا يدخلون التاريخ من أوسع أبوابه · وعملت الدولة الوليدة على نشر الاسلام والعروبة ، فكانت الفتوحات العربية الاسلامية فى عهد أبى بكر وعمر بن الخطاب ، فتم القضاء على الدولة الفارسية ، واستولى العرب المسلمون على الشام ومصر من الدولة البيزنطية ، ثم توالت الفتوح فى العصر الأموى ، فاستولى العرب على بقية شمال أفريقية ، ثم غزوا القارة الأوروبية ، فاستولوا على شبه جزيرة أيبريا ، وجنوب فرنسا ، واستمر العرب فى غزو أوروبا حتى استولوا على جميع جزر البحر المتوسط ، مما أحال البحر المتوسـط الى جزيرة عربية ، وتبدد ظلام أوروبا أمام نور الحضارة العربية عندما أصبح العرب أساتذة للأوروبيين يلقنونهم العلم والمدنية والحريـة والمساواة وقواعـد الحكومة العادلة ·

ثم تقلص نفوذ العرب السياسى عن معظم أرجاء أوروبا ، ولكن ذلك لم يكن يعنى نهاية الحضارة العربية فى أوروبا ، فقـد ظلت التأثيرات العربية باقية · واذا كان الأوروبيون يفخرون الآن بحضارتهم الزاهرة ، فاننا نحن العرب نفخر أننا الذين وضعنا أسسها ، واللبنات الأولى فى بنائها ، وأخذنا بأيدى الأوروبيين حتى أصبحوا فيما هم عليه من رقى وتمدن · واذا أردنا أن نعود الى سابق مجدنا القومى ، فعلينا العمل الجاد المثمر من أجل مستقبل موحد متحرر يتلاءم وطبيعة الوجود القومى العربى القائم على العدالة الاجتماعية والقيم الانسانية التى واكبت الحضـارة العربية فى عصور ازدهارها ·

ويركز الخربوطلى على عدم تعارض القومية العربية مع الانسانية الشاملة ، فالقومية العربية كوجود اجتماعى تاريخى للأمة العربية لا بد أن تقوم ، ولا بد أن تستند الى أسس انسانية عميقة ، يتصـل من خلالها الشعب العربى اتصالا صحيحا طبيعيا بالانسانية كلها ، وينفعل انفعالا صادقا بآلامها وآمالها ومشاكلها وأهدافها ، ويترجم هذا الانفعال الى عمل ايجابى ومواقف عملية · والانسانية الحقة تنهض على مجموعة القوميات

المثمرة الايجابية ، ذلك أن القومية المعوجة تؤدى الى انسانية معوجة . والانسان هو ابن مجتمعه ، وهو مهيأ بحكم ارتباطه القومى بمجتمعه وأرضه وتاريخه ولغته وثقافته ، لأن ينفعل بآلام قوميته وآمالها قبل أن ينفعل بآلام وآمال القوميات الأخرى • وهو عن طريق هذا الانفعال القومى أولا ، يصل الى الانفعال الانسانى ثانيا • واذا لم يعمل الانسان على تحقيق انسانية المجموع القومى الذى يحيى فيه ويربطه التاريخ به ، لن يستطيع أن يعمل على تحقيق انسانية الانسانية جمعاء •

والقومية ليست نزعة ضيقة انعزالية ، فالقوميـــات الواعية هى وحدات اجتماعية متفاعلة ، تأخذ وتعطى ، وتزيد الحضارة الانسانية غنى وخصبا وشمولا ، والتجربة الانسانية عمقا • وبحكم الوعى الحضارى الكامن فى القومية العربية فهى ليست قومية عنصرية استعلائية عدوانية ، وليست قومية انعزالية منكمشة ، وأنها الطريق السليمة للانسانية المتحضرة • والفهم الصحيح للقومية العربية كوجود اجتماعى ، لا بد أن يوصلنا حتما الى رفض الفكرة العنصرية والجنسية فى تفسير القوميات • لأن أى وجود قومى انما يقوم على تفاعل عامل اللغـة والتاريخ والثقافـة والتقـاليد والأهداف وليس على تخيلات وهمية عن الدم والجنس ، فالوحدة القومية هى هذه الوحدة الاجتماعية التاريخية العامة ، وليست الدموية العنصرية• فهى تنهض على المساواة بين أفراد الأمة الواحدة فى الحقوق والواجبات، وعلى التوازن فى العلاقة بين الفرد والمجتمع • ان هذا الفهم القائم على ازالة الاستعلاء فى نطاق المجتمع القومى ، لا بد أن يزيل الاستعلاء نحـو القوميات الأخرى •

ويؤكد الخربوطلى العلاقة العضويـــة بين الوطـن العربى والعالم المعاصر • فالقومية العربية لون من التشـكل البشرى ، ووطننـا العربى لا يمكن أن يعتزل سائر العالم لأنه جسر بين ثلاث قارات ؛ وقوميتنا لن تستطيع أن تحيا لنفسها ، لأن كل قومية حاولت جعل ذاتها غاية لها انتهى بها الأمر الى الانتحار والاندثار • أما القـــومية العربية فهى فى جوهرها تعبر عن انسانية الأمة العربية ، تستهدف ارساء جميع العلاقات الانسانية على أسس الحق القومى والعدل والمساواة والمنفعة المتبادلة ، وهى تبلور ايجابية الحضارة العربية وبعدهـــا عن التعصب والانعزالية وتوقها للعطاء والوحدة • فالدول العربية القائمة الآن ، لم تتكون ولم تتعدد بمشيئة أهلها ، ولا بمقتضيات طبيعتها • انما تكونت وتعددت من جراء الاتفاقيات والمعاهدات المعقودة بين الدول التى تقاسمت البلاد العربية وسيطرت عليها ، كما أن الحدود الفاصلة بين الدول العربية أيضا لم تتقرر وفق مصالح البلاد وسكانها ، انما تقررت بعد مساومات بين الدول

المستعمرة ضمانا لمصالحها هي . وكل الفروق والاختلافات التى تشاهد الآن بين الدول العربية ، من حيث النظم الادارية والتشريعية والاقتصادية، والاتجاهات السياسية ، انما هى من بقايا عهود الاحتلال والاستعمار .

ان كل انسان يقيم في الوطن العربى ويشعر أنه من أبنائه ، ويؤمن بحقوقه فيه ويقوم بواجباته نحو مجتمعه الكبير ، يعتبر مواطنا عربيا ، كائنا ما كان أصله أو شكله أو مذهبه ، وله الحق فى أن يثبت وجوده كأى مواطن آخر يمكن أن ينهض على أكتافه مجتمع عربى قوى ، متكامل ، متماسك علينا أن نعد الانسان فى هذا المجتمع ليكون « المواطن العربى الصالح » . فلا يمكن أن يكون أساس المجتمع الا فى نفوس أبنائه وعلى نوعية وجودهم ، ولن توجد له قاعدة أرسخ من « المواطن العربى » الذى يتمتع بمواهب وكفايات واستعداد فطرى للحضارة والتقدم . وهـذه عملية بنائية مستمرة من أجل تدعيم صرح القومية العربية ، ولعل من أهم ما قاله الخربوطلى فى هذا المعنى ما يلى :

« ليس أخطر على حياة الوطن ومستقبله أن يقنع أبناؤه باجترار ما خلفه لهم آباؤهم من الذكريات والأمجاد ، ويجعلوا من التفاخر بها ، منصرفا تضيع فيه جهودهم العقلية . ومن ذلك ما دأبوا عليه خلال القرون الطويلة من وصف عظمة الأجداد ، يستعيضون بها عما هم فيه من فقر وتأخر . اننا لا نمانع أن يستفيد المواطن العربى من تجارب الأولين ، ولكن يجب عليه أن يدرك أنه يحيا فى الطور الصناعى من التاريخ البشرى بعد أن مضى الطور الزراعى وهو يعلم أن طوره الحاضر قد صبغ امكانياته الحيوية بصفة علمية معينة لا يمكن تجاهلها . ولذلك يجب على المواطن أن يصل الماضى المجيد بالحاضر الذى يعيش فيه ليحقق مستقبلا زاهرا » .

ويرى الخربوطلى أن القومية العربية لا بد أن تحتوى على فلسفة عملية ايجابية حيوية ، لأنها ليست مجرد شعار براق نرفعه كى نبهر به أنفسنا والآخرين ، بل حياة متكاملة نمارسها فى كل لحظة نحياها وأبرز نواحى هذه الفلسفة الايجابية ، اكتشاف مفاهيم أخلاقية ايجابية ، كلها حياة وارادة وايمان ، يستمدها المواطن من القيم الانسـانية الخالدة ، ويعطيها شكلها الملائم لظروف وطنه وحاجاته على أسـاس علمى واقعى مستمد من امكاناتنا الطبيعية وحاجاتنا البشرية . وهـذا يحتم تنظيم العلاقات بين الأفراد على أساس التعاون ، فعلى المواطن العربى أن يمد يده الى كل مواطن آخر ، وأن يتعاون معه من أجل الخير الجماعى . وهذا التعاون يشمل الأفراد والجماعات كما يشمل الصلـة بين الحكومة والمحكومين .

ولا ينحصر التعاون فى الميدان الاجتماعى ، وانما يتعداه الى الميدان الاقتصادى • وهذا يعنى أنه على كل مواطن عربى أن يؤمن بأن الوطن العربى وحدة اقتصادية متكاملة ، يكمل بعضها بعضا ، وأن يحرص على تشجيع انتاج بلاده الزراعى والصناعى ، عاملا على تحسين الانتاج والاقبال عليه حتى ينافس الانتاج العربى الانتاج المستورد • ولن يتأتى هذا الا اذا كرس كل عربى حياته وجهده وماله وخبراته لاصلاح نفسه وخدمة مجتمعه • وسواء أكان حاكما أم محكوما ، عاملا أم فلاحا ، تاجرا أم فنيا ، طالب علم أم طالب رزق ، فان واجبه الاقتصاد فى المظاهر الاستهلاكية والنفقات الكمالية • اذ أن بناء القومية العربية على أساس مادى واقتصادى متين يحتاج الى أكبر عدد ممكن من الساعات الى جانب الشجاعة والصدق فى القول والتفكير والعمل ، والنزاهة فى الوسيلة والعرض ، والمثابرة على التضحية ، والاخلاص فى التعاون •

ويلقى الخربوطلى بتبعات قومية على عاتق القادة العرب ، وهى تبعات يحدد القيام بها الفرق بين القائد المؤمن بالقومية العربية ايمانا عمليا ، والقائد الذى يتخذ منها مجرد شعار قومى براق ليخفى به أطماعه المحلية الاقليمية الضيقة فى استمراره على كرسى الحكم أطول مدة ممكنة • من هذه التبعات العمل بكل حماس على تبادل الخبرات الاقتصادية والثقافية والعلمية مع كل الاقطار العربية الأخرى ، والتعرف على ما فيها من طاقات وامكانات • واصدار القوانين التى تسهل الحركة والانتقال بين الاقطار العربية ، والتى تسهل التصاهر بين العرب ، والتى تساعد على عمليات التهجير والتوطين بين كافة البلاد العربية لتعمير أرجاء الوطن العربى وتوزيع الأيدى العاملة حسبما تقضى الحاجة اليها • وعلى القادة العرب أن يضعوا برامج علمية وطنية قومية انسانية غايتها مزج أبناء الوطن العربى ودمجهم ، وتوعية كل فرد منهم بأن كل شبر من البلاد العربية تربة صالحة لنموه واقامته • هذا التوحيد الاجتماعى ضرورة اجتماعية لا بد أن نسعى لتحقيقها ، حتى نستبدل بالطائفية والطبقية وسائر مظاهر التجزئة والتباين والتعدد ، وحدة قائمة على الشعور المشترك والاندماج الفعلى •

ويؤكد الخربوطلى أن الوطن العربى أحوج ما يكون الى مناهج التربية القومية وأسلحة العلم الحديث ، ولن يستطيع شىء أن يبعث الاستقرار والثقة والنهوض الا تربية الشخصية العربية ، وتكون وظيفة التربية كما قال افلاطون : « الاعداد الصالح للشباب ، وتضافرهم على العمل الجدى لصالحهم وصالح بلادهم » • والعلم يؤدى الى الحرية الفكرية ، والمستوى المعيشى المرتفع ، والعدالة الاجتماعية ، والنظرة الموضوعية الى الأشياء •

لذلك فان المجتمع العربى فى أشد الحاجة الى العلم لتنظيمه على أساس تحديد الواجبات ، وصيانة الحقوق ، وبناء الاقتصاد من أجل المستقبل . من هنا كانت ضرورة محو الأمية ومطاردتها فى جميع أنحاء العالم العربى، فالحياة الكريمة على مستوى العصر تستحيل مع وجودها . وعلى الرغم من أن دساتير الأقطار العربية تنص على وجوب تعليم الشعب ، فان الأمية مازالت متفشية وطاغية . ويمكننا الرجوع الى الطرق التى اتبعتها بعض الدول فى محو الأمية للاقتباس منها وللاستفادة من نتائجها .

ومما يؤسف له أن مناهج التعليم فى معظم الأقطار العربية تفتقر الى التنسيق القومى الذى يمنحها التجانس ، فكل قطر ـ مهما صغر ـ له نظامه التعليمى الخاص به المختلف عن غيره ، فى الكتب والمراجع والوسائل والغايات . بل ان هذا التقسيم موجود فى داخل القطر الواحد حيث نجد لكل فئة ولكل طبقة نوعية خاصة بها في التعليم ، وخاصة تلك النوعية المترسبة منذ أيام الاحتلال والمتمثلة في المدارس الأجنبية التى ترمى الى صبغ عقول طائفة من العرب صبغة معينة تجعلها خاضعة لها فكريا وثقافيا ولغويا . كما اتجهت بعض البلاد العربية بالتعليم اتجاها خاطئا منذ البداية . فقد كان هدفها تخريج موظفين مدنيين ، وكان هم المثقفين أن يصبحوا موظفين حكوميين ، فاذا لم يجد الواحد منهم وظيفة حكومية يعيش على راتبه منها أصبح من العاطلين . واذا وجد فالنتيجة تتمثل فى المصالح الحكومية المتخمة بالخريجين الفائضين عن الحاجة الفعلية ، فى حين أن الوطن العربى فى أمس الحاجة الى عمال فنيين ، وخبراء فى الصناعة والزراعة والتجارة . وهذا يتطلب من الحكومات العربية أن تقيم التعليم المهنى ـ الصناعى والزراعى والتجارى ـ على أسس وطيدة ، فتشيد المدارس الصناعية والزراعية ، وتجهزها بما تحتاج اليه من معدات فنية ومعامل وحقول تجارب ، وترفع من مرتبات خريجيها حتى تتغير النظرة التقليدية القديمة اليهم .

يجب أن تكون مناهج التعليم ، فى جميع المراحل ، ذات سياسة ثابتة ، واستراتيجية شاملة ؛ فلا تظل مدارسه ومعاهده ، كما هى فى بعض الاقطار العربية ، حقلا للتجارب ؛ ومجالا للتقليد الأعمى لنظم الآخرين . مما أفقد التعليم حيويته وأصالته النابعة من احتياجاتنا الفعلية وامكاناتنا المتاحة . لذلك يتحتم وضع المناهج على أساس الروح الاستقلالية الكاملة وأن تجمع بين الدراسة النظرية والفنية ، وأن تساير اختلاف الاستعدادات والميول والمواهب ، وأن تدرب النشء على كيفية استخدام عقله فى كل أمر ، وقياس كل شىء بمقياس العلم ، نتاج العقل البشرى . والعلم يدعو

الى استخدام العقل وتحكمه والاستفادة من تجـــارب الآخرين والتجـاوب معهم • ونحن الآن نعيش عصر التكنولوجيا والفضـــاء ، عصر العلم الذى تغلغل فى كل تفاصيل حياتنا ، وقد آن الأوان لكى يواكب العرب هذه الخطوات الحضارية الحاسمة التى تفتح لنا آفاق العصر التى نقف عـلى عتبتها بالفعل •

٢٧ ـ عبد المنعم خلاف « مصر »

عبد المنعم محمد خلاف من الكتاب القوميين العـــرب الذين عاصروا انتشار الفكرة القومية العربية وبذلوا ما فى وسعهم فكرا وسلوكا من أجلها • فعلى المستوى العملى اشتغل عبد المنعم خلاف مستشارا بجامعة الدول العربية منذ بدايتها ، وعلى المستوى النظرى الفكرى واكب قضايا القومية العربية بقلمه فعالج عناصر تكوين الأمة العربية وعلاقة الانسان بالأرض فيها ، وركز على فلسفة الفكرة القومية مؤكدا ارتفاعهـا فـوق الأشخاص والظروف ، وكاشفا محاولات الاستعمار لتحويل الأمة العربيـة من عملاق الى قزم ، وموضحا ضرورة القيادة الموحدة للقضية الواحدة • كذلك اهتم خلاف بموقف مصر من العروبة وأثبت تاريخيا وحضاريا عدم وجود أى تعارض بين العروبة والمصرية أما القومية العربية وصراعها مـع الاستعمار فقد أفرد لها صفحات كثيرة فى مقالاته وكتبه محللا نوعيـة المواجهة بين ارادة الحياة لدى الأمة العربية وبين الاستعمار الذى أقام أمجاده على القرصنة والسلب والنهب ، مما يوضح لنا العلاقة الخفية بين الثروة البترولية والأطماع الصهيونية :

ومن الطبيعى أن يركز عبد المنعم خلاف على القضية الفلسطينية ، وأن يتتبع تاريخها قبل النكبة وبعدها • لكن ما يخفف من وقع النكبة أن الثورة الفلسطينية أصبحت ثروة ضخمة للقومية العربية ، وذلك بعد أن كشفت عن نقطة البدء فى الاتجاه الصهيونى الى بلاد العرب ومساره فيما بعد ، ذلك أن اسرائيل ليست مجرد دولة وانما هى دولة وعقيدة • ولم يعد أمام العرب سوى أن يحكموا لأنفسهم أو عليهـا ، وفى امكـانهم اكتساب العالم المسيحى الى جانبهم لأن الصهيونية فى حقيقتها حركة دينية لتكذيب المسيحية •

ولم يقتصر اهتمام خلاف بالأمة العربية بصفة عامة بل تناول أجزاءها - كل جزء على حدة - وخاصة فى مراحلها التاريخية المصيرية نجد هذا فى معالجته لمشكلات فلسطين والعراق ومصر وسورية ولبنان والجزائر وتونس والمغرب وعمان واليمن والكويت ... الخ وقد نشرت مواكبة لهذه الأحداث فى حينها وذلك فى مجلات « الرسالة » ، و « الشبان المسلمين » ، و «العالم العربى» ، وصحف «المصرى» المصرية ، و «الأخبار» العراقية ؛ و « الجمهورية » المصرية ، و « الأهرام » وغيرها . وقد غطت هذه الكتابات قضايا العالم العربى من منتصف الثلاثينيات حتى أواخر الخمسينيات ، وجمعها الكاتب فى كتاب بعنوان « مع القومية العربية فى ربع قرن » صدر عام ١٩٥٨ .

كذلك عالج عبد المنعم خلاف قضايا أخرى تهم الانسان العربى ، فأصدر كتاب « أومن بالانسان » الذى يحتوى على نظرة جديدة الى الكون من خلال نظرة جديدة الى الانسان ، وكتاب « العقل المؤمن » الذى يتكون من بحوث فى أصول الايمان ودعوة عصرية الى تجديده ، وكتاب « الحياة صادقة » الذى يدعو الى التفاؤل فى فهم جوانب الحياة والتعرف عليها والاقبال عليها بالعمل المثمر .

وكان ايمان خلاف بالعروبة لا يتزعزع بدليل أن حماسه لها برز على أشده فى أوقات كانت مصر فى بعضها بعيدة عن العروبة ، وفى بعضها مترددة بين الاندماج فى القومية العربية والانفراد بذاتيتها والاعتزاز بالانتساب لفرعونيتها ، وفى بعضها راجحة الاتجاه الى العروبة وخاصة بعد انضمامها لجامعة الدول العربية . وهذا الايمان يجعله يطالبنا بألا نتشاءم مما يجرى بين بعض الأقطار العربية وبعضها الآخر ، من جدل وخصومة وصلت فى بعض الأحيان الى العنف والمهاترة والاتهام والشكوى لدى الأجانب والاستعانة بهم . فهذا دور يحدث فى كل أمة شعرت بوحدتها التى لا بد أن تسبقها آلام المخاض العنيفة الطويلة . والقادة السياسيون الذين طالما تلاعبوا بمصائر أقطارهم اشباعا لشهواتهم فى الحكم والسطوة والزعامة ، لا بد أن يأتى اليوم الذى تحاسبهم فيه شعوبهم على ما اقترفوه فى حقها . وخاصة أن التطور الطبيعى لمنطق الأوضاع يوضح أن الحواجز المصطنعة المفتعلة لا بد أن تنهار ، ومع انهيارها ستزول تلك الكلفة والدبلوماسية المفروضة على الشعوب الغريب بعضها عن بعض على المستوى السياسى وان كانت تشكل أمة واحدة على المستوى الشعبى.

وتتمثل مأساة القومية العربية فى وجود الواقعيين الجامدين الذين لا يعترفون بسير الزمن وصراع الأجيال واندفاعها وراء منطق التجديد ، فلا يفسحون للمجددين طريقهم فى الوقت المناسب ، بل يصطدمون بهم دائما . وهم مهزومون غالبا فى هذا الصدام والصراع . وهذا الدور

سينقضى حتما ، وهو غير لائق فى نظر المتحمسين لقضايا القومية العربية، لكنه عند التفكير العميق يبدو كأنه لا بد منه لاتمام عملية « لحام » فى الشعور القومى بين الشعوب العربية ، بعد أن مضى على ذلك الشعور دور طويل من الانفصال · ولولا هذا الدور وعنفه وحدته لما وصل الادراك والوعى القومى لدى الجماهير بسرعة الى أعماق الشعور والاهتمام والايمان·

وينفى عبد المنعم خلاف وجود أية علاقة بين القومية العربية والعصبية الجاهلية بكل ضيقها وسفاهتها · فالعروبة ــ كما كانت دائما ــ أداة اخاء للبشرية وتوكيد لوحدتها · ولذلك ينبه أخواننا من الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية الى هذه الحقيقة ، حتى يستيقنوا أننا لا نريد مفاخــرة ولا منافرة جنسية دموية قائمة على زعم فروق جوهريــة بين الأجناس والألوان ، وانما هى دعوة للعرب الى الاعتداد والتمسك بالمثل العليا التى امتازوا بها ، وبالصفات الطبيعية العربية العليا التى كانت سندا لهــذه المثل · فقد كتب لهذه الأمة من الدوام والاستمرار ما ليس لغيرها من الأمم ، اذ أن الوشائج بين حاضرها الراهن وماضيها الموغل فى القدم وشائج تزداد قوة بمرور الأيام · فلا تزال مشيختها فى الجاهلية تحدث شبيبتها فى عصر العلم حديثا يصل الى أعماق الصدور والوجدان ، بلغة كتب لها وحدها أن تحتفظ بكيانها المبين الرائع ، وأسلوبهــا المنطقى الواضح ، وتفريعها الدقيق المطرد المتناسق · ولا تزال مواقف الشرف والنجدة والمروءة التى وقفها أبطالها الأقدمون تعرض على عيــون أحداثها الناشئين فى لوحات حية من الشعر الطبيعى الصادق الزاخر بالفن والجمال·

ان هذه البقعة التى سكنها العرب من المحيط الى الخليج ، كانت دائما ملتقى مد الموجات البشرية بكل ما تحمل من حضارات ، كما هى ملتقى القارات فى القديم والحديث · والأهم من هذا كله أنها كانت دائما بوتقة يصهر فيها خليط من أجناس البشر بكل مواريثهم من تراث وتقاليد ، ليخرج منها مزيج فيه من البشر جميعا ما يمثلهم جميعا ويرضيهم جميعا · من هنا كانت سماحة القومية العربية واتساع نظرتها للأجناس الأخرى ، فهى مع اعتزازها بنفسها لم تنكر على غيرها من القوميات ما عندها من مواريث ، ولم تتعقب ضدها تلك العصبية التى تجعل الحق حقين ، تزن بواحد لنفسها وتزن بالآخر لغيرها ·

وهذا دليل ملموس على أن الأمة العربية أمة قوية الشخصية لا تغنى فى غيرها وانما تفنيه فيها · تفرض شخصيتها بدون ارغام ولا قــوة مادية ، وانما بتلك القوى التى تملك القلوب والعقول ، بالأخلاق والأفكار والمثل والمعاملات العادلة المنصفة والفطرة السليمة البسيطة المحببة الى قلوب الجماهير · وهذه الخصائص تفسر لنا السر الذى جعل قوميات عريقــة

متحضرة تذوب فى هذه القومية الفتية ، وتتنازل لهـا عن خصـائصها ومقوماتها وتندمج فيها وتعتز بها ٠

وقد حسب أعداء هذه القومية أنهم ببعثهم النعرات الوطنية الضيقة بين البلاد العربية ، ودعوة العراق الى الآشورية ، وسوريا ولبنان الى الفينيقية ، ومصر الى الفرعونية ، وشمال أفريقيا الى القرطـاجنية ، سيقطعون ما بقى بين هذه الأقطار من صلات ويضعون بينها ألغاما كتلك الألغام بين الجرمانية والفرنسية واللاتينيـة والسـكسونية ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون أن الأشوريين والفينيقيين والفراعنة والقرطاجنيين انما هم موجات عربية قذف بها المهد الأول للعرب الى تلك البقاع الشاسعة ٠

ويؤكد عبد المنعم خلاف على ضرورة القيادة الموحدة للأمة العربية ٠ قيادة لا تفرض فرضا بل تتكون من رجال القمة فى الفكر والخلق والتمرس بفلسفة القومية وجوهرها ، ويختارون من الذين يدين العرب جميعا لهـم بالثقة وبعد النظر ، وتقابل توجيهاتهم بالطاعة والارتياح ، لما لهم من ماضى الكفاح والجهاد والتعبير عن ارادة الأمة العربية كلهـا ، وفلسفة حياتهم ٠ وتمثل هذه القيادة فى كل الأنظمة السياسية فى كل قطر من الأقطار العربية ، فلا يخرج عن طاعتها الا الخوارج على ارادة الأمة كلها ٠ وقد يقال ان للعرب الآن زعماء محليين فى أوطانهم الخاصة ، لكن الواقع يثبت أن بعض زعامات الشعوب العربية قد استوى فى مستوى رجال الحكم الذين ترفعهم الحزبية أو المنصب الى معـالجة تلك الشئون الهامة من القضية العربية بتلك الروح الضيقة أو الزمنية التى تخضع للواقعيـة وفلسفتها ٠ وليس لها من سعة الأفق وامتداد النظر وطبيعة الاصرار على الأهداف والغيرة عليها ما يؤهلها أن تمثل ارادة الأمة العربية وخاصة فى ظل الظروف الحرجة المصيرية التى تمر بها بصفة شبه مستمرة ٠ وقد جربت الأمة العربية هذا الطراز من الزعامات فلم يسعف آمالها أو يحسن التعبير عن ارادتها ، ولم يشعر أنها وراءه تسنده وتعضده ، فلم يطلب منها بذلا وتضحية ٠

ومع ذلك فيجب ألا نغمط هذه الزعامات كلها حقها ، ففيها بقية صالحة أثبتت التجارب أنها صدقت ما عاهدت الله عليه ، ولكنها أدت دورها الزمنى وليس فى مقدورها أن تساير عجلة التطور الذى طرأ على الفكرة العربية بعد شق قلب الأمة العربية ووضع الخنجر الصهيونى فيه ٠ لذلك يجب أن يكون بجانبها طراز أشد منها فتوة وأوسـع مذهبا فى أساليب الكفاح وأقدر على الهاب الجماهير العربية وارهاف حساسيتهـا بالأخطار الداخلية والخارجية التى تهددها والتى لا بد أن تجمع لها جميع أسلحة الكفاح السياسى والاقتصادى والعسكرى اذا استدعى الأمر ٠

٢٨ ــ رئيف خورى « لبنان »

ينهض مفهوم رئيف خورى للقومية العربية على أساس واقعى مادى عملى يرتبط ارتباطا مباشرا بالمصالح الدنيوية المشتركة بين العرب ، ويرفض كل الاتجاهات المثالية والصوفية التى حاولت احاطــة القومية العربية بمطلقات فلسفية تجريدية قد تبدو رائعة ومبهرة ، لكنها قد لا تصمد أمام تقلبات الأمر الواقع وخاصة على الأرض العربية المضطربة • لذلك يرتبط الوعى القومى عند رئيف خورى بمدى استيعاب الانسان العربى ومعالجته لمعطيات الموقف الراهن بهدف توجيهه للصالح العربى العام • واذا لم تسعفه المثل التقليدية فى القيام بهذه المهمة القومية ، فعليه أن يبتكر من الحلول العملية والأساليب العلمية ما يخدمه فى غرضه هــذا فالحاجات المادية والدنيوية هى التى تتحكم فى فكر الانســـان العــادى وسلوكه ، قبل أن يلتفت لرسالته الأخلاقية المثالية فى هـــذه الحياة • والمفكر القومى الذى يضع حاجات قومه المادية والدنيويـــة فى اعتباره ــ أولا ــ قادر على تحريك الشعب لتحقيق الأهداف القومية الاستراتيجية • ومن الواضح أن كتاب رئيف خورى « معالم الوعى القومى » الذى صدر فى عام ١٩٤١ ، يدور حول هذه الفلسفة القــومية المــادية العمليــة التجريبية •

ولعل ريادة رئيف خورى فى الفكر القومى العربى تكمن فى أنه عالج القضايا المادية الواقعية بصراحة ووضوح لم نجدهما فى كتابات الذين أتوا قبله • ذلك أن فى الشخصية العربية حساسية تقليدية تجاه الأمور المادية الصريحة ، مما يجعلها تهرب منها الى القضايا الفكرية والروحيــة والمثالية والصوفية • ولكن غالبا ما يؤدى هذا الى انفصام فى الشخصية ، فالانسان جسد كما هو روح ، مادة كما هو فكر • واذا لم تلب الحاجات

الجسدية والمادية فان التبشير بالمبادىء الفكرية والاتجاهات الروحية أمر مشكوك فيه . فمن المستحيل مثلا التبشير بالقومية العربية بين جياع تنقصهم أساسيات الوجود الانسانى . والقومية بطبيعتها تتكون وتنمو مع تطور الحاجات الدنيوية ، فالفكر والمادة وجهان لعملة واحدة هى : الوجود الانسانى المتكامل .

من هنا كان رئيف خورى يفضل الحديث عن حاجات العرب الخاصة بدلا من الحديث عن رسالة العرب الخاصة . فالشعب الذى يعجز عن الوفاء بحاجاته لا يمكن أن يؤدى أية رسالة سواء لنفسه أو للبشرية . والفكرة القومية ليست شعارات معلقة فى الجو مثل أعلام ولافتات المهرجانات ، بل هى تفاعل مستمر مع الواقع وممارسة يومية على كـــل المستويـات الحياتية . فاذا ألقينا نظرة على تاريخ الأمم الحديثة ، نجد أن القوميات لم تكن متوقفة جميعها ، على صوغ فلسفات قومية خاصة ، بالرغم من أن بعض كبار المفكرين ساهموا مساهمة عظيمة فى رفعة هذه القوميات . بل ان الواقع يؤكد أنه كلما طال الاستمرار القومى لشعب ما ، قلت حاجته الى فلسفة قومية ، ذلك لأن الممارسة المستمرة لأية أمة من الأمم يعطيهـا القدرة على امتصاص توترات الأجيال المتعاقبة دون دخول فى متاهـــات جانبية . أى أن القومية تتحول الى سلوك يومى للأفراد دون حاجة الى الحديث المستمر عنها لتأكيدها ، بمعنى آخر فان الفلسفة القومية تنتقل من بطون الكتب وعقول المفكرين الى وجدان الجماهير ، وتتجسد فى سلوكها التلقائى .

واذا كانت الغاية من الفلسفة القومية ، اكتشاف الذات ، فليست هناك قضية أخطر وأكثر الحاحا من هذه ، لأن واجب الأمة كالفرد ، أن تبدأ بمعرفة نفسها . والأمة لا ترى نفسها فى دوار الانتقال والتحول رؤيــة واضحة محددة ، بل يعكر رؤياها الاضطراب والضباب ، وتتشابه عليها الأشياء وتكون عندئذ فى حاجة ماسة الى رجال يستطيعون ، بما أوتوا من نظر ثاقب فى روح الماضى ، وفهم لمشاكل الحـــاضر ، وادراك صحيح للمستقبل ، أن يضعوا مجموعة متناسقة ، منسجمة من الأفكار والمطامح ، ويمدوا الأمة بالقيادة الحكيمة فى عملية اقامة البناء من جديد . وبهذا المعنى يحتاج العرب الى فلسفة قومية . لكن رئيف خورى يحذر من أن قادة الفكر سيطلعون بمائة فلسفة ، اذا هم كرسوا جهـــودهم لايجـــاد فلسفة قومية . فهو ضد الافتعال والتصنع الناتجين عن فصل الفكر المجرد عن التجربة المادية . فالفلسفة القومية هى فى حقيقتها بلورة لما هو دائر بالفعل على أرض الواقع الراهن ، ومحاولة لتقويمه اذا خـــرج عن اطار

المصلحة المادية المشتركة لأفراد الأمة • والعبرة دائما بالمحصلة النهائية التى تعود على الجميع بالخير العميم •

ويبدو أن رئيف خورى يقف ضد كل الهالات المثالية والرومانسية التى يفتعلها بعض المفكرين القوميين حول قضايا القومية العربية • فهو يعترض على استخدام عبارات مثل « نبوغ اللغة الخاص ، والميزات التى تنفرد بها » فيقول : « ليس للغة تفوق خاص بها ، منقطع عن أحوال القوم الذين يتكلمون بها ، وعن مرحلة تطورهم الاقتصادى وعما يساوق ذلك من أوضاع اجتماعية وسياسية » • ثم يستشهد بتاريخ اللغة العربية نفسها لتأييد تفسيره المادى :

« فهى فى دور البداوة مطبوعة بطابع المجتمع البدوى ووسائل الحياة فيه وعاداته وذهنيته ، فلما أبحر العرب فى العمران ، فى الدور العباسى، اتسعت اللغة باتساع آفاق الحياة ماديا ومعنويا حتى أصبحت أداة الثقافة الرئيسية فى العالم • ثم لما تأخر العرب ، أخـــذت تضيق لغتنا حتى وجدناها على ما هى عليه من القصور ، قصور عن الاحاطة بمبتدعات العلم الحديث وما أثمرته الحياة العقلية الحديثة فى الأمم المتقدمة » •

ثم يصل رئيف خورى الى هذه النتيجة العملية التى تتمثل فى « أنه لا يمكن رد تقدم اللغة العربية ابان الازدهار العربى ، أو تأخرها فيما بعد ، الى تفوق أو قصور خاص » • فاللغة فى نظره مرآة لحضارة الأمة ، فتطورها أو ازدهارها أو تدهورها من تطور الحضـــارة وازدهـــارها أو تدهورها • انها كيان على ألسنة الناس وفى داخل حياتهم الشعورية واللاشعورية وليست مجرد قوالب جامدة فى بطون الكتب وفى تحليلات فقهاء اللغة • ولا شك أن اللغة العربية رزحت تحت وطأة قرون خمسة من الجمود والتحجر ، تلك القرون التى باعدت بينها وبين الاكتشافات الحديثة وغير ذلك من حقول المعرفة الانسانية • وكان تخلفها كبيرا ، بحيث يستلزم جهودا أكثر مما يبذل الآن فى مختلف المجـامع العلميـة والجامعات ، اذا أريد سد تلك الثغرة ، وأريد للعربية أن تسترد مكانتها الصحيحة كأداة حية لحياة قومية جديدة • صحيح أنه حدث تقدم هائل فى هذا المجال منذ أوائل هذا القرن لكن اللغة العربية لم تكتسب بعد المرونة الكافية التى تجعلنا نستغنى تماما عن استخدام اللغات الأجنبية •

بهذا المنهج الفكرى العملى يتناول رئيف خورى كل قضايا القومية العربية رافضا كل الحساسيات التقليدية • فالعرب فى أشد الحاجة الى النظرة البراجماتية ، بل انه يرفض اعتبار المصلحة المشتركة قضية من قضايا الحياة القومية التى لا تقبل المناقشة ، لأنها بذلك يمكن أن تتحول

الى صنم من الأصنام المثالية التى يجب ألا تمس من بعيد أو من قريب ٠ ان معنى المصالح المشتركة بين مختلف الجماعات والفئات فى أمة ما ، يوحى بأن مصير هذه الأمة يتوقف على استمرارية هذه المصالح ، أما اذا تضاربت هذه المصالح فان الأمة تتوقف عن أن تكون أمة ٠ ويخلص رئيف خورى من ذلك الى القول : « اننا فى نظرنا العلمى الصحيح الى الأمة ، ينبغى أن لا نتحدث عن « مصالح حاضرة ومقبلة » شاملة عامة ٠ بل عن مصالح تشترك فيها أكثرية الأمة فى دور معين من أدوارهـا » ٠ فاذا تعارضت مصلحة فرد أو جماعة أو فئة مع مصلحة الأمة ، فلا بد أن تكون الأولوية للمصلحة التى تشترك فيها أكثرية الأمة ، لكن هـذه المصلحة أيضا مرتهنة بدورها المعين وليست لها صفة مطلقة بل تخضع للمتغيرات القومية والانسانية ٠ فالمصلحة سواء كانت ذاتية أو موضوعية ، فردية أو قومية لا بد أن تخضع لنسبية الظروف العملية ، ولذلك يتحتم على العقل العربى أن يكون دائم التفكير والتمحيص حتى يستوعب أبعاد هذه الظروف المتغيرة ويخضعها للصالح العربى العام ٠ أما اذا ركن الى المقولات المطلقة الثابتة فسوف يتجمد ويتحجر ويفوته موكب الحضارة المعاصرة ٠

ويمكن ايجاز مفهوم رئيف خورى للقومية العربية فى أنه مفهـوم ديناميكى يرفض كل القوالب الاستاتيكية التى أغرم بها معظم العرب ٠ فكل شىء يتبدل ويتغير من حولنا ، ونحن بدورنا نتبدل ونتغير سـواء شئنا أم لم نشأ ، من هنا كانت ضرورة تحكمنا فى مسار تغيرنا على أقل تقدير ، حتى لا تجرفنا التيارات والأعاصير التى تهب علينا من الخارج فى حين نظن أننا أكثر الأقوام ثباتا ورسوخا ٠٠ لذلـك يخرج رئيف خورى عنصرى العرق والدين من مقومات القومية العربية لأنهما من المطلقات التى لا تقبل الجدل ، ويضع تعريفا للأمة :

« انها جماعة بشرية عاش بعضها مع بعض ، أمدا طويلا ، فهى قد تألفت بسير التاريخ ، يشد كيانها اللغـة والأرض المشتركـة والحياة الاقتصادية ، والعادات والتقاليد » ٠

ويستشهد رئيف خورى بالتاريخ العربى نفسه للتدليل على نظرته الديناميكية للقومية العربية ، فيقول ان المهمة القومية الملقاة على عاتق العرب الآن تختلف تماما عن تلك التى قاموا بها يوم قدموا انجـازاتهم الحضارية للعالم كله ٠ فلا شك أن الأوضاع فى العالم اليوم ، تختلف عن أوضاع القرون الوسطى حين كان العرب منارة للحضارة وسط الشعوب الأخرى التى كانت غارقة فى ظلام العصور الوسطى بكل ما تنطوى عليه

من تخلف وانحطاط شاملين · ومن الواضح أن العرب لا يستطيعون أن يؤدوا هذه الرسالة التى يحددها لهم بعض مفكرى القومية العربية فى العصر الحديث ، الا اذا أصابت الغرب نكسة ارتد بها مجددا الى ما يشبه حاله فى القرون الوسطى · لذلك يتحتم على العرب المعاصرين أن يتمسكوا بالنظرة العملية الواقعية بحيث يدركون كل أبعاد ظروفهم الراهنة وامكاناتهم المتاحة ثم الأهداف القومية التى يمكن تحقيقها بناء على هذه الظروف والامكانات · أما التشدق بالشعارات الرومانسية والمثاليات المطلقة والأمجاد الماضية فمن شأنه ادخال الأمة فى دائرة اجترار الأوهام وأضغاث الأحلام ·

٢٩ ـ محمد عزة دروزة « لبنان »

من مؤلفات محمد عزة دروزة يتضح لنا ما أضافه من أبعاد واجتهادات الى الفكر القومى العربى ٠ فقد قدم دراسة مستفيضة عن قضايا الوحدة فى كتابه « الوحدة العربية » عام ١٩٥٧ ، ثم حلل أبعاد النكبة الفلسطينية فى دراسته « مأساة فلسطين » عام ١٩٥٩ حيث حذر العرب جميعا من أنهم اذا لم يستوعبوا هذا الدرس القاسى المأسوى ، فيمكن أن تتحول الأمة العربية كلها الى فلسطين جديدة ، سواء على يد اسرائيل أو على يد القوى الخارجية الأخرى الطامعة فى ثرواتها وامكاناتها الاستراتيجية الهائلة ٠ أما فى كتابه « عروبة مصر قبل الاسلام وبعده » عام ١٩٦٣ فيضيف اجتهادات علمية خصبة الى كل الدراسات التى دارت حول عروبة مصر على مر التاريخ وفى مختلف الظروف ٠

يشتمل كتاب « الوحدة العربية » على أبحاث مستفيضة فى معالم الوطن العربى الكبير ومقومات وحدته كما يدل على ذلك عنوانه الفرعى ٠٠ فقد حرص محمد عزة دروزة على تحليل تاريخ القومية العربية بصورة مفصلة ، ايمانا منه بأن لكل فكرة ، أو فلسفة ، أو عقيدة ؛ تاريخا خاصا بها ؛ وان استكمال دراستها علميا يدعونا للنظر الثاقب فى هذا التاريخ ، ومعرفة مراحله الأساسية ، والأحداث المصيرية التى أثرت على سيرها ٠ لذلك يتتبع بدايات ظهور القومية العربية ويستمر فى السرد التاريخى والتحليل المنهجى الى أن يصل الى المراحل الأخيرة التى مرت بها القومية العربية الى أن بلغت مرحلتها المعاصرة لتاليف الكتاب (١٩٥٧) أى فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين ٠

وكان من الطبيعى أن يقدم دروزة خلفية عريضة لأهم الأحداث والتطورات الفكرية والاجتماعية والثقافية التى مرت بها الأمة العربية فى العصر الحديث ٠ ذلك أن الأحداث التاريخية تشكل مع غيرها من المواقف

الحضارية الأخرى نسيجا متسقا يبلور الكيان القومي للأمة • ولا شك أن هذه الدراسة التاريخية مفيدة وضرورية لفهم القومية العربية على وجهها الصحيح ، ولذلك استطاع دروزة من خلالها اثبات أن للعرب على اختلاف أديانهم ، وتعدد أجيالهم تاريخا عاما مشتركا ، وبقى العربى يحس بوحدته، على الرغم من كل العوامل السياسية والمحلية التى كانت تفرض عليه شعور الفرقة والانعزال والانفصال فى أحايين كثيرة • لقد بقى هذا التاريخ يجمع شملهم ، ويثير فيهم معانى الأخوة الروحية ، أو على الأدق ، الأخوة القومية الناتجة عن هذه القيم المعنوية والروحية على الرغم من كل الاعتبارات والمعوقات والصفات الأخرى •

ويوضح دروزة كيف أثبتت الوحدة العربية وجودها الفعلى عندما انقسمت الخلافة الاسلامية وخرج عن سلطان الخليفة العباسى بعض الولاة والأمراء • فقد بقى المواطنون جميعا يشعرون بهذه الوحدة • وغدا مقام الخلافة ذا معنى دينى وسياسى معا • وصار الناس لا يرون لقيام سلطان محلى فى اقليم ، أو لتغلب متغلب على سلطان الخليفة ، مبررا شرعيا الا اذا اقترن ذلك بموافقة صاحب هذا المقام ، مما كان يضطر المستبدون الطامحون والمتغلبون الى الحصول على هذه الموافقة والرضاء للبقاء فى نطاق وحدة الدولة العام ، والى قبول مظاهرها المذكورة ، فتكون عنوانا لهذه الوحدة بمعنى من المعانى ، وتظل فيه الوحدة الاجتماعية والروحية واللغوية دائمة موجودة مهما يكن من أمر وهن مظهر روابط الوحدة السياسية والاقتصادية والتنفيذية •

ولقد استقصى دروزة بحث الوحدة التاريخية والسياسية بين العرب فى مختلف العصور – بما فى ذلك القرون الأولى – وتوصل الى النتيجة التالية : « ان الوحدة كانت تتوطد بشكل من الاشكال كليا أو جزئيا بين أجزاء الوطن العربى فى مختلف حقب التاريخ القديم والمتوسط والحديث تحت راية الدول التى تقوم فيه حقبة بعد حقبة سواء كانت دولا عربية الجنس أو لا » •

واذا كان دروزة قد أوضح أن التاريخ العربى منذ ظهور الاسلام كان بمثابة التاريخ المشترك لأبناء الأمة العربية حتى اليوم ، وذلك نتيجة لحلقاته الموصولة ، ومؤثراته الفعالة التى لا سبيل لنكرانها فى حياتنا الراهنة ، فان جذور الوعي القومى العربى قد بدأت فى الجزيرة العربية قبل الاسلام • يتضح هذا فى توحد اللهجات القبلية المختلفة أو تقاربها ، وتحول لغة الشمال – لغة مضر – الى لغة الأدب والشعر كما تمثله المعلقات ، وما تبقى لنا من الشعر العربى الجاهلى • هذه اللهجات والآداب بلورت الأسس القومية المشتركة ، وكان هذا الوعى القومى قد أخذ شكلا

سياسيا عند اصطدام القبائل العربية على أطراف الجزيرة لطرد المغيرين من الأعاجم ٠

وعندما جاء الاسلام رسخت هذه الأسس القومية المشتركة فى تربة الوطن العربى ، وتضاعف الوعى القومى والسياسى بحيث أصبح الدين الجديد قوة دافعة لحركة القومية العربية ٠ فلم يحدث أى تعارض بين الدين والقومية ، ولم يحدث أن انعزل الدين عن الحياة العامة ، أو ضعف أثره فى حياة الجماعة الخاصة والعامة ٠ وقد لا تكون وحدة المعتقد الدينى حتمية لقيام الوحدة القومية ، بمعنى أن الأمة الواحدة ، تبقى أمة واحدة وان اختلفت عقائد أبنائها الدينية ، لكن هذا لا يمنع من أن تتحول الوحدة الدينية أو الروحية الى طاقة خلاقة لتجديد حركة القومية العربية ٠ فى هذا يقول دروزة :

« قد لا تكون الوحدة الدينية أو الروحية فى الحضارة الاجتماعية الحديثة ضرورة لقيام الوحدة السياسية أو ركنا من أركانها ، حيث تتوطد اليوم هذه الوحدة فى كثير من البلاد التى تتعدد فيها الأديان والنحل والمذاهب ، غير أنه لا ينكر أن هذا التعدد كان الى ما قبل مائة سنة عقبة فى طريق الوحدة ، كما أن توفر الوحدة الدينية والروحية فى وطن ما يجعل قيام الوحدة بين أبنائه وأجزائه أيسر تحقيقا وأدعى الى التوافق والترابط بين أبناء الوطن وأجزائه » ٠

ولا يركز دروزة مفهومه للوحدة الدينية والروحية على الجانب الغيبى أو السلوك التعبدى للدين ، أى على كل ما يفرضه الدين من عقائد وفرائض وواجبات وعبادات وطقوس ، بل يركزه على المعنى الأشمل للدين ، وخاصة الدين الاسلامى ، الذى له بالاضافة الى معناه العقائدى ؛ معان تشريعية ، وحضارية ؛ وفلسفية ٠ لذلك يدخل فى صميم حياة العرب، ويكون جزءا حيويا فعالا من تاريخ الأمة العربية وحضارتها وآدابها ، ومن ثم يعتبر جزءا من الوحدة التاريخية والحضارية للعرب جميعا ، سواء كانوا مسلمين أو غير ذلك ٠

وينتقل دروزة من التاريخ العربى القديم الى التاريخ العربى الحديث فيوضح الدور الخبيث الذى لعبه الاستعمار البريطانى فى مصر بصفة خاصة وفى العالم العربى بصفة عامة ٠ فقد كانت ضربات الاستعمار البريطانى موجهة أساسا الى مراكز العصب الحساس فى الأمة العربية حتى يجعلوا منها جثة هامدة ينهبون منها ما يشاءون ٠ وكان الجيش المصرى ـ بصفة خاصة ـ هدفا لهم فانقصوا عدد الجيش الى النصف وجعلوا زعامته بين يدى قائد انجليزى يساعده عدد كبير من الضباط

الانجليز ، وخفضوا من مستوى المدرسة الحربية ، وعطلوا المصانع الحربية التي أنشأها محمد علي كما عطلوا الأسطول وألغوا المدرسة البحرية ٠

ومن الواضح أن الاستعمار البريطاني منذ احتلاله لمصر عام ١٨٨٢ كان مدركا لخطورة الفكرة القومية العربية التي يمكن أن تجمع مصر والأقطار العربية في وحدة قومية يمكن أن تودى به في النهاية ، لذلك عمل جادا على تحطيمها بأساليبه المباشرة والملتوية على حد سواء ٠ ونظرا لأهمية مصر وأثرها على المنطقة العربية حرص الاستعمار البريطاني على فصلها عن سائر الأقطار العربية وكانت خطته تغطي ميادين مختلفة ومجالات متعددة سواء من الناحية السياسية أو العسكرية أو التعليمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية ٠

وتجلت هذه السياسة الاستعمارية في المحاولات المستميتة التي أدت في النهاية الى تفتيت وحدة وادي النيل بين مصر والسودان ، وذلك على الرغم من حماس كل من المصريين والسودانيين لها وتمسكهم بها ٠ يتتبع دروزة هذا الاهتمام عند السودانيين منذ عام ١٩٢٠ عندما تبنته جمعية الاتحاد ، ثم جمعية سميت باسم « جمعية اللواء الأبيض » بقيادة الضابط علي عبد اللطيف ، وقد سعت كلها الى مقاومة الاستعمار ووحدة وادي النيل ٠ فقد خشيت بريطانيا من أن تتحول الوحدة بين مصر والسودان الى نموذج تحتذيه الأقطار العربية الأخرى مما يهدد بظهور التكتلات المعادية للاستعمار ، بل وربما تجمعت هذه التكتلات في نهاية الأمر في تكتل ضخم عملاق يستطيع أن يقلع الاستعمار من جذوره ٠ لذلك اتبعت بريطانيا سياسة « فرق تسد » بين الأشقاء العرب بنفس الدرجة التي طبقت بها هذه السياسة البغيضة بين الاخوة المواطنين داخل القطر العربي الواحد ٠

وقد ساعد المنهج العلمي الموضوعي دروزة على التخلص من كل الحساسيات التقليدية التي قد تصيب بعض الباحثين بالحرج فيحاولون تجنب ذكر بعض الوقائع أو تلوين بعض المواقف أو التخفيف من وقعها ٠ فعندما يتناول دروزة الهدنة المشئومة التي استسلم لها العرب في حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ ، يقول انه باتفاق كل المؤرخين والساسة والقادة العرب ، كانت الهدنة بداية النكبة ، ففي الوقت الذي انفتح الباب على آخره لمساندة اسرائيل بالمال والسلاح والخبراء العسكريين أوصد هذا الباب أمام العرب كلية ٠ فتدفقت على اسرائيل المدافع والدبابات والطائرات ، وكل الأسلحة الحديثة من الدول الغربية وخاصة من تشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة وبريطانيا ، بحرا وجوا من كل صوب ، ولم يجد العرب غير الأسلحة الفاسدة ٠

هكذا كانت قوى الاستعمار بالمرصاد لأية بشائر توحى بنمو الفكرة القومية العربية فى أية بقعة من بقاع العالم العربى · ويوضح دروزة أن مأساة الوحدة العربية أنها كانت دائما مهددة من خارج الوطن العربى كما هى مهددة من داخله تماما · ومع ذلك ظلت الوحدة العربية الأمل الذى يراود كل العرب المخلصين ويعملون قدر طاقتهم من أجله · ولعل صمود جذوة هذا الأمل فى وجه كل هذه الأعاصير يقدم الدليل المادى الملموس على أصالة هذه الوحدة التى تكمن فى كل النفوس العربية ، ولا تحتاج إلا الى ترجمة عملية تطبيقية تنفيذية حتى يشعر العالم بالقوة العربية الحقيقية ·

٣٠ ـ وحيد رأفت « مصر »

يبدو الانجاز الفكرى الذى قام به وحيد رأفت فى مجال الدفاع عن قضايا القومية العربية متمثلا فى وقوفه بالمرصاد ضد كل محاولات عزل مصر عن الأمة العربية تحت دعاوى الحياد والبناء الداخلى وتدعيم القوة الوطنية وغير ذلك من الدعاوى التى تبدو شعارات حق يراد بها باطل ٠ ان قوة مصر لا تنفصل عن قوة العرب ، ومثل هذه الدعاوى ـ على أحسن الفروض ـ لا ترتبط بواقع الحياة ونبض الجماهير ، ومرفوضة بحكم موقع مصر الجغرافى وتاريخها الطويل ، ذلك أنها تتغاضى عن متطلبات العصر الذى نعيشه وتتشابك فيه مصالح الدول كبيرها وصغيرها ، وعن الملابسات والظروف المحيطة بمصر أو المفروضة عليها شاءت أم لم تشأ ٠

ووحيد رأفت ـ بصفته أحد كبار رواد الدراسات القانونية فى العالم العربى ـ يضع علمه وخبرته الطويلة فى خدمة البناء القانونى والدستورى للقومية العربية ٠ من هنا كانت مقالته « الحياد المرفوض » التى نشرها فى جريدة « الأخبار » بتاريخ ١١ مارس ١٩٧٨ وأوضح فيها أن الذين يتمنون تطبيق حياد سويسرا أو النمسا على مصر لا يعرفون الأبعاد السياسية والقانونية والجغرافية والتاريخية والاقتصادية والحضارية لمفهوم الحياد ٠ فالقياس على سويسرا والنمسا قياس مع الفارق ٠ فسويسرا دولة صغيرة تحيط بها الجبال من كل جانب ، تتكسر على قممها الشوامخ أطماع الدول المجاورة ، كما أن لأوروبا مصلحة حقيقية فى الابقاء على سويسرا فى حالة حياد دائم كواحة سلام وسط قارة تتنازعها التيارات والأعاصير ٠

لذلك اعترف بالحياد الدائم لسويسرا منذ عدة قرون وارتضاها العالم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى مقرا لعصبة الأمم وما زالت حتى

اليوم موطنا للمقر الأوروبى للأمم المتحدة والعديد من المنظمـات الدولية وهيئة الصليب الأحمر التى تعمل بجهودها ومؤتمراتها الدوريـة علـى التخفيف من ويلات الحروب والكوارث وتقنين أحـكام القانـون الدولى الانسانى ٠ أما النمسا فقد فرضت عليها الدول المنتصرة فى الحـرب العالمية الأولى بعد أن تقلصت من امبراطورية عظمى تضم النمسا والمجر وأجزاء كبيرة من وسط أوروبا الى دولة صغيرة مهيضـة الجنـاح — ألا تتورط فى علاقات دولية تعرض استقلالها للخطر ، وتهدم التوازن الأوروبى الجديد ٠ ولم يحل شبه الحياد الذى فرض على النمسا فى عام ١٩١٩ دون ابتلاع ألمانيا النازية للنمسا فى مارس ١٩٣٨ ٠ واذا كانت معاهدة الصلح المعقودة فى عام ١٩٤٧مع النمسا بعد تحريرها من السيطرة النازية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية قد فرضت على النمسـا من جديد حالة شبيهة بالحياد لكيلا تنحاز لأى من المعسكرين الشرقى أو الغربى فان حيادها هذا رهين بمشيئة قوات حلف وارسو التى يمكنها اكتساح النمسا فى بضع ساعات كما اكتسحها النازيون فى مارس ١٩٣٨ ٠

أما موقع مصر الجغرافى عند ملتقى قارات ثلاث فيتنافى تماما مع فكرة الحياد ، بل يجعل من مصر عبر تاريخها الطويل مصدر جذب لانظار الطامعين من الغزاة والفاتحين الوافدين من الشرق أو الجنوب أو الغرب٠ كما فرض على مصر عدم الالتزام بموقف الدفاع وايثار الهجوم فى كثير من الأحيان لحماية ترابها ودفع الخطر عنه قبل وصوله الى حدودها ٠ فكيف نطلب من مصر أن تصبح محايدة تجاه أشقـائها العرب ، فى حين أن موقعها وتاريخها يحتمان عليها أن ترفض هذا الحياد المصطنع تجاه القوى العظمى الطامعة فيها ؟! ان الحياد هنا لا يعنى سوى اللامبالاة البلهاء التى تقترب من سلوك النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال ظنا منها أن الصياد لن يراها ٠

ان هؤلاء الذين ينادون بحياد مصر الدائم يريدون لهـا الذبـول والانزواء والانكفاء على ذاتها ، والتنحى عن دورها القيادى الذى مارسته فى هذه المنطقة من العالم منذ قديم الأزل ٠ ان مصر لم تعرف مثل هذا الحياد بطول تاريخها ، يكفى أن نذكر كيف أوقفت مصر الأيوبية فى معركة حطين عام ١١٨٧ حملات الصليبيين وأعادت بيت المقدس لسلطان العـرب والمسلمين (مع السماح للمسيحيين بأن يحجوا اليه) ٠ وأصبحت مصر زعيمة لدولة عربية امتدت من دجلة الى برقة الى النوبة ، ترفرف أعلامها على الشام وشمالى العراق وبلاد الأكراد ٠ وكانت مصر حامية للعروبة يوم قهرت جيوش التتار فى معركة عين جالوت عام ١٢٦٠ وطاردتها حتى

اخرجتها من فلسطين وسوريا ، فأنقذت الحضارة العربية والعالم من ويلاتهم وهمجيتهم ٠

ان هذا الحياد معناه أن تنفض مصر يدها من جميع القضايا والمشاكل التى تتفاعل مع منطقتنا العربية ، فلا تمد يدها لأى بلـــد عربى شقيق يتعرض للمخاطر والأطماع ، ومعناه ألا تبالى بتحول البحـــرين الأبيض والأحمر والمحيط الهندى من حولنا الى ساحة جديدة للتنافس الخطير بين الدولتين العظميين لفرض وجودهما وسيطرتهما على الدول الساحلية التى لا تستطيع رد العدوان على مداخلها ومعناه أن تتحلل مصر من التزاماتها العسكرية بموجب المعاهدات الثنائية أو الجماعية القائمة وعلى رأسهـا معاهدة الضمان الجماعى بين دول الجامعة العربية الموقعة فى عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، فتسقط تلك المعاهدة بتحولها الى قصاصة من الورق ، فى حين أن أى اعتداء على أى بلد عربى يشكل اعتداء فعليا على مصر لأنها دائما هى المستهدفة من أى عدوان على أى بلد عربى شقيق ٠

ان مصر التى نريدها ونتمناها هى مصر العربية المنطلقة لا مصر الاقليمية الحبيسة ٠ مصر المتفتحة على مشاكل عصرنا تسهم مع أشقائها وأصدقائها فى حلها قدر طاقتها وبما لا يرهقها ، لا مصر الذليلة المنعزلة أو المعتزلة ٠ مصر اليقظة التى تذود عن كيانها وعروبتها بكل الأسلحـة المتاحة لها ، لا مصر المستسلمة لحياد دائم خادع يمكن أن تصحو منه يوما غير مخدرة نادمة حين لا ينفع الندم ٠

وقد عاد وحيد رأفت لهذه القضية فى دراسة مستفيضة فى جريدة الأخبار بتاريخ ٢٥ مارس ١٩٧٨ فأوضح أن الدولة التى توضع فى حالة حياد دائم هى عادة دولة ضعيفة لا تستطيع أن تقوم بأعباء الدفاع عن نفسها ، كما أن فى تقيدها بالالتزامات المترتبة على هذا الحياد انتقاص من سيادتها ومن شخصيتها الدولية ٠ ولا تقبل الدول عادة احترام هذا الحياد وتأمينه الا رغبة فى الابقاء على توازن القوى فى منطقة معينة من العالم ، أو لتجعل من الدولة المحايدة حاجزا يفصل بين دولتين قويتين أو مجموعتين متنافستين من الدول ٠ والتاريخ يؤكد لنا أن الحياد الدائم هو فى صالح الدول الضامنة أكثر منه فى صالح الدولة الدائمة الحياد ٠

ومن الواضح أن قضية حياد مصر التى أثارها توفيق الحكيم فى عام ١٩٧٨ كانت بمثابة دائرة مفرغة جديدة لكى يدور فيها المفكرون العرب بصفة عامة ، والمصريون بصفة خاصة ، وكأننا نفتقر فى الأمة العربية الى

الدوائر المفرغة والطرق المسدودة والمتاهات الجانبية ، فى حين أننا نتفوق فى حصيلتها على كل أمم العالم مجتمعة . لذلك يرد وحيد رأفت موضحا أننا نبدو وكأننا قد فرغنا من كل ضرورات حياتنا ، وبدأنا ـ على سبيل الترف الفكرى ـ الجدل حول البدهيات والمسلمات من قبيل ابراز قوة الاقناع واستعراض عضلات المنطق . يقول وحيد رأفت :

« على أية حال فان رغبة مصر وحدها لا تكفى ما دام هذا الحياد لا يتم باعلان منفرد من الدولة الراغبة فيه ، بل بموجب معاهدة جماعية تعترف به وتضمنه . فما هى الدول يا ترى التى سوف نلجأ اليها لتأمين هذا الحياد ؟ وكيف نقبل على أنفسنا من دون سائر دول المنطقة هذا الحياد وما سوف يترتب عليه لزاما من قيود على سيادتنا وشخصيتنا الدولية بينما تظل تلك الدول بما فى ذلك اسرائيل وحتى لبنان ، طليقة من هذه القيود ! اننا لو أقدمنا على شىء من ذلك أو فكرنا فيه لكنا مثل ذلك الرجل البالغ الذى يدفعه الخوف من ضياع ما تبقى له من مال ، أو تهيبه للمسئولية ومواجهة الصعاب الى طلب الحجر على نفسه حتى يستقر بالا ! » .

هكذا تصبح القضية المطروحة ليست قضية الحياد أو عدمه ، بل قضية الاعتدال أو الاندفاع فى سياستنا الخارجية والتزاماتنا العسكرية . هل كان بوسعنا مثلا أن تتجنب مصر حروب فلسطين بعد أن غرس الاستعمار فى قلب الوطن العربى دولة عنصرية توسعية تبغى فرض سيطرتها أو نفوذها من الفرات الى النيل ؟ ومن غير مصر كان بوسعه التصدى لهذا الخطر الداهم بفعالية مهما كلفها ذلك من بذل وجهد ؟ لقد بذلت مصر هذا الجهد مع أشقائها العرب فى عام ١٩٤٨ ، وبذلته وحدها فى عام ١٩٥٦ ، وبالاشتراك مع سوريا والأردن فى عام ١٩٦٧ ثم بالتعاون الأوثق مع سوريا فى عام ١٩٧٣ . ولم يكن الهدف فى هذه الحروب الأربع تحرير فلسطين بقدر ما كان الهدف هو وقف زحف الخطر الصهيونى الذى يهددنا جميعا .

ولقد هزمنا فى معظم تلك الحروب ، لكننا انتصرنا بعد ذلك فى عام ١٩٧٣ وهذا قدرنا ، ولا يمكن لغيرنا أن يحارب حروبنا هذه أو أن يتولى بدلا عنا مهمة تحرير ترابنا العربى . وكان من الطبيعى أن يسعى عدونا وغيره من القوى الأجنبية التى لا يريحها قيام أمة عربية قوية فى المنطقة تمتد من الخليج الى المحيط ، الى بذر بذور الشقاق والفرقة بيننا لتمزيق صفوفنا . وقد نجحت بالفعل فى ذلك وانقسمنا على أنفسنا أكثر من

مرة على مدى الثلاثين سنة الماضية • وذلك كله نتيجة لضعف تماسكنا وهوس بعض قياداتنا وايثارها الشعارات البراقة على الحقائق المرة أحيانا وعلاج هذه الحالة المؤسفة لا يكون بالهروب من الميدان والتقوقع وراء علم الحياد ، وترك الآخرين تفتك بهم القوى المعادية ثم تنفرد بنا من بعدهم • العلاج انما يكون بالعمل الدائب على جمع الشمل ، وازالة أسباب الفرقة والتمزق ، وكشف المروجين لها والعاملين من أجلها وكبح جماحهم •

٣١ ـ حامد ربيع « مصر »

يتميز انجاز حامد ربيع فى مجال الفكر القومى العربى بالخصوبة والغزارة • ففى مجال تأليف الكتب والدراسات على سبيل المثال نجد « فلسفة الدعاية الاسرائيلية » ١٩٧٠ ، و « التعاون العربى والسياسة البترولية » ١٩٧١ ، و « البترول العربى واستراتيجية تحرير الأرض المحتلة » ١٩٧١ ، و « دراسات أساسية حول الصهيونية واسرائيل » ١٩٧٣ ، و « نظرية السياسة الخارجية » ١٩٧٣ ، و « البترول العربى وعملية ادارة الصراع فى منطقة الشرق الأوسط » ١٩٧٤ ، و « الحرب النفسية فى المنطقة العربية » ١٩٧٤ • وفى مجال الصحافة والاعلام فان مقالاته وتعليقاته تغطى مساحة عريضة فى الدراسات القومية العربية سواء فى مصر أو العالم العربى • فمثلا نشر سلسلة مقالات طويلة بعنوان « العرب فى قلب العاصفة » فى مجلة « الموقف العربى » القاهرية ، أعقبها بسلسلة طويلة أخرى بعنوان « سوف أظل عربيا » فى المجلة نفسها •

وتبدو قيمة مؤلفات حامد ربيع فى أنها تركز على قضايا القومية العربية فى ضوء آخر التطورات الدولية المتفاعلة فى منطقة الشرق الأوسط، ورسم الطريق العلمى العملى الذى يتحتم على العرب اتباعه وسط بحار التناقضات والصراعات الناتجة عن صدام العملاقين الدوليين فوق أرض المنطقة ، وخاصة أن صراع العمالقة بهذا المعنى قد يدعو الى الاعتقاد بأن مستقبل الأمة العربية لا يتحدد الا بالنتائج المترتبة على هذا اللقاء ، وبأن العرب يقفون من هؤلاء العمالقة موقف المتفرج المصفق أو المستهزىء أو الخائف • ويقول حامد ربيع « العمالقة » لأن البعض قد يتصور أن هذا الوضع ينسحب على جميع القوى الأخرى غير الدولتين العظميين ، وهذا يعنى أن المنطقة تصبح موضوعا للتعامل الدولى وليست طرفا فى هذا التعامل •

ويؤكد حامد ربيع على أن هذه النظرة قاصرة ولا تعبر عن الواقع الحقيقي ولا عن طبيعة التفاعلات الدولية في عالمنا المعاصر · ذلك أن كلا من العملاقين يملك طاقة لها مصادرها المحددة أو التي يمكن تحديدها ، فهناك مجموعة من القوى الضاغطة التي تحدد حقيقة مســارات التعامل وخصائصه بالنسبة لكل من الطرفين · كذلك فان قــوى المسانبة التي تسهل عملية اللقاء لأي من الطرفين أو تحدد خصائص ذلك اللقاء وقواعده هي أكثر اتساعا من مجرد الساحة التي يحدث فيها الصدام · فهناك الى جانب القوى العربية مصالح أخرى واهتمامات قد تفضل أن تحدث تفاعلاتها من خلف الستار ، لا يستطيع المحلل أن يدعها جانبا اذا أراد أن يفهم حقيقة الصراع الذي تخضع له مصائر الأمة العربية · ولذلك يتحتم علينا استيعاب المتغيرات الخفية وخصائصها التي تشــكل أو تؤثر أو تقيد الارادتين العظميين في قدرتهما على التحكم في مصير المنطقة ·

وتدور معظم مؤلفات حامد ربيع حول الاجابة على السؤال المصيري التالي : ما أدوات الارادة العربية لمواجهة القوى الكبرى التي لا تعرف سوى مصالحها الذاتية بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة ، والتي مهما غلفت أهدافها بلغة الشعارات أو المثاليات أو الأخلاقيات أو الايديولوجيات فهي لا تسعى الا الى تضخيم ثرواتها وتدعيم نفوذها على حســاب الشــعوب الضعيفة ؟

ان الوضع الغريب الشاذ داخل المنطقة العربية يؤكد لنا أن العرب سمحوا بوضع الذئب مع الحمل في قفص واحد على أمل أو وهم أن تتوطد الصداقة بينهما ويتخلى الذئب في النهاية عن التهام الحمل · وبذلــك تكون الارادة العربية منطلقة في اتجاه مضاد لمنطق الأمور وطبيعة الأشياء ، بالاضافة الى أنها لا تملك القدرة على تنظيم بيتها من الداخل · مع العلم بأن الطاقة الفعالة لا تتأتى الا من عملية التنظيم التي تضع الأمــور في نصابها وتوظف كل عنصر في الزمان والمكان المناسبين · ومن الواضح أن وجود اسرائيل في المنطقة كان يهدف أساسا الى اعاقة عملية الترتيب والتنظيم ، ذلك أن وجودها شتت طاقات المنطقة وسمح للقوى الكبرى في أن تصبح وحدها المتحكمة في مصير هذه المنطقة الاستراتيجية الحيوية من العالم ·

ولا يستطيع أي محلل لظاهرة التعامل الدولي في المنطقة العربية أن يتجاهل التناقضات التي تغلف كل ما يتصل بهذه المنطقة سواء في نطاق تعاملها الداخلي أو تعاملها الخارجي ، سواء في نطاق التعامل بين القوى العربية أو في نطاق التعامل بين القوى الدولية · بل ان التناقض سيطر أيضا على السياسات الكبرى وغير الكبرى في تعاملها مع العالم العربي ·

ويقصد حامد ربيع بالتناقض لا منطقية التعامل فالمنطق يعني مقدمات معينة لا بد وأن تؤدي الى نتائج معينة بحيث تترابط بعلاقة السببية والتوالد والتكامل الذي يكون نموذجا معينا للتصور تساند فيه كل جزئية الجزئيات الأخرى • هذا التكامل في المنطق هو الذي يسمح بالتنبوء بمعنى ودلالة وخصائص الحركة المستقبلية • ان المستقبل ليس الا استقراء للحاضر على ضوء الماضي والقاء للضوء على الملامح الممكنة والمحتملة للمستقبل وكل هذا يفترض منطقا معينا متكاملا ومتناسقا • لا يعنينا تقبل هذا المنطق من رفضه ولا يؤثر في فهمه أن يكون منطقا غير متعاون أو منطقا متعاونا : ولكن نقطة البداية هي أن يكون هناك منطق للتعامل •

واذا حاولنا فهم السياسة العربية بأى معنى من معانيها فسنجد أنها لا تملك منطقا واضحا • وهذا يرجع الى التمزق السياسى الذى تعانى منه الأمة العربية على أوسع نطاق • وكان من الطبيعي أن تنتهز القوى الكبرى غياب هذا المنطق لتعيث في المنطقة فسادا دون أن تكلف نفسها مجرد تبرير تصرفاتها تبريرا منطقيا ، معتمدة على أن فاقد المنطق لن يطالب الآخرين به ، وخاصة اذا كانوا أقوى منه بمراحل ، بل ومتحكمين فيه • فالسياسة الأمريكية مثلا تحاول أن توفق بين خطين لا يمكن أن يتقابلا ، ذلك أنها تتعاطف تماما مع الصهيونية وتساند الوجود الاسرائيلي في المنطقة بكل قواها لدرجة التصلب والتعصب والاستفزازية ، وفي الوقت نفسه تستند السياسة البترولية الأمريكية في المنطقة الى الترابط والتحالف مع القوى المحافظة التقليدية في العالم العربي ، برغم أن هذه القوى تستمد استمرارها من موقفها المتطرف ضد الوجود الصهيوني بالمنطقة ، لأنها تدرك جيدا أنها اذا خنعت أو خففت من تصلبها فانها بذلك تصيب الأساس الحقيقي لشرعيتها أزاء الرأى العام العربي بضربة قاصمة لن تستطيع معها أن تطمئن الى مستقبلها •

ولا يقتصر التناقض على المعسكر الغربي وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية بل يتعداه أيضا الى المعسكر الشرقي وعلى رأسه الاتحاد السوفييتي • فلا تزال السياسة السوفيتية تجمع بين مبدأين : مساندة القضية الفلسطينية ورفض الوحدة العربية بحكم أن الشيوعية ضد القومية على خط مستقيم • ويتجسد التناقض في أن مساندة القضية الفلسطينية من جانب الرأى العام العربي انما تنبع من أن التواجد الاسرائيلي قاد الى التجزئة العضوية للكيان العربي • ولذلك فالوجه الآخر للمشكلة الفلسطينية هو الوحدة العربية • ولكن السياسة السوفيتية – مثلها في ذلك مثل السياسة الأمريكية – لا يهمها أن تبرر هذا التناقض وهي تفصل بمنتهى

البساطة بين قضيتين ، كليتهما في الادراك القومي العربي يمثل حقيقة واحدة مترابطة لا موضع للفصل بين عنصريها ٠

هذا عن التناقض على المستوى الدولي ، أما علـى المستوى القومي العربي فيبدو التناقض أصلا لكل الكوارث التى أحاطت بالأمة العربية ٠ فقد تنوعت مناطق الصراع واستقلت كل منها عن الأخرى بحيث يمكن القول بصفة عامة ان العالم العربي يعاني من خمس بؤر للصراع : منطقة كبرى تدور حول الوجود الاسرائيلي ٠ ثم منطقة ثانية محورها العلاقات المتداخلة بين بلاد الهلال الخصيب ٠ ومنطقة ثالثة تمتد حول الخليج العربي ٠ ورابعة تتمركز حول منطقة البحر الأحمر بكل احتمالاتها ٠ ثم منطقة خامسة حيث ينتقل مركز الثقل الى أقصى القارة العربية في الصحراء حيث تتناطح الجزائر والمغرب وموريتانيا ٠ وكلها مناطق متعددة للصراع مع استقلال كل منهما عن الأخرى ٠

وينبع التناقض أيضا من عدم وضوح حقيقة المتغيرات الايديولوجية واضطرابها ٠ وهو أمر ينبع بدوره من فشل القيادة ليس فقط في التجارب مع الشعب بل وفي صياغة سياستها على ضوء متغيرات الموقف وترتيب الأهداف بتتابع مرحلي محدد الغايات على ضوء الوسائل والامكانات ٠

أما تحكم الارادة الأجنبية في المنطقة ، وان لم يتخذ الصورة المباشرة للاستعمار القديم ، فقد بلغ حدا من السيطرة والسيادة لدرجة أنه لم يعد للارادة الذاتية أي موضع أو وزن في عملية صنع القرار الدولي في المنطقة٠ هذا بالاضافة الى عدم تعبير التوازن الاقليمي عن حقيقة القوى الذاتية في المنطقة ٠ والدليل على ذلك أن الارادة الاسرائيلية تقف في كفة وجميع القوى العربية تقف في كفة أخرى مع رجحان الأولى في أغلب الأحيان ، برغم أن هذا تزييف لحقيقة القوى الذاتية في المنطقة بحكم أنه توازن مصطنع تتدخل في تشكيله قوى مصطنعة ٠ لكن التوازن المصطنع مستمر ويبدو أمرا واقعا وطبيعيا للغاية بحكم استمراره أمام العالم أجمع طالما أن الارادة العربية غائبة ٠

ولذلك تعودت الدول العربية أن تفاجأ بالأحداث غير مصدقـة ، وغير مستوعبة بل ومذهولة في أحيان كثيرة ، نتيجة لاختلال في التوازن يفقد القدرة تماما على التماسك والمواجهة في صلابة ٠ فنحن في العالم العربي لم نتعود استقراء الأحداث وربطها بخلفياتها ودلالاتها المتعددة ٠ ولذلك تبدو الأمة العربية مترنحة تدفعها الرياح تارة الى اليمين وتارة الى اليسار دون أية قدرة على التعامل مع المشكلات ٠ وليس هذا بأمر جديد عليها بل يرجع الى الثورة العربية الكبرى التى حددت نهاية السلطـة

العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى · منذ ذلك الحين والعـــالم العربى يرقص على ايقاعات أجنبية تشكل حركاته كيفما تريد دون وعى أو قدرة منه على التحدى والمقاومة · هذا فى الوقت الذى لم تعد فيه الآن مجتمعات، مهما ضؤلت أهميتها أو تقلص حجمها ، تقبل هذه السلبية والضياع ·

وينادى حامد ربيع بأنه آن الأوان لقياداتنا أن تفهم أن الأمة أمتنا والمصير مصيرنا وأن ما نتعامل معه هو مستقبل أجيال كاملة ، وقضية حياة أو موت · قد تخطىء فى تقييم احدى الوقائع ، وقد نبالغ فى وزن أحد المتغيرات ، لكن أزاء ما نملك من معطيات لا بد أن نخرج من حيز الرصد الى مستوى التقييم واستخلاص الدلائل · كذلك آن لنا أن نفهم أن الهزيمة ليست جريمة ، ولكن الجريمة عدم الاستعداد لعدم الهزيمة أولا وعدم استخلاص الدلالة من تلك الهزيمة ثانيا · ان السياسة فى حقيقتها صعود ونزول ، تقدم وتراجع ، والسياسى القومى الحصيف هو من يقع لكنه يقف مرة أخرى على قدميه ·

ان الخبرة الماضية للسياسة العربية توضح غياب ادراك هذه العناصر البدهية فى العلوم السياسية · ولذلك لم تعرف المنطقة سوى صراعات دائمة ليس فقط مع اسرائيل بل بين الأقطار العربية ذاتها ، صراعـات بلغت حد القتال المسلح · وبدلا من أن يوحد الخطر الاسرائيلى من القدرات العربية ويكتل الارادات فى مسارات واحدة ، أصبحت عناصر الفرقـة والخلاف هى المؤثرة فى تحركات المنطقة ، بحيث يمكن القول بأن حربا باردة قد غلفت المنطقة منذ انشاء اسرائيل حتى هذه اللحظة ، لدرجة أن أحد تقارير المخابرات الأمريكية ذكر أن ما يطلبه العرب هو حمايتهم من اسرائيل ومن الشيوعية ومن أنفسهم · وهذه حقيقة واضحة لا يمكن أن ندعى أنها افتراءات مغرضة ·

ولا يزال العرب حتى الآن لا يدركون مفهوم الأمن القومى الذى يعد فى أبسط صوره تحديدا واضحا للحد الأدنى الذى يجب أن تتفق حوله القيادات كشرط لازم للحماية العضوية للكيان الذاتى · وهذا يفسر لنا نجاح اسرائيل وفشل العالم العربى فى تعامل كل منهما مع قضايا الأمن القومى · ان مفهوم الأمن القومى الاسرائيلى واضح ومحدد لا يختلف حوله اثنان فى حين يبدو مفهوم الأمن القومى العربى مهلهلا ، بل لا وجود له فى ذهن كثير من المسئولين برغم أنه مفهوم بسيط فى جوهره ، وواضح فى مظهره ، يؤكد ضرورة تكاتف جميع القوى العربية حول تماسك ذلك المربع الذى يربط دمشق شمالا ، ببغداد شرقا ، بمكة جنوبا ؛ بالقاهرة غربا · ولكن لم يحدث خلال ثلاثين عاما ولو مرة واحدة أن وجد ذلك التماسك ، ولو وجد فان أوضاعا كثيرة كانت لا بد أن تتغير ·

ان العالم العربى لا يريد أن يتعلم معنى التاريخ ودلالته • انه يعتقد أن التجديد يعنى الغاء الماضى وأن الانطلاق يكون أكثر سرعة عندما تختفى المراجعة التاريخية والعودة الى الأصول • واذ نظرنا الى حقيقة القوى التى يتكون منها المجتمع السياسى العربى لوجدنا أنه يتمركز حول حاكم ومحكوم• الحاكم لا يرى سوى أمجاده الشخصية وزعامته التاريخية فى حين لا يرى المحكوم سوى مصالحه الشخصية ومكاسبه المادية ولذلـــك فهو ينتمى بالضرورة الى طبقة الانتهازيين والمتسـلقين والمنتفعين الذين يصفقـون ويؤيدون حتى تستمر مكاسبهم على ما هى عليه ، أو تتضـــاعف كلـما تضاعف التصفيق وتزايد التأييد •

وفى أوضاع كهذه لا بد أن يتوارى الفكر القومى الأصيل ، بل التفكير مجرد التفكير • فالأوضاع تقليدية ومعروفـــة مسبقا ، ولذلك تعودنا قيادات ومحكومين أن نتصرف ثم نفكر اذا خابت حساباتنا الجاهزة المريحة• فالتصرف سابق على الادراك مما يجعل التفكير وسيلة لتبرير التصرف وليس لتفسير التصور • فقد أضحى الفكر نوعا من المهاترة تدور دائما حول الدفاع عن موقف اتخذ دون قدرة سابقة على تقييم نتائج هذا الموقف• وكان من الضرورى أن يقود ذلك الى فقد القدرة على التعامل مع الموقف • ويبدو ذلك أكثر وضوحا من جانب بعض القيادات العربية فى تعاملهـا مع الموقف الدولى • انها تتحدث لغة لا تنتمى الى القرن العشرين ولا صلة لها بطبيعة المشكلات التى يعيشها الواقع العربى •

واذا أدركنا كيف تعيش الشعوب العربية بمعـــزل عن مشـكلاتها القومية لهالنا مدى ما يعنيه ذلك من عدم قدرة على تكتيل الارادة القومية• وهذا يرجع الى غياب الديمقراطية الحقة التى تربط الحاكم والمحـــكوم بمثالية معينة قد توصف بأنها أيديولوجية ، وقد يعبر عنها بكلمة الأمن القومى ولكنها فى النهاية تعبير عما يسمى فى فقه السياسة بنظام القيم السياسية ، والذى يعنى مجموعة من المبادىء والأخلاقيات التى يجب أن تسعى الجماعة لتحقيقها • ومحور هذه الأخلاقيات هو مفهوم الديمقراطية • ولم يعد العالم المعاصر يستطيع أن يتصور مجتمعا متطورا ساعيا لتحقيق ذاته القومية من منطلق التعامل الشعبى دون الديمقراطية الحقيقية •

وقد قاد التطور الذى تعيشه الأمة العربية الى مرحلـــة البرجوازيـة الصغيرة والمجتمع الاستهلاكى دون المرور بمرحلة الطبقة العاملة المنتجة • ثم جاءت المجتمعات البترولية لتؤكد هذه العناصر وترسخها برغم أنهـا مضادة تماما لتقاليدنا القومية التى تحتم بناء الأمة العربية على الضروريات الحضارية قبل الالتفات للكماليات الاستهلاكية التى يؤكد شغفنا بها عدم

قدرتنا على فهم طبيعة الصراع العربى الاسرائيلى بل وإلى عدم القدرة على فهم أى مشكلة يتعين على العالم العربى أن يواجهها ·

وقد تبدو الصورة التى يقدمها حامد ربيع قاتمة ومتشائمة للغاية ، لكن القضية ليست قضية تشاؤم أو تفاؤل ، بل هى قضية التعرف على بيت الداء ووضعه تحت مجهر الفحص العلمى والتحليل العملى · ومهما كان الواقع محبطا ومريرا فان العلاج لا بد أن يبدأ بتشخيص المرض ، أما استخدام المسكنات والمهدئات فمن شأنه استفحال المرض الذى قد يقضى فى النهاية على جسد الأمة العربية اذا استمر التهـــاون أو التهرب من علاجه · وهذا ما فعله حامد ربيع فى مؤلفاته عندما أمسك بمبضع الجراح مشخصا أوجاع الأمة العربية وأمراضها الخبيثة المزمنة ·

٣٢ ـ منيف الرزاز « سوريا »

منيف الرزاز من المفكرين القوميين العرب الذين جمعوا بين حياة الفعل وحياة القول ، بين الممارسة العملية والدراسة النظرية فهو من أقطاب حزب البعث ، وتعرف على كل السلبيات والايجابيات التى واكبت مسيرة الحزب ، واشترك فى قرارات القيادة القومية لوضع حد للتسلط والتزييف . يقول ميشيل عفلق فى كتابه « نقطة البداية » عن منيف الرزاز :

« فى كانون الأول سنة ١٩٦٤ تم الاتفاق بين أعضاء القيادة القومية على تخصيص دورة لطرح أزمة الحزب ، وكان هو الشيء الذى أقنعنى بالعودة من أوروبا بعد أن كنت قد تركت سورية محتجا على الأوضاع الحزبية المزيفة ومعلنا عجزى عن معالجتها ولم تكن القيادة القومية قبل سفرى مقتنعة كلها بوجود التزييف والتسلط ، وفى خلال خمسة أشهر قضيتها فى الخارج حصل من التجارب ما أقنع أعضاء القيادة القومية ، وأخيرا طرحت أزمة الحزب واتخذت القيادة القومية قرارات لوضع حد للتسلط والتزييف ، وجمدت القيادة القطرية ولكن اللجنة العسكرية ومعها العديد من الانتهازيين والحزبيين المزيفين هددوا وضغطوا ولم ترد القيادة القومية أن تصل الأمور الى حد الانفجار ، وفى تلك الأثناء جاءت رسالة من الرفيق منيف الرزاز ، رسالة طويلة وكان عضوا فى القيادة القومية ، وكنت وجهت اليه ثلاث مرات برسائل ورسل دعوته لحضور تلك الدورة فاعتذر ، ولكن بعد أن وقعت الأزمة بين القيادة القومية وقيادة القطر المتمردة على القرار ، قرار الحل ، أرسل الرفيق منيف تلك الرسالة المطولة يضع فيها اللوم على القيادة القومية ، وبعض اللوم على الطرف الآخر ، ويظهر أسفه وألمه لهذا الانقسام بين رفاق حزب واحد باسهاب ، طلبت قراءة الرسالة أمام القيادة فى حين كان رأى بعض الرفاق عدم

قراءتها وكنت أعرف مغزاها ، وبالفعل لاقت ارتياحا لدى أعضاء اللجنة العسكرية في القيادة وبعد ذلك ببضعة أشهر أي من كانون الأول ١٩٦٤ الى انعقاد المؤتمر القومي الثامن في نيسان ١٩٦٥ بعد ذلك طلبت من الرفيق منيف الرزاز أن يتحمل مسؤولية الأمانة العامة ويجرب بنفسه تحمل المسئولية » ٠

ولسنا هنا بصدد تقويم الدور السياسي القيادي الذي لعبه منيف الرزاز في حزب البعث ، ولكننا أردنا ايراد لمحة سريعة لابراز مدى الممارسة العملية التي قام بها الرزاز في مجال الفكر القومي العربي ٠ أما على المستوى النظري الفكري فقد ألف كتاب « معالم الحياة العربية الجديدة » عام ١٩٥٩ ، وفيه يركز على الجانب الشعوري في ارتباط العرب بقوميتهم ٠ فهو يرى أن عوامل اللغة والدين والثقافة والبيئة الجغرافية الواحدة ، والتاريخ والمصالح المشتركة يمكن أن تفقد أثرها الفعال اذا لم تلتحم بالجانب الوجداني عند الجماهير ، بحيث تتحول الى احساس دائم وشعور ملح يشكلان فكر العرب وسلوكهم ٠ لذلك يحدد الرزاز مفهومه للقومية العربية فيقول :

« قبل أن ندخل في مناقشة الزيف الذي يحاول البعض ادخاله على القومية العربية ، يجب أن نسارع أولا لنحدد ما نعني لهذه القومية ، فالقومية هي هذا الشعور الجامح للأمة العربية ٠٠ ومن أصعب الأمور وأشقها أن تحدد تماما أركان آية قومية » ٠

والرزاز محق في اعترافه بهذه الصعوبة لأنه نظر اليها من الناحية الشعورية والوجدانية ، وهي ناحية متلاطمة كالأمواج بحيث يصعب صبها في قوالب ثابتة ومحددة ٠ هذا طبعا بالاضافة الى أن القومية العربية مفهوم ديناميكي متحرك ومتطور مع تغير الظروف والملابسات وان لم يفقد جوهره الحقيقي الذي يجمع شمل الأمة ٠ لكن هذا الجوهر ـ عند الرزاز ـ يتمثل في الشعور القومي الجماعي وليس في اللغة والدين والثقافة والبيئة والتاريخ والمصالح المشتركة ٠ يقول :

« الحقيقة هي أن القومية لا تحدد بأي عامل من هذه العوامل وانما تحدد أولا وآخرا بشعور مجموعة من الناس بأنهم أبناء قومية واحدة ٠٠ فاذا ضعف هذا الشعور فلن ينفع القومية اجتماع كل أركانها ، واذا قوى هذا الشعور ما ضرها أن لا تشترك الا في أسباب قليلة جدا من أسباب القومية الموحدة » ٠

وقد يشعر القارىء أن الرزاز قد تطرف في تجريد الشعور القومي من كل مقوماته الموضوعية والملموسة ٠ ذلك أن هذا الشعور ليس شيئا

هلاميا غائما سابحا فى الفضاء ، بل سلوك مادى يملأ فراغ الأمة • ولذلك يستدرك الرزاز بقوله :

« ان هذا الشعور ليس مجرد عواطف سطحية فى الفراغ ولكنه شعور بوحدة المصير ووحدة المصالح ووحدة المركز الحيوى الذى تشغله الأمة •• هذا الشعور لا بد أن يستند طبعا الى أساس ، والى أسباب ، ولكن هذه الأسباب قد تختلف باختلاف كل أمة وكل قومية » •

بهذا يعود الرزاز الى المنهج العلمى الموضوعى الذى يحـاول تقنين القومية العربية ، وابراز ملامحها الخاصة التى تميزها عن القوميات الأخرى• ومـع ذلك فانه يرفض أن يضع القومية العربية موضـع الجـدل والنقاش لأنها ــ فى نظره ــ واقع حى لا يثبته أو ينفيه جدل • لذلك يقول فى تعريفه لها :

« القومية العربية واقع لا جدال فيه ••• القومية العربية ليست مبدأ وليست فكرة ندعو اليها ، فالمبدأ والفكرة أشياء طارئة يمكن أن توجـد اليوم لتنتهى غدا وانما القومية وجود قائم ليس لنا حيلة فى الابقاء عليه أو الغائه ••• وما كان بودى مع ذلك وأنا أبحث حياة الأمة العربية والمشاكل التى قد تواجهها ، أن أتعرض لذات القومية العربية ، التى « يجب » أن تكون بدهية طبيعية تسمو فوق مستوى النقاش وتعلو على الأخذ والرد • لولا أن العوامل الخارجية التى دخلت فى حياتنا وأثرت فيها فى مـدى الأعوام المائة الأخيرة ، ولا سيما فى القسم الذى تلا الحرب العالمية الأولى قد أثار بعض اللغط حول هذا الموضوع ، ولا ننسى أن قوى الاستعمار مازالت تعمل ، والمصالح الخاصة التى أنشأها الاستعمار وقواها مازالت تعمل ، وأن النفوذ الأجنبى ؛ وان تقلص ظله فى معظم الأقطار العربية ، مازال بعيدا عن الزوال التام ، وأن القومية العربية مازالت محل نقاش وطعن من بعض الجهات التى يهمها أمر هذا الطعن والتهديم على الرغم من أن الشعور بها أقوى الآن منه فى أى وقت مضى ، ونحن لا نخشى أن تؤثر هذه العوامل على قوميتنا فتهدمها حقا ، لأنها أقوى وأمتن من أن تستجيب لعوامل الهدم ، ولانها ليست قائمة على رغبتى ورغبتك فحسب ، ولا على منطقى ومنطقك فحسب ، وانما تقوم على عوامل عديدة ، ليس تغييرها ، وهدمها من السهولة بالمكان الذى يتخيله المتخيلون » •

يبدو هنا التناقض واضحا فى مفهوم الرزاز للقومية العربية • فهو يؤكد أنها ظاهرة طبيعية مثلها فى ذلك مثل الموقع الجغرافى الاستراتيجى للأمة العربية ، ولذلك فهى لا تعتمد فى وجودهـا على رغبـة الانسان العربى ، أى أنها شىء خارج عن كيانه وعن ارادته وليس كامنا داخله ،

انه لا يملك حيالها شيئا يمكن أن يفعله سواء بالسلب أو بالايجـــاب ٠ وفى الوقت نفسه يؤكد الرزاز أن القومية « تحدد أولا وآخرا بشعـــور مجموعة من الناس بأنهم أبناء قومية واحدة ٠٠ فاذا ضعف هذا الشعور فلن ينفع القومية اجتماع كل أركانها » ٠ أى أن وجود القـومية مرتهن بوجود الشعور القومى بها عند الانسان العربى ٠ هنـــا يبرز التناقض واضحا فى هذا المنطق الذى يفتقر الى الاتساق ، ذلك أن القومية العربية واقع لا جدال فيه ، وبدهية طبيعية تسمو فوق مستوى النقاش وتعلو على الأخذ والرد ، وهى فى الوقت نفسه مرتهنة بالشعور بها ، وطالما أن الشعور عند البشر شيء يخضع للنسبية ويتلون طبقا لنظرة الانسان الى الموجودات ، فالقومية شعور خاضع للنقاش والجدل والأخذ والرد ، على الأقل فى حالة تعبير كل انسان عن شعوره الخاص به حيالها ٠

أما عن الأسباب التى أوضحها الرزاز فى أنها « عوامل خارجية دخلت فى حياتنا وأثرت بها فى مدى الأعوام المائة الأخيرة » ، فهى فى نظرنا ليست الأسباب الوحيدة التى تضع القومية العربية موضـع التســاؤل والبحث ، وتنزلها الى مستوى النقاش والأخذ والرد ، ذلـــك أن العقل الانسانى ــ والعقل العربى جزء منه ــ قد خلقه الله لـكى يستعين به الانسان فى تفسير الظواهر والحقائق والوقائع والبدهيات المحيطة به ٠ ونحن لا نفصل الشعور القومى ــ الذى يتكلم عنه الرزاز ــ عن الأنشطة التى يقوم بها العقل ٠ وليس هناك أى خطر يتهدد القومية العربية اذا استخدم الانسان العربى عقله فى تفسيرها وتحليلها وتدعيمها ٠ فربمـا علقت بها من الرواسب والشوائب ما يحتم عليه التخلص منها ٠ فلا خوف على قوميتنا لأنها ــ على حد قول الرزاز ــ أقوى وأمتن من أن تستجيب لعوامل الهدم » ٠

ان الذين يحظرون دراسة القومية العربية وطرحها للنقاش والحـوار بهدف الحفاظ عليها من مؤامرات الهدم ، يعرضونها ــ بحسن نية ــ لعوامل التحجر والجمود والانعزال فى قوالب ثابتة ، ويظهرونها بمظهر الكيان الأجوف الهش الذى يمكن أن يتعرض للشروخ والكسور من أول مواجهة جدلية أو منطقية ٠ فلن يكون هناك مبدأ أو فكرة أو قانون ، ولن تكون هناك حقيقة موضوعية أو وجود ، ولن تكون هناك ظاهرة طبيعية أو واقعة مادية ، ولن يكون هناك شعور أو احساس أو وجـــدان ، على مستوى التسليم والبدهية ، ما لم يصل الى هذه المرتبة نتيجة للبحث والتحليل والنقاش العقلى المنطقى الجدلى الذى يتعامل مع معطيات الواقع كما هى ٠ وصمود أية ظاهرة أو حقيقة أو شعور لهذا الاختبار العلمى العقلى شرط

أساسي لاستمرارها أو استمراره فى حياتنا ، المهم ألا يتحول الحوار العقلى المنطقى الى مناقشات بيزنطية تدخل بالقومية العربية فى متاهات جانبية ، وطرق مسدودة ، ودوائر مفرغة • ومن الواضح تاريخيـــا وواقعيا أن القومية العربية تملك من المقومات المنطقية والفلسفية والعقائدية والفكرية ما يجعلها قادرة على أن تصبح العقيدة الحضارية والاجتماعية المميزة لفكر كل عربى مخلص • فهى لا ينقصها سوى النيات الصافية التى تخلصت من كل أطماع شخصية ، أو ميول شعوبية أو أحلام الزعامة التى عاقت المسيرة القومية طويلا •

٢٣ ـ محمد رشيد رضا « سوريا »

لم يكن محمد رشيد رضا ـ وهو السورى الذى أقام فى مصر ـ داعية للقومية العربية ، وانما كان من دعاة الجامعة الاسلامية الشاملة ٠ لكن كثيرا من البحوث والدراسات التى دارت حول الفكر القومى العربى تناولت فكره بالتحليل نظرا لأنه كان يقدر مكانة العرب المركزية فى مصير الاسلام ويساند الحكم الذى اقره معظم الفقهاء والذى ينص على أن يكون الخليفة عربيا بصفة محددة ٠ لذلك أصدر كتابه « الخلافة أو الامامة العظمى » فى القاهرة عام ١٩٢٢ واعتبره الباحثون أقوى وأكمل عرض منظم للنظرية الاسلامية فى الحكومة ، منذ كتاب « الأحكام السلطانية » الذى ألفه الماوردى قبل ذلك بتسعة قرون تقريبا ٠ كما أنه من السهل العثور على اتجاهات رشيد رضا الاسلامية والعربية فى مجلة « المنار » الدورية التى أسسها لنشر مبادىء الامام محمد عبده الاصلاحية ، وذلك بحكم تلمذته على يدى الامام مدة طويلة فى مصر ٠

ويلقى رشيد رضا الأضواء فى كتابه على الخلافات والمنازعات التى قامت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حول مصير الخلافة التى كانت قد ألغيت فى تركيا على يدى مصطفى كمال ، وحقوق كل من العرب والاتراك فيها ٠ لكن قيمة الكتاب لا تتمثل فى جانبه السردى التاريخى بقدر ما تتركز فى جانبه الفكرى الذى ترك بصماته واضحة على الفكر العربى فى المرحلة ما بين الحربين العالميتين ٠ فقد لاحظ رشيد رضا فى مقدمة كتابه ، أن الاسلام مؤسسة روحية بنفس القدر الذى يبـــدو مؤسســـة اجتماعية وسياسية ٠ لكنه يتعرض فقط للمبادىء الأساسية بالنسبة لتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية ، ومن ثم يترك للاجتهادات البشرية حقها وواجبها فى القيام بهذه المهمة المادية الدنيوية ، ذلك لأن الضرورات والظروف تختلف

باختلاف الأزمنة والأمكنة ، تتطور بالحتمية مع تطور الحضارة وتقدمها . لذلك يقول رشيد رضا :

« ومن قواعده فيها أن سلطة الأمة لها ، وأمرها شورى بينها ، وأن حكومتها ضرب من الجمهورية ، وخليفة الرسول فيها لا يمتاز في أحكامها على أضعف أفراد الرعية ، وانما هو منفذ لحكم الشرع ورأى الأمة ، وأنها حافظة للدين ومصالح الدنيا ، وجامعة بين الفضائل الأدبية ، والمنافع المادية ، وممهدة لتعميم الأخوة الإنسانية ، بتوحيد مقومات الأمم الصورية والمعنوية . ولما طرأ الضعف على المسلمين قصروا في اقامة القواعد والعمل بالأصول ، ولو أقاموها لوضعوا لكل عصر ما يليق به من النظم والفروع » .

لكن الذى يدرس كتاب « الخلافة » لمحمد رشيد رضا يرى أنه لم يتأثر بمنهج أستاذه الشيخ محمد عبده ، بل يبدو أنه لم يتعلم منه شيئا نظرا للاختلاف الواضح بين شخصية وفكر كل منهما . فالشيخ محمد عبده كان عالما هادئا واقعيا منطقيا بعيد النظر في حين كان رشيد رضا من هواة المظاهرات الجامحة والطفرات العاطفية الساخنة والشعارات البراقة ظاهريا لكن مضمونها الفكرى كثيرا ما كان يفتقد مثل هذا البريق . فقد حرص محمد عبده على وضع النمط العملى الملائم لمجتمعنا العربى بلا مغالاة أو إيهام أو طنطنة ، ولعله بهذا النهج المعتدل الواقعى كان يحاول الاسهام في تحقيق التقارب بين النظم العربية المختلفة . كان محمد عبده يواجه الانجليز والقصر ، ولكنه ببعد نظره ومنهجه الواقعى كان يرى أن القصر ركيزة الاحتلال البريطانى . فاذا أراد القضاء على الاحتلال كان يرى أن يوجه الجهد الأكبر لحرب القصر .

وكان رشيد رضا يبدى أنه يوافق على هذا الرأى ، لكنه فى أعماق نفسه كان لا يرضى عنه ، لأنه رأى هادىء واقعى وهو ما لم يستطع أن يحتمله بحكم طبيعته الجامحة وحبه للأضواء والضجيج ، فما كاد يسمع بأن هناك عرشا سيقيمه الانجليز فى دمشق ليجلس عليه فيصل بن شريف الحجاز الحسين بن على حتى هرع الى الشام ونسى ما قاله فى كتابه « الخلافة » عن المقومات القومية للامامة أو الخلافة . وعلى الرغم من حرصه الدائم على اعلان كراهيته للانجليز ــ وخاصة فى حضور أستاذه محمد عبده ــ فانه اشترك مع الانجليز فى تتويج فيصل ملكا على سوريا ؛ وكانت مكافأته أن نال منصبا وزاريا رفيعا فى هذا النظام . لكن العرش لم يدم لفيصل ولا المنصب الوزارى لرشيد رضا، لكن فرحه بمظاهرة دمشق كان أهم عنده من كل الاتجاهات والآراء التى أكدها فى كتاب «الخلافة» . فقد كان مصابا بحب الأضواء والمظاهر البراقة ؛ ومن هنا لم يكن فى الواقع تلميذا لمحمد عبده لأن واقعية الامام لم تكن لتتطابق مع مزاجه وطبيعته ،

في حين كان فكر محمد عبده بمثابة الدفعة القوية التي وجهت الفكر العربي القومي في بحار العواصف الجامحة . أما فكر رشيد رضا القومي فقد أصابه كثير من التشوهات نتيجة لتقلباته العاطفية والفكرية مع كل موجة جديدة .

في ضوء هذه اللمحة التاريخية يجب علينا أن ندرس ملامح الفكر القومي عند رشيد رضا . فقد عرض في كتابه نظريات الفقهاء الأعلام من وجهة نظره الخاصة بالخلافة ، فهو يقرر أن انتخاب الخليفة ليس أمرا اختياريا محضا ولا هو مما تمليه الحكمة ، كما يرى بعض المعتزلة ، وانما هو فرض مفروض ، وأن من واجب المسلمين أن يقوموا باستشارات عامة قبل أن يتم تعيين الخليفة وتبدأ مبايعته ، على أن يقوم التشاور بين أهل الحل والعقد الذين يحددهم رضا بأنهم زعماء الأمة وأولو المكانة وموضع الثقة من سوادها الأعظم . لكنه لم يكشف عن مفهومه للتمثيل الشعبي والنيابي ، فهو لم يذكر شيئا عن الانتخاب العام ، ومع ذلك فان مفهومه يقترب في تردد من عملية الانتخاب التي يشترك فيها قادة المواطنين ، كعلماء الدين ، والوجهاء ، وحكام الأقاليم المهمة ، وكبار العسكريين .

وكان تعريف رشيد رضا لسيادة الأمة ولمفهوم الجماعة تعريفا غامضا ومبهما ومشوشا للغاية . فاذا كان فخر الدين الرازي – الذي عاش قبل رشيد رضا بما يزيد عن سبعة قرون (١١٥٠ – ١٢٠١) – قد نادى بأن الجماعة تشمل الأمة بأكملها ، لأن حق السلطة يعود ، بمعناه الصحيح ، الى الأمة كلها ، فان رشيد رضا يؤيد أضيق التفاسير التي قدمها الفقهاء لكلمة « جماعة » ويقرر أن سلطة الأمة انما تعني سلطة الذين يمثلون الأمة ، أي أهل الحل والعقد فيها على حد قوله .

ويبدو التناقض واضحا بين السلوك العملي والمبدأ الفكري عند رشيد رضا عندما يتطرف في تبعيته للمدرسة المثالية في السياسة ، ويقف ضد التضحية بالمبادىء نزولا على مقتضى الحال ، ويستشهد موافقا بالتمييز الذي وضعه المشرعون الأول بين « دار العدل » و « دار البغي والجور » . فالأولى يقيم فيها الخليفة الشرعي الذي توافرت فيه كل الشروط اللازمة ، وطاعته واجبة وغير مشروطة ، ما بقي أمينا للشريعة ، منفذا لفروضها . أما دار البغي ، فانها المنطقة التي لا يراعى فيها أحكام الامامة الشرعية وشروطها . وطاعة الحكومة في تلك الدار غير واجبة شرعا لذاتها ، بل يجب أن تقتصر على أدنى حد تقتضيه ضرورات الموقف .

لكننا لم نجد أثرا لهذه السياسة المثالية فى سلوك رشيد رضا نفسه عندما هرع الى دمشق ليبارك تتويج الانجليز لفيصل ملكا على سوريا • بل انه من الصعب ـ قبل وقوع هذا الحدث التاريخى ـ أن نجد فى كتاب رشيد رضا تحليلا علميا محددا للوسائل والغايات التى تنهض عليها أسس الحكومة الحديثة • هذا بالاضافة الى الغموض الذى يسيطر على تعريف رضا لمفاهيم الحكم الحديث مثل سلطة الشعب ، والحكومة الديمقراطية ، وحرية الجماعة • ثم ان طبيعة الحكومة ذاتها تتغير بتغير المضامين التى تحتوى عليها هذه المفاهيم ، فاذا كانت الجماعة تقتصر على بضعة زعماء ، وهم قلة نسبيا ، واذا وجبت الطاعة لهم ـ على حد قول رشيد رضا نفسه ـ فلن تكون هذه الحكومة شعبية أو ديمقراطية بأية حال من الأحوال ، بل ستكون نوعا من الحكومة الارستقراطية أو الأولجاركية على أحسن الأحوال •

لقد عجز رشيد رضا عن استيعاب المعنى الحقيقى للممارسة الديمقراطية • صحيح أنه يجب أن تكون « الجماعة » هى الممثلة الحقيقية للأمة ، وأنه يجب أن تحوز على ولاء الجماهير ، لكن رضا لم يجب عن الأسئلة الضرورية الآتية : كيف يمكن التأكد من صحة مزاعم الجماعة حول مقدار التأييد الذى تتمتع به ؟ ومن هم أصحاب حق الاقتراع على تأييدها ؟ وكيف يجب أن تكون قوانين الانتخاب ؟ وما هى الحدود بين السلطات الثلاث : التنفيذية والتشريعية والقضائية ؟ لقد تجاهل رشيد رضا تماما أن الاجابة على هذه الأسئلة وما يتصل بها من مشكلات وقضايا ، تشكل الحدود الفاصلة بين الديمقراطية والفاشية ، بين الحرية العاقلة والفوضى المستترة •

وقد انعكس هذا بدوره على نظم الحكم فى العالم العربى بحيث أدى بمؤسسى الحكومات العربية الحديثة الى اختيارالأنظمة الغربية وتطبيق نماذجها • وكانت كل اضافة رشيد رضا الى هذا المجال هجومه الكاسح على تقصير الفقهاء الأولين لأنهم لم يضعوا نظاما شرعيا للخلافة ، بالمعنى الذى يسمى الآن بالدستور ، ويوضح أن الخلافة تركت لأهل العصبية (الأمويين) يتصرفون فيها تصرف الملوك الوارثين ، وانه كان على المشرعين أن يقيدوا سلطة الخليفة بنصوص الشرع ، ومبدأ الشورى ، وان يبطلوا الحكم الوراثى ، وأن يجعلوا الكلمة الأخيرة للأمة فى السلطة • فلو أنهم جعلوا لذلك أصولا متبعة ، لما وقع المسلمون فيما وقعوا فيه •

لم يكن الفكر القومى عند محمد رشيد رضا متكاملا لأنه اقتصر على الهجوم والنقد فقط ، ولم يقدم البديل النظرى الذى يمكن أن يشكل شبه

نظرية متكاملة للحكم . بل أن الانفصال الذى وقع فيه بين النظـــرية والتطبيق قد أوضح نظرته الذاتية الشخصية الى الأمور القومية ، وربما يكون قد منح المبرر للحكـام العرب لكى يتخلوا عن مبـادىء الشـورى ، والقاعدة الانتخابية لأعلى منصب فى الدولة وغير ذلـك من القضـــايا المحورية ، كلما جاءت أوامرها منافية لارادة السلطة الحاكمة وعلاقاتها ، فى كل زمان وكل مكان .

٣٤ ـ أبو الفتوح رضوان « مصر »

أبو الفتوح رضوان مفكر عربى ساهم بقسط وافر فى مجال العلاقة بين القومية العربية والوسائل التعليمية والغايات التربوية التى يعتقد أنه لا يمكن أن تقوم أية قائمة للقومية العربية بدونها · ان مستقبل الأمة العربية كلها يتشكل طبقا للأسلوب الذى ينشأ عليه الانسان العربى وخاصة فى سنى حداثته · فاذا كانت نشأته على أساس البرامج التعليمية والتربوية الموحدة فى كل أرجاء الوطن العربى ، فلا بد أن تتحول القومية العربية الى حقيقة مادية ملموسة راسخة من حقائق العصر الذى نعيشه · أما اذا خضعت هذه البرامج للاتجاهات الاقليمية الانعزالية والأفكار الشعوبية المحلية فلا بد أن يتحول جسد الأمة العربية الى أشلاء متناثرة ·

يتضح هذا الاتجاه القومى فى كل الكتب والدراسات والابحاث والمحاضرات التى قام بها أبو الفتوح رضوان مثل : « منهج المدرسة الابتدائية مع الاشارة الى الدول العربية » ١٩٥٥ ، و « وحدة الأمة العربية حقيقة تاريخية » ١٩٥٧ ، و « التربية والقومية العربية » ١٩٥٨ ، و « التوجيه العربى لمناهج المواد الاجتماعية » ١٩٥٩ ، و « التوجيه القومى العربى للتربية الوطنية » ١٩٦٠ ، و « العوامل الاجتماعية فى بناء القومية العربية » ١٩٦٢ ، و « الاشتراكية العربية » ١٩٦٢ · وغير ذلك من الكتب والدراسات التى أكدت العوامل الدينية والثقافية المشتركة بين أبناء الأمة العربية ، والتى وحدت بين اتجاهاتها فى بعض النواحى وجعلت المؤثرات التى تتم تحتها تربية الناشئة متفقة فيها الى حد كبير · ومن هذه العوامل فى رأيه الوقوع تحت تأثير المدنية الغربية فى أكثر من قطر من أقطار الوطن العربى مما زود الفكر والتعليم باتجاهات معينة فى العصور الحديثة ·

ويعتقد أبو الفتوح رضوان أن المحن التى مرت بها الأمة العربية كانت كفيلة بالقضاء على أية أمة أخرى لو وقعت تحت الظروف المأسوية والعصور المظلمة التى عاشتها أمتنا ٠ وهذا دليل عملى على مدى الصلابة التى تتمتع بها الأمة العربية ٠ ويستشهد أبو الفتوح رضوان بظروف المجتمع المصرى كنموذج من المجتمع العربى ككل فيوضح أن مصر شهدت خلال القرون السابقة للحملة الفرنسية عليها بقيادة نابليون فى عـام ١٧٩٨ انهيارا رهيبا فى شتى مجالات الحياة ٠ فقد كانت خاضعة رسميا للسلطان العثمانى ، أما من الناحية العملية فقد تركزت السلطة والسطوة فى أيدى عصابات المحاربين المماليك الذين رأوا فى الحكم اشباعا لكل تطلعاتهم الى التحكم والعجرفة العنجهية دون أدنى احترام أو اعتبار لطبقة المحكومين الذين كانوا فى نظرهم مجرد عبيد وأجراء ٠

وكان من الطبيعى أن يخضع النظام الاقتصادى لهذه الاعتبارات غير الانسانية بحيث كان نظاما اقطاعيا وضع كل مصادر الثروة تحت تصرف المماليك وعلماء الأزهر المتواطئين معهم ، فى حين لم يكن للشعب أيـة حقوق لأن مكانته لم ترتفع عن تلك التى يعانى منهـا رقيـق الأرض ٠ أما حكام الأقاليم فقد استولوا على الضرائب المفروضـة على الأراضى والعقارات ، وكان الفلاح العربى فى مصر يخضع لاتاوات أو ضرائب تصل الى ثلثى دخله من كفاحه المستميت فى أرضه ٠ ولا يعنى هذا أن الفلاحين كانوا الطبقة الوحيدة التى عانت من حكم المماليك ، بل هناك طبقة التجار والصناع من سكان المدن الذين جمعوا قدرا أكبر من الثروة ، وضمنوا لأنفسهم شيئا من المعيشة القانعة ، لكن جباية الضرائب الباهظة لم ترحمهم هم أيضا وسرعان ما كانت تستولى على كـل المبالـغ التى قد تتجمع فى أيديهم وتتركهم على مستوى من الفقر والعوز مماثل لمستوى الفلاحين والأجراء ٠

أما الحياة العقلية والثقافية والفكرية فى تلك العصور المظلمة فكانت تعانى من نفس الاجحاف ، فقد كانت قاصرة على دراسة المتون القديمة فى الدين واللغة ٠ ومما زاد فى تدهور المجتمع العربى وجموده انعزال البلاد عن سائر بلاد العالم التى كانت تزخر بالتيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية فى ذلك الوقت ٠ فقد كانت الطبقة الحاكمة والطبقة المثقفة ــ ولا نقول جماهير الشعب ــ لا تدرى شيئا عن العلوم والاختراعـات الحديثة ، والنظريات الجديدة فى تطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والابتكارات المتقدمة فى وسائل الحرب والقتال ، وذلك منذ بدء حركة النهضة الأوروبية ٠

وعندما وقعت الأقطار العربية تحت الاستعمار البريطانى والفرنسى

فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، قام الاستعمار البريطـانى بصبغ التعليم بالمحافظة والرجعية ، وقلة الانتشار ، والبعد عن تنمية ملكة التفكير والنقد فى البلاد التى وقعت تحت سيطرته ، أما الاستعمار الفرنسى فقد بذل أقصى ما فى وسعه لكى يمحو الثقافة العربية الأصيلة فى الأقطار التى كانت ضحيته . ولكن مع كل هذه الضغوط والاحباطـات المتواصلة استطاعت الأقطار العربية الحفاظ على روحها القومية ، وتمثل هـذا فى النهضات القومية والفكرية القوية التى شهدها النصف الثانى من القرن العشرين فى معظم الاقطار العربية ، مما كان له أثر كبير فى نشر التعليم وتجديد مناهجه .

ولم تكن هذه النهضات القومية والفكرية ممكنة لولا المظاهر المتعددة للوحدة العربية التى صمدت فى وجه كل محاولات التشتيت والتفتيت والبعثرة . فهناك الوحدة الجغرافية المكانية والتعايش والتفاعل المشترك داخل هذه الوحدة لقرون طويلة ، وهناك الميراث الثقافى الواحد ، والتاريخ الطويل المشترك ، والآلام والأحداث المشتركة ، والمصير الواحد كل هـذه العوامل جعلت العـرب كلهم ينضـوون تحت لواء القومية الواحـدة ، ويعيشون حياة وجدانية وفكرية واحدة ، ومن ثم أصبحت نواحى الحياة العربية من المحيط الى الخليج تتشابه الى درجة الاتفاق بما لا مثيل له فى أية مجموعة أخرى من الأمم ، وتجعل الظروف التى تتم تحتها تربية الناشئة متفقة فيها لدرجة كبيرة .

وعلى الرغم من خضوع العالم العربى للحكم العثمانى لمدة خمسـة قرون تقريبا ابتداء من نهاية العصور الوسطى وحتى مطالع القرن العشرين، فان تأثير الحكم العثمانى على المجتمعات العربية كان ضئيلا لأن الاتراك انتبهوا أساسا لجباية الضرائب وحماية الولايات من الغـزو الداخلى ، واقرار الأمن وفض الخصومات بين الناس ، أما قضايا الثقافة والتعليم فقد ترك أمرها للأفراد والجماعات . وكانت محاولات تتريك العالم العربى قد تركزت فى القرن التاسع عشر مع نشوء القومية التركية ، لكنه كان نفس القرن الذى تبلورت فيه القومية العربية الحديثة . وعلى ذلك ظل المجتمع العربى محتفظا بتكوينه الاقتصادى والاجتماعى الاقطاعى كما كان قبل الفتح العثمانى .

ومع ذلك يؤكد أبو الفتوح رضوان أن العالم العربى فى ظل الحكم التركى فقد الى حد كبير شعوره بالقومية العربية ، وذلك لغلبة الشعور بالقومية الاسلامية العامة ، فقد كان العرب جزءا لا يتجزأ من دار الخلافة ، وخلطوا ــ لضعف حالتهم الفكرية والمعنوية وتفشى الجهل فيهم بين الاسلام والخلافة ، وبين الخلافة والسلطنة العثمانية ، ولعل الأتراك استغلوا هذه

العاطفة الدينية للاحتفاظ بولاء العرب لهم . ومع فرض اللغة التركية كلغة رسمية على الأمة العربية ، ومع تدهور اللغة العربية ضعفت الوحدة الفكرية بين الاقطار العربية ، وانتشر الجهل ، وسادت الخرافات والشعوذة ، ولم يبق من نور العلم الا بصيص من الأزهر الذى اقتصر النشاط العلمى فيه على قراءة المتون القديمة واستظهارها ، واغلق باب الاجتهاد فى الدين ، واختفت العلوم الطبيعية كالطب والكيمياء تماما .

لكن مع بزوغ شمس القومية العربية فى منتصف القرن التاسع عشر بدأ العرب يدركون أن الحفاظ على التراث الثقافى القومى الأصيل والاعتزاز به ، لا يعنى أبدا ألا نأخذ بعناصر الثقافة الانسانية العامة من العلوم والمخترعات والصناعة ووسائل سيطرة الانسان على الطبيعة ، فهذا العنصر من الثقافة عام لا يختص به قوم دون قوم ، ولا أمة دون أمة لأنه انسانى وهو خلاصة ما وصل اليه العقل البشرى من حقائق الكون منذ القدم الى اليوم ، أسهمت فيه جميع الأمم وجميع الشعوب على امتداد التاريخ وهو ملك الجميع نأخذه من الغرب ومن الشرق ومن الشمال ومن الجنوب لأنها علوم انسانية ليس لها صاحب وان كان لها صاحب فنحن من أصحابها . بدأناها جميعا من فجر تاريخنا يوم اخترعنا علم القياس وعلم الحساب اختراعا ونحن نضبط مياه النيل ونقسم الأرض ، ويوم اخترعنا الكيمياء ونحن نحفظ الجثث ، ونحفظ الحبوب ونصبغ الجدران والقصور والمعابد والمقابر ، ويوم اخترعنا الطب والتشريح والجراحة ونحن نعالج مرضانا ، ويوم مخرت سفننا عباب البحرين الأحمر والأبيض ونحن ننشر الحضارة . لقد أنقذنا هذه العلوم يوم حميناها من جهل أوروبا فى العصور الوسطى ، ويوم شجع خلفاؤنا العلماء والمخترعين ، ويوم كتب ابن سينا وابن النفيس كتبهما فى الطب ، ويوم ألف أبو بكر الرازى كتب الكيمياء ، ويوم رسم الادريسى خريطة العالم ، ويوم كتب الخوارزمى علم الجبر ، ويوم كتب اخوان الصفا وابن رشد فى الفلسفة والمنطق ، ويوم ابتكر الحسن بن الهيثم نظريات الضوء الى آخر ما اخترعنا وكتبنا ، ثم أخذ الغربيون هذا التراث الضخم وأضافوا اليه مشكورين مأجورين فأوصلوه الى ما هو بينهم الآن ، فهذا كله تراث انسانى لا وطن له ولا لون ، لنا فيه نصيب – ولكل انسان – فنحن نأخذه من أى مكان ثقفناه .

من هنا كان اصرار رضوان على أن تربط التربية بين الثقافة العربية الأصيلة ، والثقافة الانسانية فى ميادين العلوم المختلفة ، العلوم الطبيعية ، والعلوم التطبيقية ، فلقد تغير الزمن من حول العرب ، وتغير وجه العالم الذى يعيشون فيه . فهم يعيشون الآن فى عصر العلم – العلم الطبيعى الذى يقوم على التجريب ، ويؤدى الى استغلال موارد الطبيعة .

وهم يعيشون فى عصر الصناعة والاختراع اللذين هما من نتاج تقدم العلوم الطبيعية وهم يعيشون الآن فى عصر الفضاء ، الذى فيه أخذ الناس يغزون العوالم الأخرى والكواكب الأخرى . وكانت الثقافة العربية تستمد قوتها من الجمع بين عنصرى الأصالة والمعاصرة ، أى عند تفاعلها تفاعلا حرا مع الثقافات الأخرى . وهذا يحتم اعادة النظر فى مناهج التعليم ، وطرق التعليم ، فالاعتماد على طرق التلقين مثلا يفقد المتعلمين الفرص التى يتعلمون عن طريقها القدرة على التحليل والتمييز والاختبار والابتكار . كما يتطلب تحقيق هذا الهدف اعادة النظر فى الكتب والمصادر ، فما زالت بعض المدارس فى الوطن العربى تعلم الناشئة مثلا عن نيوتن وباستير وستيفنسون ، ولكن يجب أن نعلمهم أيضا عن الخوارزمى وابن سينا والفارابى وابن الهيثم والغزالى وابن رشد ... الخ .

كذلك يؤكد أبو الفتوح رضوان على ضرورة تدريس النظم العربية بأسلوب يبرز القيم الانسانية التى تنطوى عليها ، خذ مثلا نظام الزكاة ونظام الضرائب على رأس المال ونظام الاشتراكية العربية والديمقراطية العربية والقيم التى تنطوى عليها ، وأوجه النقص فيها اذا قيست بالأوضاع الاجتماعية والسكانية الحاضرة ، وخذ مثلا الحرية الدينية وحرية الانتقال بين أجزاء الوطن العربى ، وعموم الجنسية العربية . من هنا كان تركيز رضوان على وجوب العناية بالتاريخ العربى :

« فالتاريخ العربى اذا أحسن عرضه تجلى فيه كثير من الحقائق منها أن العرب أمة واحدة ، وأن مصالح العرب واحدة ، وأن القومية العربية ضرورة من ضرورات الحياة فى العالم المعاصر ، وأن انتصارات العرب حدثت فى ظل القومية العربية ، وأن الاجتهاد أو انطلاق الذكاء الانسانى من أهم مصادر الفقه العربى والعالم العربى ، وأن طريق النصر هو مواجهة العرب لأعدائهم متحدين متكتلين ويجب أن تبرز فى دراسة التاريخ أمجاد العرب وأيامهم وما تنطوى عليه هذه الأيام من صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء ومؤامرات أصحاب الاستعمار وعملائهم ، ويجب أن تبرز أخطاء الماضى وتضحياته .. وواضح لكل ذى بصر بالتاريخ أن حوادث التاريخ العربى يمكن تجميعها حول هذه الحقائق .

من هنا كان اصرار رضوان على أن تراجم أبطال العرب فى السياسة والحرب والاجتماع والحكم والقانون والعلوم الطبيعية والآداب والفن باب بمفرده يجب أن يظهر فى مناهج المدارس العربية ؛ فيجب أن يكون التلميذ فكرة عن البطولة فى صورتها العربية وعن الذكاء فى مجاله العربى . كما يجب أن يظهر فى المناهج التعليمية والتربوية أهداف الأمة العربية الراهنة والاستراتيجية على حد سواء مثل : التحرر من الاستعمار ومواجهة

التحديات الصهيونية ، وعدم الوقوع في براثن الدعايات الهدامة وتحقيق العزة القومية وتقرير القومية العربية بين القوميات وبين تكتلات الشرق والغرب ، على أن تبرز هذه الأهداف وأهميتها عن طريق الحقائق التاريخية والجغرافية والسياسية والاجتماعية لا كقضايا عاطفية تلقى بلا سند من الحقائق .

وتوجيه المناهج توجيها قوميا عربيا يقتضى العناية الفائقة باللغة العربية الفصحى فهى الوعاء الذى انصهرت فيه وحدة العرب وحافظ على شخصيتهم على مر الحقب والقرون . ولذلك فكل دعوة الى اللغة العامية أو مهاجمة للنحو العربى وضبط الكلمات ، وكل ترخص فى هذا وكل مقاومة للأساليب العربية السليمة فى المدارس انما هو مؤامرة استعمارية لا يكون الانخداع فيها الا نتيجة جهل أو غفلة أو سوء نية .

وينظر أبو الفتوح رضوان الى الشخصية العربية الحالية نظرة موضوعية تحليلية تبرز الجوانب السلبية والايجابية فى هذه الشخصية . فالسلبيات كانت نتيجة مباشرة للرواسب التاريخية التى تبقت من استعمار الترك وسيطرة الغرب ، أما الايجابيات فهى نابعة من الأصيل العربى الصميم لهذه الشخصية القومية التى عرفت بتقديسها للقيم الروحية واعتقادها أن المادة ليست كل شيء . فقد يضحى العربى بنفسه أو بماله لأنه أعطى وعدا يريد أن يبر به ، أو لأنه ائتمن ويريد الوفاء بالأمانة أو لأنه يملك كلمة حق يريد أن يقولها . والعربى الأصيل أهل نجدة وتعاون ، فهو لا يعيش لنفسه فقط ، وانما يعيش لأهله ولجاره ولصديقه ولمبدئه ولفكره . ولذلك فهو حر الفكر ، يحب أن يفكر لنفسه ، وأن يجتهد فى تكوين رأيه والجهر به ، وخاصة أن الاجتهاد أصل من أصول الدين عند العرب . ومن ثم فهو يضع الثقافة والعلم وراء حدود الجنس واللغة والدين ، انه يطلب العلم ولو فى الصين . وينقل المعرفة ولو من الزنادقة .

هذه الشخصية القومية المركبة تستدعى ابراز السلبيات وتحليلها فى المناهج التربوية والتعليمية حتى تراها الأجيال الجديدة فى ضوء علمى موضوعى وبالتالى تتخلص منها سواء على مستوى الشعور أو اللا شعور . من هذه السلبيات الميل الى المحافظة ، بل والرجعية أحيانا ، والتعلق بأهداب الماضى والعمى عن احتمالات المستقبل . فالعربى يعتبر نفسه مسئولا عن تراث الأسلاف كله حتى عن حماقاته ، ويؤمن بما هو مكتوب على الجبين ، ولا يحاول تغييره ولا يظن بنفسه القدرة عليه ، فيقبل صروف الدهر دون أن يأخذ مصيره فى يده وينطلق . كما أنه متواكل لا يفرق

بين التوكل والتواكل ، ويخلط بين الايمان بالله وبين عدم الاعتماد على النفس فى تقرير مصيره • فالله يبعث بالرزق حتى للكسالى ، ويحمى المتراخين فى حماية أنفسهم ولذلك فصالح الانسان لا يحتمل تدخله فى صنعه •

ومن سلبيات الشخصية العربية انتظار العربى حتى يرى ما يفعله الآخرون ، مما يضيع جهده فى الانتظار وينزع من يده زمام المبادرة • كما أنه يغالى فى احتقار المادة وعدم الحرص على الدنيا ، ولا يعمل الا بالقدر الضرورى ، ولا يدخر لأن ما فى الغيب لا بد أن يصل الى الجيب • وهذا لا يصدر عن زهد حقيقى فى الدنيا ولكن عن ثقة مزيفة بالقدر وايمان مفتعل بالصدف • كذلك فان العربى — فى أحايين كثيرة — لا يكاد يرى غير صالحه الخاص أو ملكه الخاص • أما الصالح المشترك والملك العام فلهما دولة تحرص عليهما ولن يضيرهما فرد لا يعمل أو شىء يضيع • وليس للوقت قيمة عند العربى المتواكل ، فالعمل الذى لا يتم اليوم ، يتم غدا أو بعد غد ، والخير الذى لا يقع اليوم لن يضيع الى الأبد •

ويرى أبو الفتوح رضوان أن التربية القومية الشاملة تستطيع تدعيم ايجابيات الشخصية العربية والتخلص من سلبياتها فى الوقت نفسه • لذلك يجب تنظيم المدرسة العربية على نمط المجتمع العربى الذى نهدف الى اقامته حتى ينشأ التلاميذ وقد اكتسبوا المفاهيم والمهارات والاتجاهات اللازمة لتطوير المجتمع العربى • أى أنه ينبغى أقامة الحياة فى المدرسة العربية على أساس ايجابية التلميذ فى التفكير والقول والعمل ، وذلك فى حدود النظام وتوجيه المدرسين ، ثم على أساس تعاون التلميذ مع الآخرين من رؤسائه وزملائه ، وعلى أساس الانتاج والمحاسبة الدقيقة على الوقت والجهد •

وايجابية التلميذ لا تتأتى الا من خلال التربية الديمقراطية التى يجب أن توجه ضروب النشاط التعليمى فى المدرسة • فالمدرسة التى لا يرى التلميذ نفسه فيها الا مستمعا مأمورا منفذا مغلوبا على أمره ، ولا يعرف نفسه فى حياتها الا قزما بجانب عمالقة هم الناظر والمدرسون ، وليس فيها موضع لنظر التلميذ وفكره وتفكير وحكمه واختياره ومشاركته ، هذه المدرسة هى التى رسمها الاستعمار للبلاد العربية ليقطع سبيل النمو والقوة أمام الجيل الناشىء ، وليطبع الشخصية العربية بالتواكل السلبية والطاعة العمياء لسلطان المستغل أو المستعمر • أما التلميذ الذى ينشأ فى مدرسته وقد كون المهارات التى تحيله الى مشترك وليس متفرجا ، فهو

المواطن الذى يستطيع فى المستقبل أن يرفض أن يكون متفرجا فى موكب الحياة ·

ان بناء القومية العربية رهن ببناء الانسان العربى · وتلك هى المهمة القومية الملقاة على عاتق كل رجال التربية والتعليم فى جميع أنحاء العالم العربى ، فبين أيديهم يقع مستقبل الأمة العربية ، الذى لا بد أن يشكل تبعا للأسلوب التربوى والتعليمى الذى سينشأ عليه الانسان العربى المعاصر ·

٣٥ ـ فؤاد الركابي « سوريا »

فؤاد الركابي مفكر قومي عربي استطاع أن يمزج المفهوم الثوري بالواقع الراسخ بأسلوب لا يضيق ذرعا بالمصاعب المتراصة في طريق القوميين المخلصين الذين يتحتم عليهم أن يتحدوا هذه المصاعب ، لا عن طريق الانكفاء الى بحث التجريديات ، وانما عن طريق مجابهة الواقع الأليم حيث يكمن حسم القضايا القومية المصيرية • فاذا ما عرفنا هذا الواقع بأبعاده الحية وتتابع التحام القوى في ساحته ، وما يطرحه على السطح من معطيات تنتظر التحليل ، استطعنا أن نضع أيدينا على بدايات الحسم الذي نسعى اليه • وتتجلى انجازات فؤاد الركابي في أنه كان من الرواد الذي بلوروا نظرية الحركة العربية الثورة الواحدة • يتضح هذا في كتابيه « على طريق الثورة » ، و « مفاهيم في الاشتراكية والديمقراطية والوحدة » ١٩٦٥ • أما كتابه « الثورة العربية الاشتراكية والتنظيم » الذي نشره عام ١٩٦٤ فقد وضع فيه عصارة فكره القومي الاشتراكي ، وتفسيره للحركة العربية الواحدة •

وعندما يحلل الركابي تركيب المجتمع العربي في صوره وملامحه العامة الراهنة ، فانه يقدم صورا وملامح محزنة أليمة من التجزئة الممزقة والاستغلال المستنزف لطاقات هذه الأمة وقواها الطبيعية والبشرية والاستبداد الذي يحاول أن يطفيء شعلة تحركها الثوري نحو الحياة الجديرة بها • ولم يكتف الركابي في تحليله لتركيب المجتمع العربي بالعرض التصويري ، بل أخذ بتشريح هذا المجتمع ، خصائصه وسماته وقواه المتناحرة وطبيعة حركته • ثم انتقل بعد ذلك الى الثورة العربية الاشراكية المعاصرة ، فحدد دوافعها وقواها المحركة وطبيعتها ، ومهماتها وأهدافها • وبذلك مهد الطريق لبحث عدد من المسائل التي تهم الذهن

العربى الثورى ، كالعقيدة والتنظيم والقيادة والكم والكيف فى العمل الثورى .

ولا شك أن الفكر العربى الثورى يمر بمرحلة امتحان تاريخى عسير منذ مأساة الانفصال بين مصر وسوريا فى سبتمبر ١٩٦١ ، وعليه أن يؤكد أمام تحديات هذا الامتحان ، أكثر من أى وقت مضى ، أنه قادر على تجاوز هذه المرحلة الطويلة المريرة المظلمة ، بحتمية لا تنبع من الغيب المجهول لتصب فى الغيب المجهول ، بل بحتمية نابعة من قواه وطاقاته الفعلية التى تتجسد فى الواقع العربى عملا فعالا يخدم قضية الوجود العربى ومصيره . فهذا هو السبيل الوحيد برغم العقبات المتراصة فوقه ، وبرغم العوائق التى تصور للعرب أنه كتب عليهم التمزق والصراع والتشتت والضياع . وخاصة أن الوطن العربى كان دوما ميدان صراعات تاريخية ، وساحة للصدام امتد قرونا بعد قرون .

لكن منذ مولد الوعى العربى الحديث بدأت فى الوطن العربى ملامح ثورية عبرت عن نفسها فى انتفاضات وتحركات ثورية اتخذت أساليب معينة من الكفاح والنضال . وكانت تحقق بعض الظفر أحيانا ، كما كانت تصاب بالنكسة والتقهقر أحيانا أخرى . وقد كان هذا النضال الذى امتد عبر عهود طويلة يؤلف القوة الأساسية للتطور التاريخى فى المجتمع العربى . كان كل تحرك ثورى يتوجه بالضربة الى العدو ، يزيد من عمق الوعى العربى الثورى ومن صلابته ومن تطوير أساليبه وقواه التى يعتمدها فى ساحة النضال ، كما كان يزيد العدو ضعفا وترنحا أمام هذه الضربات المتلاحقة . وكان كل نصر تحرزه القوى الثورية فى الوطن العربى ، مهما ضؤل ، انما كان يؤلف فى الحقيقة دفعا فى طريق التقدم الاجتماعى .

وعلى الرغم من كل هذه الانتفاضات والحركات الثورية ، فان العلاقات الاجتماعية والقواعد الاقتصادية داخل كل قطر من الأقطار العربية ، ظلت على ما هى عليه دون أن يطرأ عليها أى تغير جوهرى يمكن أن يبدل الصورة الاجتماعية الى صورة اجتماعية أخرى جديدة تستطيع أن تجارى روح العصر . ولذلك ظل المجتمع العربى فى حقيقته خاضعا للقوى الاستعمارية ونفوذها بشكل أو بآخر ، وميدانا لتحالف قوى الاقطاع ورأس المال المستغل الانتهازى ، وهى القوى التى شكلت أساس العلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع . وكانت النتيجة الطبيعية أن أصبح المجتمع العربى الحديث ممزق الوطن ومشتتت بين مناطق النفوذ الامبريالى ومراكز القوى الاقطاعية ، وذلك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من معاهدات واتفاقيات مزقت الوطن العربى وأقامت فى معظم أجزائه نظما رجعية استند اليها التدخل الأجنبى فى حماية مصالحه ودعم نفوذه .

لقد غزت الدول الاستعمارية الوطن العربى وفى نيتها أن تمزقه وأن تجعل منه مناطق للنفوذ خاضعة للاستعمار المباشر أولا ثم المقنع ثانيا بعد انتهاء عصر الاحتلال العسكرى ، أى أن الوطن العربى فى نظر الامبرياليين مجرد مجموعة من المستعمرات وأشباه المستعمرات • ومن أجـــل تحقيق مخططها فى التمزيق وتشديد قبضة الحكم الاستعمارى ، استخدمت هذه الدول مختلف أنواع القمع والقهر على كل مستوى عســـكرى وسياسى واقتصادى وثقافى • ولقد بلغت وسائل القمع والقهر الاستعماريين درجة من الشدة والعنف قل أن تعرضت لها أمة أخرى من الأمم • فقد تجاوزت قوى الاستعمار حدود السيطرة المباشرة الى محاولات الالحاق والاقتطاع والقضاء على الوجود القومى • فالاستعمار الفرنسى مثلا لم يكتف بالاحتلال المباشر للجزائر ، بل حاول القضاء على الوجود العربى فى هذا الجزء من الوطن وفرنسته والحاقه بفرنسا • كما تجاوزت القـــوى الاستعمارية الدولية كل أسلوب استعمارى مألوف فأقدمت على اقتطاع بعض أجزاء من الوطن العربى وألحقتها بدول أخرى كما حدث للاسكندرونة مثلا • وكذلك تحالفت قوى الاستعمار العالمى وزرعت فى قلب الوطن العـــربى جسما غريبا عن وجود هذه الأمة اصطنعته على حســـاب الوجود العربى فى فلسطين •

ويرى الركابى أن سيطرة الاستعمار على الوطن العربى لم تكن نتيجة عبقريته ، لأنها كانت نتيجة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تحكم الوطن العربى الذى شكل مجتمعا اقطاعيا متخلفـــا ، تحكمه العلاقات القبلية فى الكثير من أجزائه ، وهى علاقات عميقـة الأصـــول والأثر فى حياة الشعب • ومجتمع بهذه الصورة الممزقة والوعى السياسى الاجتماعى المتخلف لا يمكن أن يصمد أمام مخططات الاستعمار التى تعتمد على التمزيق الداخلى على كل مستوى تنفيذا لمبدأ « فرق تسد » وتشجيعا للتعصب الطائفى والقبلى الذى يزيد من حدة التناحر على المصالح الفردية الضيقة • والمأساة تتجلى فى أن هذه الأسباب القـــديمة لا تزال تفرز نتائجها المتجددة حتى الآن بحيث يعانى الوطن العربى من الكوارث التى تتحدى وجوده ووحدة هذا الوجود والتى تتمثل فى التجزئة والتفرقـة والتمزق •

وعلى الرغم من كل هذه التحديات القاسية الممعنة فى التسلط الغاشم خارجيا وداخليا وعلى كل المستويات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فإن النواة القومية الصلبة فى قلب وجود هذه الأمة ظلت صامدة أمام كل هذه التحديات ، ترد عليها ، بل تتحداها هى

الأخرى أيضا ، متمثلة فى نضال عنيد مـرير ، اقتحمت فيه الجماهير العربية أكثر من ميدان فى صراعها مع تلك القوى المعادية ، فكانت فى كل انتصار وفى كل هزيمة أيضا تؤكد أن هذه الأمة جديرة بأن تحقق وجودها الكامل فى عصر لم يعد يحترم أو يرحم الكيانات الضعيفة الهزيلة ٠

واذا كانت قوى الامبريالية والرجعية والتخلف هى التى تؤلف القوى المعادية الأساسية فى الوطن العربى ، فانه يتحتم على القوميين العرب أن يحددوا طريق القومية العربية من خلال تقدير علمى وواقعى ، لمدى قوة هؤلاء الاعداء ومدى اصرارهم وعنادهم فى سبيل الاحتفاظ بمواقعهم فى وجه المد القومى العربى ٠ وقد أكد تاريخ الثورة العربية المعاصرة أن معسكر القوى المعادية يتمتع بطاقات وامكانات ضخمة قائمة على تخطيط دقيق وخطر يستهدف الحفاظ على مواقعه ومراكزه فى مختلف ساحات الوطن العربى ، بل ويستهدف دك المواقع والمراكز التى استطاعت القوى العربية الثورية أن تحتلها خلال نضالها الطويل ٠ وفعلا استطاعت قوى العدو أن تحقق لنفسها بعض الانتصارات فى هجماتها المضادة هذه ، كما حدث فى الاقليم السورى الذى أسقطته كموقع من مواقع الثورة العربية ، بفصله عن الجمهورية العربية المتحدة ٠ وتوالت الهجمات المضادة الى أن بلغت قمتها فى كارثة يونيو ١٩٦٧ ، مما يؤكد أن الوطن العربى كان وسيظل هدفا للهجمات الخارجية والمؤامرات الداخلية على حد سواء ٠

ويعتقد الركابى أن قوى الاصطدام فى هذه المعركة المصيرية مـع معسكر الاعداء ، هى قوى الشعب العاملة من عمال وفـلاحين ومثقفين ثوريين من مدنيين وعسكريين وحرفيين ، اذ أنهم أصحاب هذه الثورة فكرا ومصلحة ٠ لكنها ثورة لا زالت تفتقر الى وحدة التعبئة والتنظيم والتحرك الثورى فى وجه القوى المعادية ، وهى لازالت تعيش هذا الواقع القاسى الذى وضع قواها المحركة دون مستوى مسئولياتها ٠ وهـذا يرجع الى مجموعة عوامل تاريخية وواقعية ، تتعلق أحيانا بشكل مباشر بدرجـة النضج الثورى وأحيانا أخرى بالظروف الموضـوعية التى تعيشها الأمـة العربية المعاصرة كالأوضاع السياسية والاقليمية التى تؤدى بطبيعتها الى صراعات جانبية تشغل العرب عن معركتهم المصيرية ٠

وأية ثورة عربية حقيقية ــ فى نظر الركابى ــ لا بد أن تجمع بين القومية والاشتراكية ٠ فالمجتمع العربى يقوم اليوم على تنافس أساسى حاد بين قاعدة جماهيرية تعانى أسوأ صور الاستغلال لحساب فئات بيدهـا كافة الأجهزة التى تخولها عملية الاستغلال تلك بأبشع الصور ٠ وهذا التناقض بين الجماهير وقوى الاستغلال استمر أجيالا طويلة بحيث أصبح الحل الاشتراكى أمرا محتوما بفعل التطور التاريخى وبفعل الحاح الظروف

التى تبلورت خلال مراحل النضال والتى نجمت عنها تلك الضرورة الملحة لطرح هذا الحل التاريخى الجوهرى لمعضلة تركيب المجتمع القومى وما يعيشه من تناقضات قائمة على الاستغلال ·

ولا شك أن الثورة ضد التجزئة كانت القضية الأساسية التى ترتبط بوجود هذه الأمة والتى حركت قوى الجماهير الواسعة من أجل الغائها وتصفيتها حتى لا تنخر كالسوس فى عظام الكيان القومى · وكان تحرك القوى الثورية مستمدا من احساس تاريخى عميق الأصول بوحدة هذه الأمة ووحدة قوميتها والرفض القاطع للتجزئة الفاجعة المرة التى عانت منها · ذلك أن التجزئة كانت تحديا ذا طابع آخر يستهدف سد الطريق فى وجه الحضارة العربية الانسانية حتى لا تؤدى دورها الايجابى فى عالمنا المعاصر وحتى لا تتفاعل مع مختلف أمم العالم المتحررة من أجل خير الانسانية · ومن هنا كانت الطبيعة القومية الكامنة فى أية ثورة عربية من أجل كيان عربى على مستوى العصر ·

ويؤكد الركابى فى كل كتاباته على الطبيعة المزدوجة لكل ثورة عربية ، وهى الطبيعة التى تتمثل فى القومية والاشتراكية · وهذا يعنى سياسيا ديمقراطية قوى الشعب العاملة ، واقتصاديا تصفية قواعد الاستغلال والعمل على تحقيق الملكية العامة لوسائل الانتاج وادارتها ديمقراطيا من قبل قوى الشعب العاملة ، كما يعنى قوميا وحدة الوطن العربى · وهذا الفكر القومى لن يتأتى له أن يخرج الى حيز التنفيذ الا من خلال تنظيم قومى يربط بين العقيدة والتطبيق · ومن هنا تبدو لنا المهام القومية الضخمة التى لا بد أن تتجمع حولها الأمة العربية بحكم طاقتها الجاذبة ، والى تحتم قيام تنظيم شعبى ينهض بهذه المسئولية الكبرى على مستوى العالم العربى فى مختلف مراحل المعركة ، ذلك أن أية ثورة من الثورات لا يتسنى لها تحقيق نصرها الحاسم على أعداء أقوياء مثل أعداء الأمة العربية ، ما لم تتوافر لها قيادة ثورية جديرة بأداء مسئوليات القيادة ·

وقد يبدو الفكر القومى عند فؤاد الركابى مغرقا فى التفاؤل والمثالية اذا ما ألقينا نظرة سريعة على الواقع الممزق الأليم الذى تعيشه الأمة العربية اليوم · ولكن يجب ألا ننسى أن معظم التغييرات الجذرية فى حياة الأمم بدأت بمثل هذا الفكر القومى المثالى الذى تتشربه الجماهير مع الأيام والتجارب والمحن ، بحيث يتحول بعد ذلك الى جزء لا يتجزأ من فكرها وكيانها · عندئذ يتحول الى طاقة فعلية تعمل على تغيير الواقع المرير · ولذلك يتحتم على المفكر القومى أن يذكر أمته دائما بمعالم الطريق وبهدفها الاستراتيجى ، والمسألة بعد ذلك مسألة وقت طال أم قصر ·

٣٦ ـ عبد العظيم رمضان « مصر »

يعتبر كتاب « تطور الحركة الوطنية فى مصر » « من سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٤٨ » لعبد العظيم رمضان من أهم الكتب التى حاولت تحليل العلاقة بين الوطنية المصرية والقومية العربية بهدف ازالة أية شبهة لبس أو تناقض بين العنصرين اللذين يشكلان وجهين لعملة واحدة هى الوجود المصرى العربى • كما تعود أهمية الكتاب الى صدوره فى وقت كانت الأمة العربية تستعد فيه لخوض حرب أكتوبر المجيدة • فقد صدر فى عام ١٩٧٣ مبلورا على المستوى النظرى انتماء مصر العربى ، فى حين جسدت حرب أكتوبر هذا الانتماء على المستوى العملى والمصيرى •

ويتتبع عبد العظيم رمضان النمو الايديولوجى للقومية العربية فى مصر فى الوقت الذى كانت تجرى فيه أحداث الحرب العالمية الثانية على مسرح العالم العربى ، وظهرت فيه جامعة الدول العربيـــة كأول تجسيد لأيديولوجية القومية العربية على أرض مصر • وكان قيام الجامعة العربية وليد عاملين أساسيين : الأول ، انتصار الأيديولوجية العربية فى مصر ، والثانى ، تحالف المصالح البريطانية مع المصالح العربية فى قيام الجامعة ابان الحرب • ولذلك يعتقد عبد العظيم رمضان بأن أيديولوجية القومية العربية فى مصر حديثة جدا ، الى حد أنه يمكن القول بأنها كانت مجهولة تماما فى مصر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى • ويرجع ذلك الى اختلاف الظروف التاريخية التى تكونت فيها مقومات القومية العربية عن ظروف تكوين مقومات القومية المصرية ، وغلبة الأيديولوجية الاسلامية فى مصر على كل الاعتبارات القومية ، سواء أكانت مصرية أو عربية ، منذ الفتح العربى لمصر الى ميلاد الحركة القومية العربية ، كما يرجع أيضا الى النمو التاريخى المتميز لمصر منذ بداية القرن التاسع عشر •

فقد اختصر النيل فى مصر الطريق الى تكوين المقومات القومية للشعب المصرى ، وذلك بفرضه الوحدة على المجتمع الزراعى القائم على ضفافه ، بما كان يحمله من خطر يتهدد الجميع وقت الفيضان ، ومن فائدة مشتركة تعم كل الناس اذا نظموا الافادة من حياة النهر · ومن هنا قامت الحكومة المركزية التى تبسط نفوذها على الجميع ، وتبلور الكيان الموحد الذى ظل قائما عبر مختلف العصور وتعاقب الغزوات ، ومن ثم ترسخت الوحدة القومية السياسية والاجتماعية عبر جميع الحقب التاريخية · أما فى شبه الجزيرة العربية فلم تكن الوحدة التى جاء بها الاسلام وحدة عربية ، بل وحدة اسلامية · ومن هنا حل الشعور بالرابطة الإسلامية محل الشعور بالرابطة القبلية دون أن يمر بالمرحلة القومية ·

وقد قام أول شعور قومى عربى مختلط بالمؤثرات القبلية الموروثة والمؤثرات الاسلامية المكتسبة فى عهد الدولة العربية ، ولكنه توقف بعد زوال الحكم الأموى العربى لغلبة العناصر الاسلامية غير العربية على الحكم وتعاقبها عليه منذ عهد المعتصم العباسى ، ولتغلب المفهوم الاسلامى للجماعة على كل مفهوم قومى · ولذلك فان مدلول كلمة « عربى » الذى انتشر فى العصر الأموى ، وأصبح يشمل كل من انتسب الى شبه الجزيرة العربية ، سواء بقى فيها أو خرج منها فى الجاهلية أو الاسلام ، قد ارتد الى معناه القديم ، أى التصق بسكان البادية فقط ، اذ لم يعد فى الامكان اطلاق هذا اللفظ على الجيل المستعرب ، بعد أن فقد نقاوة الدم العربى ، كما لم يعد فى الامكان اطلاق اللفظ على كل من يتكلم العربية ، لأن اللغة العربية صارت تتكلمها عناصر كثيرة غير عربية · فأصبح اللفظ قاصرا على العناصر البدوية التى عرفت به أصلا ، أو دالا على رفعة النسب · لذلك عندما استيقظ الشعور القومى فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، لم يستيقظ على « العربية » ، وانما استيقظ على « المصرية » ، لسبب بسيط هو أن القومية المصرية كانت قد تكونت منذ بداية التاريخ ، فى حين لم تكن القومية العربية قد تميزت بعد داخل الجامعة الاسلامية الكبرى ·

أما عن غلبة الرابطة الاسلامية فى مصر على المفهوم القومى فذلك يرجع الى أن الفتح العربى لمصر كان فتحا اسلاميا فى الدرجة الأولى ، والى المفهوم الاسلامى للأمة والذى يعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة مهما كانت جنسياتهم · وعلى الرغم من أن الاسلام قد انتشر فى مصر على يد العرب ، فان السيادة العربية ذاتها لم تستمر ، فقد انتقلت الى عناصر اسلامية أخرى مثل الاتراك والمماليك والعثمانيين وعلى الرغم من كل المقومات التى تجعل من شعب مصر جزءا لا يتجزأ من الأمة العربية ، فان الاحساس بالعروبة كان غائبا فى مصر ، لأنه كان غائبا فى الأمة العربية جميعها ·

وكان النمو التاريخى المستقل لمصر منذ بداية القرن التاسع عشر قد أدى الى استقلال الشعور القومى فيها عن الشعور القومى العربى فى حقبة تاريخية حاسمة انتشرت فيها الأفكار القومية مع انتشار الثورة الفرنسية والثقافة الغربية فى العالم العربى خلال القرن التاسع عشر · وقد تمثلت العوامل التى أدت الى صياغة مجتمع متميز فى مصر ، فى الحملة الفرنسية ثم قيام محمد على باخراج مصر من نطاق الولاية التابعة للسلطنة الى دولة ذات استقلال ذاتى قائم على قوة عسكرية وسياسية واقتصادية تحسب لها أوروبا والسلطنة ألف حساب ، ثم قضائه على طبقة المماليك وتكوينه الجيش الوطنى الحديث من أبناء الفلاحين ، وحروبه فى بلاد العرب وفى قلب أفريقيا وفى أوروبا وضد الدولة العثمانية ذاتها · ثم الوضع المتميز الذى صار لمصر بمقتضى تسوية لندن عام ١٨٤٠ ، والاحتكاك العلمى والحضارى بأوروبا ، وظهور طبقة مثقفة متأثرة بالأفكار الأوروبيـــة ، وتطور حيازة الأرض من نظام الالتزام الى نظام الاحتكام الى نظام الملكية الخاصة ·

ولقد أخذت مظاهر هذا الوعى القومى المصرى المستقل عن الوعى القومى العربى تبرز تدريجا من خلال رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وحسين المرصفى وأحمد عرابى · وتمثل أول مظهر سياسى لهذا الوعى فى تأليف الحزب الوطنى القديم الذى نص برنامجه على أنه « حزب سياسى لا دينى ، مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب ، لا ينظر لاختلاف المعتقدات ، ويعلم أن الجميع اخوان ، وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية »· ثم تمثل المظهر الثانى فى الجيش المصرى الذى شهد أكبر حركة قومية بين الضباط المصريين ضد العناصر الاسلامية الأخـرى من تركيـة وشركسية وغيرها ، وذلك لاحتكارها المناصب العليا واستئثارها بالمرتبات الضخمة والترقيات · وكان أول تآزر بين الوطنيين من المدنيين والعسكريين قد برز فى مظاهرة ١٨ فبراير ١٨٧٩ التى أقيلت على أثرها وزارة نوبار . ثم تفجرت الثورة العرابية التى كانت أقوى تعبير عن القومية المصرية فى ذلك الوقت ·

ويوضح عبد العظيم رمضان التناقض الذى وقع بين القومية المصرية والقومية العربية فى ذلك الوقت من خـلال موقف كـل من مصر والبلاد العربية تجاه الدولة العثمانية · فقد اقتضت المصلحة الوطنية المصرية . لاكراه انجلترا على الجلاء ، الاعتماد على الدولة العثمانية والتعلق بها ، فى حين كانت الظروف السياسية فى البلاد العربية الأخرى الواقعة تحت الحكم العثمانى المباشر ، تجعل الصراع القومى يدور أساسا مع الدولة العثمانية · فعندما كان أحرار العرب يتآمرون على السلطان عبد الحميد ،

ويشتركون مع حزب الاتحاد والترقى فى التمهيـــد للثورة عليه ، كان مصطفى كامل فى مصر ينعت السلطان بأنه « أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان » وكان يضرع الى الله فاطر السموات والأرض أن « يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها ، وللاسلام امامه وناصره ، جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازى عبد الحميد الثانى » ٠ وقد سار على نهج مصطفى كامل كل من عبد الله النديم والشاعر أحمد شوقى ٠ وحتى أحمد لطفى السيد ، الذى كان يهاجم فكرة الجامعة الاسلامية وينادى باستقلال مصر عن تركيا وانجلترا ، لم يعترف بوجود مسألة عربية تستأهل النظر فى حلها ٠

ومع سقوط دولة الخلافة ، وخضوع العالم العربى فى معظم أجزائه للنفوذ الاستعمارى ، تماثلت ظروف البلاد العربية ، وأخـــذت الثورات تنشب تباعا فى كل بقعة من بقاعه : فى مصر ، وفى العراق ، وسوريا ؛ وفلسطين ؛ وتونس ؛ والمغرب ، فقربت روح الجهاد بين كل هذه الشعوب. ووثقت بينها الآلام والآمال ٠ ثم برزت مشكلة فلسطين ، فكان لها الأثر الحاسم فى تجميع المجهود العربى ، وفى اجتذاب مصر خاصة الى حقل القومية العربية ٠

وكانت لفظة « العرب » فى تلك الأثناء قد أخذت تنتقل تدريجـا من معناها الكلاسيكى السائد فى مصر قبل الحرب العالمية الأولى ، والمرادف لكلمة الأعراب ، الى مدلولها الحديث ٠ اتضح هذا الاتجاه من خلال محاولات واجتهادات من المفكرين المصريين ، شغلت صفحـــات كثيرة من الصحف والمجلات فى تلك الفترة ٠ من هؤلاء المفكرين على سبيل المثال محمد لطفى حسونة ومحمود عزمى ومحمد حسين هيكل ومحمد زكى عبد القادر وغيرهم ممن أبدوا ادراكا واضحا لحركة التاريخ المتجهة بالبلاد العربيـة نحو الوحدة القائمة على رابطة التاريخ والجنس والدين واللغة والأرض والمستقبل الواحد ٠

على أن الفكرة العربية تلقت بقضية فلسطين دفعة قوية الى الأمام فى مصر ٠ فقد خطب محمد على علوبة باشا ، الذى تولى الدفاع عن حقوق العرب فى جدار البراق الشريف أمام لجنة التحقيق الدولية فى القدس ، خطابا تاريخيا هاجم فيه الفرعونية هجوما شديدا ودعا لعروبة مصر كحقيقة راسخة لا تقبل الجدل ٠ وفى مايو ١٩٣٦ أصدر أمين سعيد مجلة «الرابطة العربية » التى قصد بها ــ حسب قوله ــ أن تكون صلة وصل بين مصر والأقطار العربية تحمل اليها ما يجب أن تطلع عليه من أخبار تلك الأقطار وتحولها السياسى والاجتماعى والاقتصادى وبالعكس ، وتعالج قضايا العالم

العربى وترفع صوته وتدافع عن مصالحه ... الخ . وفى عـام ١٩٣٨ تكونت « جمعية الوحدة العربية » التى خدمت هذه القضية باقامة المهرجانات والمحاضرات والندوات . ثم تألفت « رابطة العروبة » ، وكان أغلب أعضائها من طلاب كلية الحقوق فى جامعة فؤاد الأول . وفى الوقت نفسه تأسست « اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشباب الجامعى والمدارس العليا فى مصر » برئاسة عبد الرازق محمود ، ودعت أفراد الشعب الى الوعى بمسئولياتهم العربية وارتباطهم المصيرى بالواقع العربى . وفى مايـــو ١٩٤٢ تأسس « الاتحاد العربى » على أثر بيان نشره فؤاد أباظة فى جريدة المقطم فى عدد ١٦ سبتمبر ١٩٤١ دعا فيه الى حلف عربى يضم مصر وسورية ولبنان وفلسطين والأردن والعراق والسعودية واليمن وليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، والى تأسيس جمعية تعمل لهذا الحلف . وكانت أهداف الاتحاد تنمية العلاقات وتقوية الروابط بين الدول العربية ، وانشاء أندية للاتحاد العربى فى مختلف الاقطار العربية واصدار مجلة تبشر بالقومية العربية وعقد مؤتمرات سنوية . وقد استمر الاتحاد فى عمله عشر سنوات ، وكون لنفسه فروعا فى بغداد وعمان وبيروت والمهجر . وأشرف على عدد من الزيارات المتبادلة بين المسئولين العرب فى مختلف أقطارهم . ومن انجازاته ايجاد علاقة وثيقة بين مصر والسعودية أيام فاروق وابن سعود ، وادانته سياسة فرنسا فى لبنان عام ١٩٤٣ ، وامداده اللبنانيين بالمـال والأدوية وغير ذلك من الخدمات العربية . وكان من كبار أعضاء هذا « الاتحاد العربى » محمد على علوبة وعلى ماهر وتوفيق دوس وموريس أرقش وفؤاد أباظة وخليل ثابت وأسعد سلهب .

أما حزب الوفد فقام بدور ريادى فى نمو الفكرة العربية فى مصر فى الثلاثينيات وذلك من خلال اهتمامه بالأقطار العربية بصفة عامة وفلسطين بصفة خاصة . وكان مصطفى النحاس ومكرم عبيد من أشد زعماء الوفد تحمسا للقومية العربية والقضية الفلسطينية برغم ضـــغوط الاحتـلال البريطانى على مصر فى ذلك الوقت . وكانت قضية فلسطين أول مجال مارست فيه مصر استقلالها الخارجى بعد معاهدة ١٩٣٦ حين وقف وزير الخارجية الوفدى واصف بطرس غالى باشا فى عصبة الأمم ، معارضا مشروع التقسيم البريطانى ، ومطالبا بعقد معاهدة بين انجلترا وفلسطين تستهدف تأمين استقلال فلسطين وضمان جميع المصالح فيها ، « والمحافظة بنوع خاص على حقوق اليهود المقيمين فى فلسطين ، والذين يصبحون حينئذ فلسطينيين كغيرهم من المسلمين والمسيحيين القاطنين فى تلك البلاد » .

وكان النحاس باشا قد أعرب عن نفوره من مشروع التقسيم للسفير البريطانى السير مايلز لامبسون يوم ٢٤ يوليـــو ١٩٣٧ ، وقال انه

« لا يستطيع أن يحس بالاطمئنان وهو يفكر فى قيام دولة يهودية على حدود مصر . اذ ما الذى يمنع اليهود من أن يدعوا لهم حتى حقا فى سيناء فيما بعد » . وحديث خطير مثل هذا يوضح الى أى حد كان الوفد مدركا لأبعاد الخطر الصهيونى فى مثل تلك المرحلة المبكرة ، ويعى تماما أنه لا يقتصر على فلسطين وحدها ، وانما يهدد مصر أيضا .

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية كانت هناك قضيتان تشغلان بال الوطنيين العرب فى جميع البلاد العربية بدرجات متفاوتة : القضية الأولى ، هى فلسطين ، والثانية هى الوحدة العربية . لكن ساسة بريطانيا كانوا يدركون بحكم ريادتهم فى سياسة « فرق تسد » أن عوامل التفرقة التى بذروها فى البلاد العربية قد أصبحت أقوى بكثير من صيحات التوحيد . فقد نشأت فى هذه البلاد أنظمة مالية واقتصادية وسياسية متباينة ، وتكونت قوى سياسية محلية ترتبط مصالحها بالابقاء على التمزيق ، ولم يكن من اليسير على هذه القوى أن تتنازل طواعية عن مصالحها الخاصة وتقبل بوحدة حقيقية تزول فيها الحدود والحواجز ، وانما كان قصارى جهد هذه القوى أن تردد صيحات الوحدة التى كان الوعى يزداد بها فى صفوف الجماهير العربية ، فى نفس الوقت الذى كانت تتحول فيه الحواجز الورقية الى حواجز من فولاذ .

ولعل هذا هو العامل الأساسى المتسبب فى اجهاض كل محاولات الوحدة التى قامت فى العالم العربى فى الثلاثين سنة الأخيرة . ولا تزال عوامل التفرقة التى بذرها الاستعمار تشكل التحدى الحقيقى فى وجه كل القوميين العرب المخلصين الذين لم يتزعزع ايمانهم بصلابة القومية العربية برغم كل الطعنات الموجهة اليها من الأصدقاء قبل الأعداء ، ومن الداخل قبل الخارج .

٣٧ ـ عبد الله الريماوى « الأردن »

يعد عبد الله الريماوى من المفكرين الذين نظروا لفلسفة القوميـة العربية بعمق وشمولية ٠ فقد أصدر ابتداء من عام ١٩٦٠ سلسلة كتب موسوعية تحت عنوان « سلسلة الوعى العقائدى » تناول فيها بالدراسة والمقارنة والتحليل الحركة القومية العربية الحديثة من زاوية المنطق الثورى والقومية والوحدة والاشتراكية والحرية والديمقراطية ، ثم قدم نظرية فى الأسلوب الذى يمكن أن يشكل اطارا لنظرية القومية العربية ٠ فقد أراد عبد الله الريماوى أن يرتفع باتجاهات القومية العربية الى مستوى العقيدة ، وبالنظرة الحماسية الى مستوى النظرية الفكرية ٠

يتتبع عبد الله الريماوى فى سلسلة كتبه جذور القومية ومنابعها الحقيقية فى الوجود الانسانى ، والنظرية التى يستند اليها المبدأ القومى فى تفسير التاريخ الانسانى ومنطقه ، ثم يقدم الريماوى اجابات علميـة مؤيدة بالبراهين والأدلة على الأسئلة التى تطرح نفسها كلما تعرض مفهوم القومية للدراسة والتحليل ، سواء بالتأييد أو المعارضة ٠

هل القومية مرحلة عابرة فى التاريخ جاءت ثم تمضى ؟ أو تراها غير ذلك ؟ واذا لم تكن كذلك فهل هى « قدر » ـ محببا كان أو غير محبب ـ نزل من السماء والغيب ليحل فى هذه الأرض وليكون خالدا عليها ؟ أو لعلها « ازدهار نابع من الأرض وظاهرة من ظاهرات الاقتصاد » ؟ أو ترى القومية والقوميات نشأت فى مرحلة معينة من تاريخ الانسان وانها على الرغم من ذلك باقية ما بقى هذا الانسان انسانا ؟

هل القومية نقيض للانسانية بينهما صراع منبثق من حقيقة كـل منهما وماهيته ؟ وهل هو صراع خـالد لن ينتهى ، أم تراه منتهيا الى نتيجة ؟ وعندئذ أيكون النصر والغلبة للقومية أم للانسانية ؟

هل الانتقادات والتجريحات التى تتعرض لها القومية فى أنها لا بد وأن تكون عدوانية معتدية أو أن تتطور لشىء من هذا أثناء نموها ، انتقادات وتجريحات ترتكز الى أساس صحيح ؟ أو تراها انتقادات وتجريحات تنبثق عن مغالطة قائمة على الخلط بين « القومية » و « حركة قومية » ، بل بين « القومية » و » حركات قومية معينة » ؟ وأنها اذن وهى تصح فى حركات قومية أوروبية ولدت مع ميلاد الانقلاب الصناعى وتمت بنموه ، لا تصح فى كل حركة قومية تنشأ فى ظروف موضوعية أخرى وتنبع من منابع تاريخية أخرى ؟

هل توجد القومية بمعزل عن وجود الأمة ؟ أو أن وجود الأمة وتوافر مقدمات الوحدة الحياتية التى لا بد من توافرها ليكون مجتمع بشرى معين أمة . شرطان موضوعيان لا تتقدم القومية الا بوجودهما وتوافرهما ؟

واذا كان الأمر كذلك ، فهل يعنى هذا أنه اذا وجدت الأمة قامت بالضرورة قومية هذه الأمة ؟ وما هى المقومات التى تجعل من مجموعة من الناس أمة ؟ وهل هى جميعها وبالضرورة المقومات نفسها لجميع الأمم ؟ أو تراها نسبية مرحلية تختلف جميعها أو بعضها من أمة لأخرى ، ومن حين لآخر ، أو تختلف فى الأهمية والمكان كمقومات من مقومات الأمة وحياتها بين أمة وأخرى ؟ وبين مرحلة وأخرى ؟

هذه هى الاسئلة التى يطرحها عبد الله الريماوى فى مطلع دراسته ، لأنها — فى نظره — أسئلة لا بد أن تواجه القومى العربى كما تواجه أى قومى آخر فى مكان وعصر مختلفين . وطالما أنها تواجهه فلا بد له من الاجابة عليها بطريقة أو بأخرى . فقوميته أو كونه «قوميا» تعنى أكثر من انتسابه لأمة ما ، وأكثر من مجرد قوله أن قدره هو أن يكون ابن قوم ما ، كما أن قدره أن يكون ذا وجه وتقاطيع ما . لذلك فهى أسئلة لا بد أن يجيب عليها « القومى » الجواب المبدأى العقائدى ، الذى يتخطى به حدود أمة معينة ونطاق قومية معينة .

فالقومى العربى « قبل » أن يكون قوميا عربيا واعيا ، وليكون كذلك، لا بد وأن يكون « قوميا » ومن ثم قوميا عربيا . ولا يعنى الريماوى بهذا « قبل زمنية » ، لكنه يعنى أنه على المستوى العقائدى لا بد من أن يكون « للقومى العربى » موقف من مسألة « القومية أو اللاقومية » بعمقها وشمولها ، يكون الأساس العقائدى لكونه قوميا عربيا . فالقومى اذن ، ليس عربيا ينتسب للأمة العربية ويؤمن بالقومية العربية أو يحس بها فحسب ، انه ، الى الحد الذى يعى حقيقة موقفه ومدلوله ومعناه — كقومى عربى آمن بالمبدأ القومى وتبناه ، مبدأ أساسيا فى عقيدته ، فى فهمه

للانسان ومجتمعه وتاريخه وحضارته ومصيره · فلم يكن موقفه « كقومي » مجرد رفض سلبي للمواقف والعقائد اللاقومية ، أو مجرد رفض لها · منبعه الايجابي هو شعوره بأنه قومي ينتسب « لقومه » فحسب ، ومستنده هذا الشعور فقط ·

أما بالنسبة لمختلف المدارس والحركات والاتجاهات القومية . فاننا نجد أنه اذا كان المبدأ القومي أو ما تزعم أنه المبدأ القومي قد جمعها في فهم الانسان وتفسير التاريخ ورفض اللا قومية ، فانها على الرغم من ذلك كله ، تختلف اختلافات أساسية حول مقومات القومية ومدلولها وتعريفها · فهناك حركة أو مدرسة ترى في العرق ونقائه أساسا للقومية ومقومها الوحيد ، وتستند هذه الحركة على هذا المفهوم العرقي للقومية في تصنيف الأمم والقوميات على درجات تبدأ بعرقها فأمتها فقوميتها في القمة ثم تنحدر بالأمم والقوميات الأخرى انحدارا مهينا · وهناك حركة ترى أن الأمم والقوميات من صنع الله اصطفى من بينها شعبا مختارا ووعده بأن يجعل منه سيدا للشعوب كافة · وهناك حركة ترى « الشعور » أساسا للقومية ، وتنطلق في هذا الرأي حتى لتنكر المقومات الموضوعية الحية التي تولد هذا الشعور وتكون أسسه ومنبثقاته المادية الملموسة · وهناك حركة تؤكد أن القومية « ظاهرة نفسية » · وأخرى ترى في البيئة الطبيعية المقدم الأساسي للقومية ، وأخرى تعتبر « ارادة الأمة » هي المقوم الأساسي الذي لا يعترف بالحدود الجغرافية الطبيعية وترى أن للقوميين باسم الارادة القومية أن يحطموها حينما يشاؤون ويريدون ·

ويرى الريماوي أننا اذا انتقلنا من ذلك كله الى صعيد القومية العربية ، فلن نجد المسألة بسيطة سهلة ، ولن نجد الموضوع بعيدا ، لا عن المبادىء والفئات والحركات والمصالح اللاقومية فحسب ، تعبث فيه وتعمل جاهدة من وجهة نظرها لانكار القومية العربية والتنكر لها ، وانما – نجد الاختلافات أيضا بين القوميين العرب حول مقومات القومية العربية، وحول مفهوم القومية العربية ، كما لا نعدم حركات أو مدارس فكرية « قومية » ولكنها استنادا لعقيدة مصطنعة أو مصلحة خاصة تضع أمام الأمة العربية مبادىء قومية تحاول أن تنكر الأمة العربية والقومية العربية· والأمر نفسه قد يصح في قوميات أخرى وأمم أخرى ·

لن يجدي القومية العربية والأمر كذلك ، أن يدعو البعض لدفن الرؤوس والعقول في الرمال وأن يدعو البعض لوضع مسألة « القومية » خارج نطاق العقل ، وفوق مستوى البحث والتحليل ، وأن يدعو البعض « لنظرية » في القومية و « لموقف » من المسألة القومية ، يحاول أن يحميها ويحميه من النقد والنقض – لا ببيان محتواهما ومنابعهما كنظرية

وموقف ، وتدعيم ذلك بالمتطلعات العقائدية الواضحة ، والتأييد التاريخى الحى ، وانما بالدعوة بعد طرح « النظرية والموقف » ــ وهما فى الغالب غيبيان مثاليان ، يطرحان بأسلوب غيبى حـــالم ، يحاول أصحابه أن ينقلوك على أجنحة من التعابير المراهقة الى « السماء » أو « المطلق » أو « تقمص القدر » ، وهم بدعوتهم هذه يعتبرون أنفسهم منابع ومصادر للقول الحق الفصل النهائى المطلق فى هذه القضية ، ويدعون الى تعطيل العقل والبحث العقلى ، والسخرية من الوعى الذى ينهض على الدراسة والتحليل العلميين ٠

ويؤكد الريماوى أن الحركة القومية العربية تخطت مرحلة الرومانسية ولا بد لها بحكم التاريخ أن تكون عقلانية ، وأن تكون علميـــة حياتية انسانية ٠ فصراعها ونضالها فى وجهيه الدفاعى السلبى والايجابى الخلاق يتطلب ذلك ٠ انها لا بد أن تتفادى الشطحات اللاعقلانية ، والمتناقضـات اللامنطقية ، والغيبيات الحالمة التى تعد من أهم وأقوى المعاول فى يد أعداء الحركة القومية العربية ، ومن أهم وأقوى العوامل السلبية ، ومن ثم الابتعاد بل الانحراف أحيانا عند جيل عربى متفتح جديد يفترض فيه أن يواجه المشاكل والقضايا العقائدية تطـرح وتعـالج على مستوى من العـلمية والعقلانية والجدية والمسئولية ، بدلا من أن يصيبه الـــذعر والاشمئزاز الفكرى من تلك الشطحات والتناقضات والغيبيات التى تطرح أمامه على أنها عقيدة الحركة القومية العربية ومنطلقاتها الأساسية ٠ فيدفع هـذا الذعر والاشمئزاز ببعض عناصر ذلك الجيل ، الى الحـــركات المناهضـة للقومية ، وخاصة تلك التى تخاطب عقله ووعيه ومنطقه ، وتحاول أن تؤيد مفاهيمها بالعلم والدراسات التحليلية المقنعة ٠

ويبدو المنهج العلمى الصارم عند الريمـاوى عندما يؤكد أن أكبر جريمة يمكن أن ترتكب فى حق القومية العربية ، هى تقديسها بحيث ترتفع فوق مستوى أى نقاش أو تحليل وتتحول الى بدهية مطلقة يتعبد العرب فى محرابها دون أن يدركوا السبب وراء هذا التعبد الطقسى الغامض ٠ فالحقيقة أن الأسباب التى تدعو للنقاش والجدل والبحث والتحليل فى مجال القومية العربية ليست أسبابا خارجية فحسب ، بل انها من صميم طبيعة الانسان وصميم طبيعة تاريخه ونموه وتطوره ٠ فلن يكون مبدأ أو فكرة أو قانون ، ولن تكون حقيقة موضوعية أو وجود ، ولن يكون شعور أو احساس ، فى مستوى التسليم والبديهية ، ما لم يصل الى هذه المرتبة نتيجة للبحث والتحليل والنقاش العقلى الجدلى ، والتاريخى الحى ٠

ولن يبقى فى مرتبة البدهى المسلم به شىء من ذلك كله ، الا بمقدار توفر المقومات اللازمة له حتى وهو فيها كى يصمد أمام النقاش والبحث

والتحليل . والكثير مما كان في مراحل من تاريخ الانسان بدهيا مسلما به لم يعد كذلك لعدم قدرته على الثبات في مواجهة التحليل . ويبدو أن مبعث الاصرار على وضع القومية العربية في مستوى البديهيـــة وفوق مستوى النقاش والبحث والتحليل ، الاشفاق عليها أن يزعزع البحث فيها ايماننا بها ، أو الخشية أن يتحول النقاش الى جهد ضائع وجدل بيزنطى . لكن الحل الموضوعى لا يكمن فى رفعها لمرتبة المسلمات ، أو الادعاء أنها فى مستوى البديهيات ، أو القول ان لا حيلة لنا فى وجودها أو عدم وجودها ، وانما الحل يكمن فى ثقة القومى العربى فى أن القومية العربية قادرة عـلى الصمود أمام كل بحث وتحليل ، والتغلب على كل اتجاه لنقضها أو تقويضها . وهى ثقة أساسها القناعة العقلية الواعية ، والفهم العلمى الواسع العميق للانسان فى حقيقته ومجتمعه وحضارته . أما تجنب الجدل البيزنطى فيحتم أن يكون البحث فى مستواه ومحتواه وأسلوبه ، منتجـا محققا للوعى ، وقائما على العقل والعلم والتاريخ .

ويعتقد الريماوى أن القومية العربية لا يمكن أن تتجاهل روح العصر بصفة عامة . فالأمة العربية ليست ضمن سور ونطاق مضروبين حولها ، يعزلانها عن الانسانية والأمم الأخرى ، بـل انها فى ماضيها وحـاضرها ومستقبلها . شأن كل أمة أخرى ، جزء من هذا العالم الذى قصرت فيه الأبعاد واختصر فيه الزمان ، لها وطن يكاد يكون من العـــالم فى مكان القلب . يحتل بتاريخه وحضارته ، كما تحتل هى بتاريخها وحضارتها ، مكانة عظيمة الأهمية واسعة المدى فى تاريخ الانسانية وحضارتها . كما أن الأخذ والعطاء والتفاعل الحضارى : الفكرى والمـادى ، كل ذلك كان وسيبقى . من أهم الحقائق والمؤثرات فى حياة الأمـة العربية العقلية والنفسية والمادية ، وفى رسالة الأمة العربية محتوى وشكلا .

فاذا لم تكن الأمة العربية قادرة أو مدعوة للاسهام في ارساء معالم عقيدة ونظرية . لها شمولها الانسانى ، تضعها أمام العالم ، وتدعوه أن يرى : لعله يجد فيها ما يكون حلا أو خطوة نحو حل انسانى أعمق وأصدق من العقائد التى تتنازع العالم اليوم ، فتكون دعوتها هذه دعوة لا تنهض على قسر أو على تعصب أعمى ، دعوة سمحة هى دعـــوة القـــومية العربية الانسانية ، فان هذه الأمة لا تملك حينئذ ، وفى هذا العصر الذى يشكل فيه الصراع العقائدى مقوما من أهم وأعمق مقوماته الا أحد سبيلين . اما أن تأخذ بنظرية وفلسفة أو عقيدة أخرى من العقائد التى تتنازع العالم اليوم ، أو أن تزعم أنها حتى فى المستوى العقائدى العام، تتميز تميـــزا كيفيا وأساسيا عن كل أمة أخرى ، فتنكر بهذا الموقف انسانيتها كامة ، وتضرب حول نفسها عزلة قاتلة . لذلك لا يخالها عبد الله الريماوى فاعلة هذا أو ذلك .

٣٨ ـ قسطنطين زريق « سوريا »

يتمثل انجاز قسطنطين زريق فى مجال الفكر القومى العربى فى كتبه التى تركت بصماتها واضحة على معظم المفكرين الذين جاءوا بعده واضافوا اليه من هذه الكتب « الـوعى القومى » ١٩٣٨ ، و « معنى النكبة » ، و « نحن والتاريخ » بالاضافة الى العديد من الدراسات والمقالات والترجمات العلمية ٠

ولعل من أهم ملامح النظرية القومية التى سعى قسطنطين زريق الى بلورتها أن القومية العربية ليست شيئا فريدا فى التاريخ ، وانما هى واحدة من روابط ودعوات قومية متعددة ظهرت عند شعوب مختلفة فى الماضى الحديث وفى الحاضر الذى نعيشه اليوم ٠ لكل قومية خصائصها الناتجة عن محيط شعبها الطبيعى وتاريخه وثقافته وعلاقاته بغيره من الشعوب وآماله ومطامحه ولكنها كلها تشترك فى مظاهر عامة من حيث الغايات المنشودة والعوامل المؤثرة والمسالك المتبعة والنتائج المحققة أو التى يرجى تحقيقها ٠ لذلك يرى زريق أنه من الخير عند دراستنا للقومية العربية أو لأية قومية أخرى ألا نقيم حولها الحواجز والسدود فنقصر نظرنا عليها وننسى أو نتناسى وجوه الشبه بينها وبين الحركات والاتجاهات القومية الأخرى ، وتفاعلها وما يتصل من هذه بها ، ووضعها الخاص ضمن الأوضاع القومية بشكل عام ٠

ومن هذه الاتجاهات الأساسية أيضا أن القومية ليست دعوة أو رابطة سياسية فحسب ٠ ذلك أنها تتناول حياة المجتمع بكاملها محاولة تنظيمها وتوجيهها الى الغاية المرجوة ٠ ولذا لا سبيل ، من الناحية الفكرية، الى فهم وضع من الأوضاع القومية على ضوء الآراء والحركات السياسية التى تبدو فيه وحدها ، بل لا بد من النظر فى الأحوال الاقتصادية

والاجتماعية والعقلية والأدبية التى تميز هذا الوضع بالذات · وكذلك فان كل دعوة قومية تخلو من مضمون اقتصادى واجتماعى وعقلى وأدبى تبقى ضئيلة الأثر قليلة الجدوى ، وبخاصة فى هذا العصر الذى زخرت فيه قوى الحياة وتنبهت الأفراد والشعوب الى حقوقها ومطالبها · وبهذا المقياس ــ بمقياس سعة المضمون وأصالته ــ تقاس قيمة الفكرة القومية والعمل القومى ·

وعلى هذا ، فان دراسة أية فكرة قومية لا تتم بالبحث التاريخى أو السياسى وحده ، وانما بمعالجة تجمع وسائل العلوم الاجتماعية كلها · ذلك أن بحث هذا الموضوع يتطلب مشاركة من الاختصاصيين فى شتى شئون الاجتماع ، بأوسع معانى « الاجتماع » وأعمقها ، فما قولنا اذن بصوغ الفكرة القومية ذاتها ، أو بالجهد القومى الراعى الى تحقيقها · ان هذا أو ذاك يتطلب أوسع مشاركة ممكنة من جميع الذين تؤهلهم كفاءاتهم العلمية لأن يسهموا فيه بنصيب ·

والفكرة القومية لا تنمو بالنظر والدراسة فحسب ، بـــل بالاختيار العملى أيضا · انها تأتى ، كغيرها من الاتجاهات والحركات التى انتشرت فى التاريخ ، نتيجة للتفاعل بين النظر والعمل ، بين التأمل والاختبار · ولذا فالأحداث التى يتعرض لها مجتمع من المجتمعـات ، وكيفية تصدى قادة المجتمع وجمهوره لهذه الأحداث ، ذات أثر فى تكوين الفكرة القومية التى تسوده وفى تطويرها · لذلك فانه من الضرورى عند تحليل هـــذا الفكر ، التعرض لمناهج الأحزاب التى عملت فى الميدان القومى ، ولآراء قادة السياسة والعمل الذين تحملوا مسئوليات الجهاد والحكم · ذلك أن هذه وتلك تمثل وجوها من الرأى والاختبار والاجتهاد ، وخاصة أن أية فكرة قومية تتطور بتطور المجتمع · فالفكرة القومية العربية لم تنشأ تامة ، بل لا نستطيع أن نقول أنها بلغت أو ستبلغ مرتبة التمام أو الكمال · لقد كانت لها بذورها فى الماضى البعيد ونمت هذه البذور نموا بطيئا فى عصور طويلة لم تعرف القوميات الى أن بدأت تتفتح فى عهد قريب بفعل تجمع عوامل داخلية وخارجية كانت نتيجـة مباشرة وغير مباشرة لظـــروف التطورات التاريخية · وها هى تتطور بتطور المجتمع العربى ، وبفعــــل الأحداث التى تتلاحق فى سائر أنحاء العالم · وكلما تبدلت الأوضاع الداخلية والخارجية تأثرت هى بشكل من الأشكال · ومن هنا عبرتان : الأولى أن الفكرة الحية هى فكرة ديناميكية لا جامدة ، وكذلك المجتمع الحى · والثانية أن الفكرة ــ قومية كانت أو غير ذلك ــ تبقى وتنمو وتقوى بقدر ما تستجيب لتطورات عالمها المحدود والعالم الأوسع وبقدر ما تسهم ، من جهتها ، فى هذه التطورات ·

ويرى قسطنطين زريق فى القومية العربية فلسفة شاملـــة ومنهجا للحياة بكل أبعادها · ولذلك يعد كتابه « الوعى القومى » ١٩٣٨ كتابا رائدا فى مجال فلسفة القومية العربية ، اذ أنه من الصعب العثور على كتاب سبقه فى هذه الريادة القومية · فقد جعل قسطنطين زريق وضع فلسفة قومية مؤثرة ، فاعلة ، واضحة ، شرطا أساسيا لقيام أية نهضة عربية حقيقية · فليس لنا من أمل للنهضة القومية العربية ، ما لم تكن مستمدة من فلسفة قومية تصور روحها وتحدد اتجاهها ، وتنصب لهـا الأهداف ، وتعين لها السبل والوسائل · ان النهضات القومية فى جميع أنحاء العالم ، لم تكن لتتم الا نتيجة لتبلور الأفكار المختمرة وتدفقها الذى كان يسبقها ثم يرافقها · واذا كانت المناقشة والمجادلة الكلامية قد أضرت العرب من قبل ، أى فى العصور الغابرة ، فذلك انما كان ، لأن موضوعات الجدل والخصام كانت على غير صلة بوقائع الحياة وحاجاتها ·

ويعتقد زريق أن الفكر لا ينفصل عن اللغة ، كما لا ينفصل المضمون عن الشكل · لذلك فالمفكر القومى الواعى لا بد أن يدرس اللغة القومية لكى يعرف من أين نشأت ، وكيف انتشرت ، ويفهم ميزاتها على غيرها من اللغات ، والقوى الخاصة التى جعلتها تسود سيادة تامة على هذه الأقطار الشاسعة ، فلكل لغة نبوغ خاص وميزات تتفرد بها عن غيرهـا من اللغات · واللغة العربية ، بصفة خاصة ، قد أظهرت حيوية بالغة فى دقة تنظيمها ، وفى سعة انتشارها ، وفى مرونتها التى جعلتها أداة صالحة لنقل شتى العلوم والآداب · وهذا كله مما يهيب بنا الى استكشاف سر هذه الحيوية وفهم القوى الخاصة التى تمثلها لغتنا ، كى نستغل هـذه القوى فى تنظيم حاضرنا وبناء مستقبلنا ·

أما التاريخ عند زريق فلا ينفصل عن الوعى القومى ، بل هو سجل للمراحل التى مر بها هذا الوعى · فالوعى القومى يستلهم الماضى ، ويطلب الينا أن نحس روح تاريخنا ، وأن نفهم العناصر التى كونته · وعلينا قبل كل شىء ، أن نفهم العوامل الأساسية التى عملت على عظمة ماضينا ، والتى كانت السبب فى تقهقرنا · ونحن فى أشد الحاجة الى اكتشـاف القـوى الكامنة فى قلب العروبة على الأخص ، لأن الظروف والأوضاع الخارجيـة ليست ــ على أهميتها ــ بذات بال فى صنع التاريخ اذا قورنت بالقـوى الداخلية فى الأمة · فكم من أمم سقطت بين أيدى الفاتحين الأجانب فى الظاهر ، وكانت فى الحقيقة قد سقطت منحلة من الداخل قبل أى غزو خارجى · لذلك يبدو التاريخ بصفته الذاكرة الحية لتجارب الأمة جميعها ، ضروريا لبناء الحاضر ، ووضع خطط المستقبـــل ، على أسس المـــاضى الايجابية · ولا جدل فى أن استمرار الاتصال بين الماضى والحاضر مصدر

قوة ، اذ أن تاريخ الأمة سلسلة متصلة الحلقات . والأمة التى تنسى ماضيها أو تتنكر له مثلها مثل الانسان الذى يفقد ذاكرته .

ومن خلال هذا الوعى القومى بالماضى العربى يحلل زريق العلاقة التاريخية بين الاسلام والعروبة فيقول فى الفصل السادس من كتابه « الوعى القومى » :

« والنبى محمد هو نبى الاسلام ، وعليه أنزل هذا الدين الكريم . وقد بلغ أثر هذا الدين ، كل ناحية من نواحى ثقافتنا العربية . وهذا التراث العربى قسم من ثقافتنا الحاضرة ، بل هو أساسها الذى تقوم عليه . وواجب كل عربى اذن ، بصرف النظر عن معتقده الدينى ، أن يدرس الاسلام . والنبى محمد ، من جهة ثانية ، موحد العرب وجامع شملهم . يقول البعض : ان الرابطة الدينية كانت فى ذلك الوقت طاغية على الرابطة القومية ، وان الاسلام كان أقوى من العروبة . والجواب أن شيئا غير هذا لم يكن ممكنا فى القرون الوسطى ، سيان فى ذلك الشرق الاسلامى والغرب المسيحى . ونحن نعلم أن القومية ، بمعناها الصحيح ، انما هى وليدة العصر الحديث وما تمخض به من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية . ولكن بالرغم من هذا ، نجد شعورا عربيا قويا ، حتى فى العهد الأول ، حين كانت العاطفة الدينية الاسلامية فى أشد غليانها ، فلقد عامل المسلمون نصارى تغلب (قبيلة عربية) وسواهم من العرب بغير ما عاملوا به النصارى من غير العرب ، واشتركت بعض القبائل النصرانية فى الفتوح الأولى ، وحاربت والمسلمون جنبا الى جنب . ثم قوى هذا الشعور بدخول الأعاجم وتفشى الشعوبية ، واشتد تكتل العرب لصد هجمات الفرس والترك وسواهم من الشعوب » .

ثم يؤكد زريق على أن هذه المظاهر للرابطة القومية بين العرب تعد ضئيلة اذا قيست بالشعور القومى الذى طغى على الأمم فى العصر الحديث ، ولكننا اذا راعينا ظروف الحياة الفكرية فى القرون الوسطى . عندما كانت العاطفة الدينية مسيطرة على كل شىء ، وجدنا فى هذه المظاهر بذورا صالحة للحياة القومية العربية ، ومازالت هذه البذور تنمو ـ ببطء وضعف ـ خلال العصور ، الى أن استفاقت هذه البلاد على نور العصر الحديث ، فاذا الرابطة القومية فوق كل رابطة أخرى . وهى الرابطة التى تترجمها المصلحة المشتركة ، أو ما يسميه زريق بالمصالح الحاضرة والمقبلة .

واذا كان زريق لا يغفل تأثير الجنس فى صنع القوميات ، الا انه يرفض أن يأخذ عامل العرق بالمعنى البيولوجى كمطلب أولى للقومية وسابق

لوجودها . لذلك يصر زريق على التقيد بالمعنى العلمي لكلمة عرق ويتخذ من لبنان مثلا فيقول ان سكان لبنان كغيرهم من أبناء المناطق المجاورة لا ينحدرون من سلالة واحدة ، بل من عدة سلالات لعدة شعوب ، وأن العرق السائد في الخليط اللبناني ، هو السامي : الفينيقيون ، والأراميون ، والعرب ، وهذه السلالات جميعها جاءت من شبه الجزيرة العربية ، في حين يتضمن هذا المركب السلالي ، الى حد ضئيل ، بعض العناصر الآرية كالفرس ، والاغريق والرومان والفرنجة والمغول والأتراك .

أما عن سلالة اللبنانيين اليوم فيقول زريق ان تقسيم اللبنانيين الى عرب وفينيقيين وآراميين ، يخالف المعنى العرقي الذي يعتمده اليوم علماء الأعراق البشرية . فلا يوجد ما يمنع العرب والفينيقيين من تأليف قومية واحدة حتى ولو كان كل جانب ينتمي الى فرعين لأرومة واحدة . أو الى آرومتين مختلفتين . ان القومية لم تبن قط على أشكال الجماجم . وانما بنيت على الألفة الاجتماعية والذهنية والروحية . لذلك تنهض القومية المعاصرة بمفهومها العلمي على اللغة والعادات والذكريات التاريخية والمصالح الحاضرة والمقبلة . أما الدين فيرى زريق أنه يشكل الجانب الروحي لفلسفة القومية الحقيقية . يقول :

« القومية الحقيقية لا يمكن بحال من الأحوال أن تناقض الدين الصحيح ، اذ ليست ، في جوهرها ، سوى حركة روحية ترمي الى بعث قوى الأمة الداخلية ، وتحقيق قابلياتها العقلية والنفسية ، فلا بد للقومية اذن — وهي حركة روحية — من أن تلاقي الدين ، وأن تستمد منه القوة والحياة . كذلك هي القومية العربية لا تعارض دينا من الأديان ولا تنافيه ، بل تقبل على الأديان جميعا . واذا عارضت القومية شيئا ، فليس هو الروحية الدينية ، وانما هو العصبية الهدامة التي تجعل الرابطة الطائفية أقوى من الرابطة القومية ، وتأبى أن تذيب نفسها في بوتقة الوطن الجامعة ، وأصحابها هم أعداء القومية العربية وهادمو وحدتها . أما الدين الصحيح ، فهو ينبع والقومية من معين واحد » .

أما عن الرسالة الحضارية للأمة العربية فيؤمن زريق بضرورة القيام بدروس عميقة ، وتأملات علمية تحليلية تتناول المحيط الطبيعي ، والميراث الجنسي ، والتاريخ الاجتماعي ، والانتاج الثقافي ، على أن تتعمق دون هذه المظاهر كلها ، الى روح الأمة وشخصيتها . وتبرز المأساة الحقيقية في نظر زريق في أن قادتنا ومفكرينا لم يقوموا بعد بهذه المهمة الخطيرة في حياتنا القومية ، ولم يرسموا لنا رسالتنا الخاصة ، بصورة لا يشوبها غموض أو ابهام . لذلك يحدد زريق مفهومه للرسالة الحضارية للأمة العربية فيقول بمنتهى الحسم والوضوح :

« ولعلنا لا نعدو الحق اذا قلنا : ان عمل الأمة العربية سيكون فى المستقبل كما كان فى الماضى ، فكما أن العرب استطاعوا فى العصور الغابرة أن يهضموا مدنيات اليونان والرومان والفرس والهند ويمتصوها بعقولهم النشيطة ونفوسهم الظمأى ، ثم يخرجوها الى العالم وحدة منسجمة، غنية المادة ، باهرة اللون ، كذلك ستكون مهمة العرب فى الأعصر التالية : أن يتشربوا علم الغرب ويجمعوا اليه العناصر المختلفة التى تنشأ فى الغرب والشرق نتيجة له ، ويؤلفوا بينها كلها فى وحدة جديدة تكون عنوان الحياة المقبلة ، ويفيض بها العرب على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة فى القرون الماضية » .

٣٩ ـ فؤاد زكريا « مصر »

على الرغم من أن الدراسات التى كتبها فؤاد زكريا فى مجال القومية بصفة عامة والقومية العربية بصفة خاصة ليست متعددة على مستوى الكم ، فانها ذات نظرة فلسفية وثاقبة ومتعمقة على مستوى الكيف . فقد نشر فى مجلة « الفكر المعاصر » نوفمبر ١٩٦٦ دراسة مستفيضة عن « القومية والعالمية فى الفكر الفلسفى » ، وفى المجلة نفسها (ابريل ١٩٦٩) دراسة بعنوان « شخصيتنا القومية .. محاولة فى النقد الذاتى » ، ثم كتاب « العرب والنموذج الأمريكى » عام ١٩٨٠ . وهى دراسات تتخطى النظرات التقليدية التى تكون قد تركت بصماتها على بعض مفكرى القومية العربية ، ذلك أن فؤاد زكريا يلتزم بالمنهج الفلسفى التطبيقى التجريبى الذى يستقرأ مكونات الواقع الراهن بصرف النظر عن كل الآراء السائدة أو المسبقة ، حتى ولو اكتسبت هذه الآراء صفة البدهيات التى لا تقبل الجدل . ان محك التجربة العملية هو الفاصل بين جدوى هـذه الآراء والاتجاهات وبين عدم جدواها .

فى دراسته « القومية والعالمية فى الفكر الفلسفى » يوضح فـؤاد زكريا أن فى الوطن العربى يعتقد الكثيرون أن الفكر لكى يكون قوميا بالمعنى الصحيح ، ينبغى أن يكون « مختلفا » . فهم يتعمدون تأكيد العنـاصر المتنافرة مع الفلسفات الأخرى ، ظانين أن هذه العناصر هى التى تتمثل فيها روح الأمة وتقاليدها الحقة .. فاذا اعترضتنا مشكلة من المشكلات ، واقترح البعض لها حلا مستمدا من تجارب أمم أخرى سبق أن مرت بنفس المشكلة ، وجدت من يسارع الى رفض هذا الحل آليا ، والاتيان بحل آخر مخالف له ، قد لا يكون أحد جربه من قبل ، ولكنه يفضل على الأول بحجة أنه هو الذى يتمشى مع قوميتنا . وفى اعتقاد فؤاد زكريا أنه لا يكفى لكى يكون المبدأ متمشيا مع قوميتنا أن « يقرر » البعض أنه كذلك ،

وانما لا بد من « اثبات » أن هذا المبدأ دون غيره هو الذى يعبر عن قوميتنا تعبيرا صحيحا ٠

كذلك لا يرى فؤاد زكريا أن الفكرة تصبح قومية لمجرد أنها « تخالف » أو « تغاير » أفكارا صدرت عن مجتمعات أخرى ٠ والخطر الأكبر فى هذا النوع من التفكير هو أنه يؤدى الى نوع من الانعزالية ، والى ضياع كثير من فرص الاستفادة بالتجارب المثمرة التى يشترك معنا فيها غيرنا من الأمم ، بحجة أن فى الاسترشاد بهذه التجارب قضاء على قوميتنا ، ثم نظن أننا بذلك ندعم شخصيتنا القومية ٠ ان هذا الدعم لا يكون الا باتخاذ الموقف الناضج الذى نقف فيه من أفكار الآخرين موقف الواثق من نفسه ، ولا نتعمد تأكيد ما يتنافر معها من أجل اقناع أنفسنا باستقلالنا الفكرى ٠

وهناك اعتقاد آخر يتمسك به الكثيرون فى هذا المجال ، وهو فى رأى فؤاد زكريا لا يقل خطأ عن الاعتقاد السابق ، وان لم يكن أشد منه خطورة ٠ انه الاعتقاد بأن كل ما هو قديم ينتمى بالضرورة الى صميم الروح القومية ٠ ذلك لأن القديم لا يتعين بالضرورة أن يكون قوميا ، بل انه قد يكون دخيلا ، شأنه شأن أى اتجاه حديث مستورد ٠ ومع ذلك فان أصواتا كثيرة تعلن مؤكدة أن الاهتداء الى قوميتنا الأصيلة لا يكون ٠ أو لا يبدأ — الا باحياء التراث الغابر ، الذى يعتقدون أنه — ككل — ألصق بقوميتنا من كل ما هو جديد ٠ لكن هذا يعنى أن القومية فكرة « سكونية » ثابتة ترتبط بالماضى أكثر مما ترتبط بالحاضر ٠ ولو أمعن أصحاب هذا الرأى فكرهم فى مقدمتهم الأساسية هذه ، لوجدوا أنها تقبل اعتراضات حاسمة : فقد ثبت فى عصرنا الحاضر أن القومية فكرة « ديناميكية » تقوم أساسا على التجدد والحياة ، وانها اذا اكتفت بأن تشد الأمة الى ماضيها الغابر ، ولم تساعدها على التطلع الى مستقبل أفضل ، كانت قوة معوقة هدامة ٠

من هنا فان العناصر التى ترتكز عليها فكرة القومية ، والتى تتجمع حولها أمانى الأمة الواحدة ، ينبغى ألا تكون عناصر متجمدة متحجرة ، وانما الواجب أن ترتبط مشاعرنا القومية بحاضرنا ومستقبلنا مثلما ترتبط بماضينا ٠ فالقديم لا ينبغى أن يتحول الى صنم مقدس لمجرد كونه قديما ، بل ان تبجيلنا واحترامنا له يجب أن يتوقف على مدى قدرته على الانتاج فى حياتنا الحاضرة والاسهام فى دفعها الى الأمام ٠ وليس معنى ذلك أن نتنكر لتراثنا ، أو أن نتعمد تأويله تأويلا ملتويا لكى يبدو متمشيا مع اتجاهاتنا الراهنة ، بل ان معناه الوحيد هو الخضوع لسنة الحياة التى تجعل من تاريخ الانسان الغابر دعامة يرتكز عليها فى حاضره ويسترشد بها فى مستقبله ٠

وبالنسبة لنشأة الفكر القومي فان فؤاد زكريا يؤكد أن الفلسفة القومية لا تتعمد أن تكون قومية ، ولا يسعى الفيلسوف الى الكشف أولا عن الخصائص القومية لبلاده لكي يبني مذهبا فلسفيا منطقيا عليها • وانما يمارس الفيلسوف تفكيره ، وتأتي أجيال تالية من الشراح تكشف خصائص مشتركة بينه وبين غيره من بني وطنه ، فتكون تلك الخصائص هي الروح القومية في الفلسفة • ومعنى ذلك أن المرحلة الأولى هي التفلسف أو ممارسة الفكر على أوسع نطاق ممكن ، وهي مرحلة لا نستطيع أن نقول اننا سرنا فيها بما فيه الكفاية • فقبل أن تكون هناك « فلسفة قومية » ينبغي أن تكون هناك « فلسفة » أولا • ولا معنى لأن نؤكد ونلح — ونحن مازلنا في أولى المراحل — على ضرورة صبغ فلسفتنا بالطابع القومي ، لأننا لو عرفنا كيف نمارس الفكر الفلسفي ممارسة سليمة عميقة، فلا بد أن يصطبغ هذا الفكر من تلقاء ذاته بالصبغة القومية ، ولا بد أن تتضح سماتنا القومية في أفكارنا ، وسيكشفها غيرنا باستقراء مختلف أعمالنا ، كما كشفت سمات الفلسفات القومية الانجليزية والفرنسية والألمانية من قبل • أما أن تعلو الأصوات هاتفة بالحاح : لنضع فلسفة قومية ! فان فؤاد زكريا لا يظن أن هذا أفضل السبل الى بلوغ الهدف الذي نريد •

كذلك يؤكد فؤاد زكريا في دراسته « شخصيتنا القومية •• محاولة في النقد الذاتي » أن لكل أمة الحق في أن تتغنى بماضيها وتمجده ، ولكن التشبث المريض بهذا الماضي ليس له الا معنى واحد : هو العجز عن السيطرة على الحاضر أو عدم الرضا عنه • أما الأمة التي تتحكم في حاضرها وتمسك بزمامه وتسيطر عليه وتدير دفته في الاتجاه الذي يحقق لها أمانيها ، لا تحتاج الى كل هذا القدر من التغني بالماضي واجترار أمجاد الأسلاف • ولو تأملنا مقدار الجهد الذهني الذي بذل في مصر ، والطاقات النفسية والعصبية التي أنفقت ، في المعركة التقليدية بين أنصار الأصل الفرعوني وأنصار الأصل العربي ، لبدا لنا أن هذه المعركة كان يمكن أن تحسم لو أن كلا من الفريقين المتنازعين خاطب الآخر بتلك العبارة البسيطة ، المعقولة ، الحكيمة : كفانا تناحرا على الماضي ياسادة ، ولنتذكر قليلا حاضرنا الذي نعيش فيه ! ذلك أن قضيتنا هي المستقبل وليس الماضي •

في كتاب « العرب والنموذج الأمريكي » يتبع فؤاد زكريا نفس المنهج العلمي الموضوعي في تشخيص سلبيات الشخصية العربية المعاصرة من واقع التأثيرات التي يمارسها النموذج الأمريكي على الأمة العربية • فهو يفرض نفسه علينا بقوة متزايدة ويتغلغل داخل عقولنا ونفوسنا • والأسلوب الأمريكي في الحياة ، الذي قد يرفضه الكثيرون في العلن ، يقابل في

السر باعجاب متزايد ، والقوة الأمريكية العسكرية والاقتصادية والاعلامية تبهر اعدادا متزايدة من العرب ٠ من هنا كان قيام فؤاد زكريا بتحليل النموذج الأمريكى تحليلا موضوعيا ، وايضاح أبعاده للانسان العربى حتى يتخذ موقفه من هذه المسألة الحيوية بوعى وتبصر ، دون أن ينجرف فى تيار الدعاية أو يغرق فى خضم التضليلات ٠ وخاصة أن الولايات المتحدة بلد يدعو الى الانبهار ، بلد جمع فى داخلــه أكبر كمية من « أفعــل التفضيل » : من أقوى ، وأغنى ، وأحدث من كل بلاد العالم ٠ كل شيء فيها أضخم ، وأسبق ، وأعظم مما تجده فى أى بلد آخر ٠ انها البلد الذى وصلت فيه سيطرة الانسان على الطبيعة ، وتسخيرها لخدمته ، وتأكيد سيادة العقل البشرى على العالم المادى وقدرته على تشكيله وفقا لغاياته ، الى حد يفوق ما كان يحلم به الفلاسفة والأدباء وأصحاب « المدن الفاضلة » على مر التاريخ ٠ هذه حقيقة لا يقدر على انكارها فى عالمنا المعاصر أحد ٠

لكن القضية التى يدافع عنها فؤاد زكريا فى هذه الدراسة تتمثل فى أن النموذج الأمريكى فريد فى نوعه ، حدث مرة واحدة ولا يقبل التكرار ، وأن هذا النموذج ، الذى يدعو حقا الى الانبهار ، مليء بالعيوب الذاتية ، كما أنه لا يصلح لأى بلد فى العالم الثالث ، ولا لأى بلد فى العالم العربى بوجه خاص ٠ فلا يمكن أن ينجح النمط الأمريكى فى الحياة ، حين يطبق على بلد متخلف أو محدود الموارد ، فى حل مشكلات فئات المجتمع كلها ، ذلك أنه يرضى فئة محدودة الى أقصى حد ، على حساب أوسع فئات المجتمع٠

أما الظروف التى لا تقبل التكرار ، والتى جعلت من أمريكا « الدولة الأعظم » فى العصر الحديث فتتمثل فى أنها قارة تنتمى الى العالم الجديد ، فهى أرض بكر لم يبدأ استغلالها الحقيقى الا منذ قرنين ، كما أنها قارة كاملة غنية بالموارد الطبيعية الى حد مذهل ، تجاورها قارة أخرى كاملة تكون « ساحتها الخلفية » ، وتخضع لاستغلالها خضوعا مباشرا ٠ كذلك فان الوقت الذى اكتشف فيه هذا الكنز الجبار ، كان وقتا فريدا بدوره ٠ كان عصر النهضة الأوروبية الذى بدأت فيه أوروبا تتطلع الى السيطرة على الطبيعة عن طريق العلم والتكنولوجيا ، والذى نادى فيه مفكروهــا وفلاسفتها الكبار بأن يصبح البشر « سادة الطبيعة وملاكها » ، « وأن يكون العلم للسيطرة ، لا للمعرفة فحسب » ٠ هذا بالاضافة الى نظام الرق الذى تفشى فى أمريكا على أوسع نطاق فى نفس الفترة التى كان فيهــا المستوطنون يبنون مجتمعهم الجديد ، والذى أسهم بنصيب هائل فى اثراء هذا المجتمع ٠ من الواضح أنه لا وجه للمقارنة بين ظروف المجتمع الأمريكى الزمنية والمكانية وبين ظروف المجتمع العربى ٠

ولكى تتكامل أبعاد الصورة الموضوعية التى يقدمها فؤاد زكريا ، فانه

يوضح أن فى بعض الضمانات الفردية التى يمنحها الدستور الأمريكى للمواطن ، وفى الاحساس بوجود « قانون » لا بد من احترامه — قانون يسرى على الجميع ، ولا يستثنى منه أحد • فى هذا نموذج يمكن أن يعلم منه الانسان العربى والحكومات العربية ، الكثير • لكن مع تسجيل فؤاد زكريا لاعجابه الخاص بهذا الجانب من الحرية الأمريكية ، فانه ينبه العالم العربى الى أن هذا الحكم لا يمكن اطلاقه دون تحفظات هامة • منها مثلا أن هذه الحرية مقيدة بقدرة الانسان الاقتصادية • فلا يمكن لأى مواطن أمريكى أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية الا اذا كان من قمم طبقة الأثرياء ، لأن النظام يجعل من المستحيل أن ينجح مرشح ، على أى مستوى، ما لم ينفق على الدعاية أموالا طائلة • فى حين أنه من المشكوك فيه أن تعتبر الدعاية والاعلان والعلاقات العامة مقياسا لحرية اختيار حقيقية لدى الناخبين • فى حين أنه من السهل تصور نوعية القوانين التى يمكن أن يصدرها مرشح كهذا حين ينجح ، ونوعية المصالح التى سيدافع عنها فى هذه القوانين •

واذا نحينا الانبهار الساذج أو المغرض بالنموذج الأمريكى جانبا ، فاننا نجد أن القضايا الرئيسية الثلاث التى تتحكم فى العلاقات الأمريكية العربية هى : الاختيار الايديولوجى ، والبترول ، واسرائيل • وأية محاولة لتجنب هذه القضايا الحيوية والمصيرية هى من قبيل ادخال الأمة العربية فى متاهات جانبية وطرق مسدودة ودوائر مفرغة ، لأنها — عندئذ — ستفقد الأسس الفكرية الراسخة التى يمكن أن تنير لها طريق المستقبل الحقيقى بعيدا عن أذيال التبعية والتقليد الأعمى والمغرض •

فمنذ الحرب العالمية الثانية أصبحت أمريكا طرفا فى القضايا السياسية التى تقرر مصير الأمة العربية • وكان حصول البلاد العربية على الاستقلال الوطنى من الاستعمار التقليدى من أهم العوامل التى ساعدتها على التغلغل السياسى فى البلاد العربية ، ومقاومة الايديولوجية الجديدة التى يسعى الاتحاد السوفييتى ودول المعسكر الشرقى الى نشرها• فقد كان على أمريكا ، أمام هذا المنافس الجديد ، أن تضاعف من جهدها من أجل صد التيار الايديولوجى المنافس لها من جهة ، واقناع دول المنطقة بتفوق النموذج الأمريكى وصلاحيته للتطبيق فى مجتمعاتها • وهكذا وجدت الدول العربية نفسها تواجه خيارا جديدا يحتم عليها تحديد موقفها ازاء معسكرين متضادين ، لم يكن أى منهما يحتلها احتلالا عسكريا مباشرا • فقد واجه العرب لأول مرة مشكلة الايديولوجية التى أصبحت الطابع المميز لصراعات القوتين العالميتين الرئيسيتين ، وكان جزء كبير من الجهود التى تبذلها أمريكا من أجل التغلغل فى المنطقة العربية ، يتخذ طابع الهجوم

الايديولوجى على المعسكر المضاد ، والتبرير الايديولوجى لأسلوبها الخاص فى الحياة ٠

كل هذا التغلغل الايديولوجى كان بهدف تغطية الأطماع الأمريكية فى البترول العربى الذى ظهرت امكاناته الهائلة فى المنطقة العربية ، ودوره الحيوى فى مستقبل العالم الصناعى بعد الحرب العالمية الثانية ٠ على أن أمريكا ، فى سعيها الى بلوغ هذا الهدف ، كانت تحتاج الى وسيلة تختلف عن الوسائل التقليدية التى كانت تلجأ اليها الدول الاستعمارية السابقة ٠ وسرعان ما اهتدت الى تلك الوسيلة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، عندما حللت الموقف فى المنطقة العربية وظهرت لها الامكانات الهائلة التى ينطوى عليها الطموح الصهيونى الى انشاء دولة اسرائيل على أرض فلسطين ٠ وسرعان ما تبنت قضية الصهيونية ، وساعدت بكل قوة على اقامة الدولة الاسرائيلية وعلى استمرار وجودها وتوسعها ، متخذة من هذه الدولة أداة لها من أجل تحقيق هدفها فى السيطرة على المنطقة ، وعلى مواردها ٠

هنا تبرز القومية العربية كايديولوجية حضارية وفلسفة سياسية واقتصادية واجتماعية يمكن أن تمنح الأمة العربية الأسس الفكرية الراسخة النابعة من طبيعتها الخاصة ، وظروفها التاريخية ، وتحدياتها الراهنة ٠ أما التقليد الأعمى والمغرض فمن شأنه أن يجعل الأمة العربية كلها ريشة فى مهب رياح الشرق والغرب ٠ أما التفكير العلمى الموضوعى فمن شأنه أن يساعدنا على دراسة ظروفنا وتحليلها من أجل صالح أمتنا بصرف النظر عن أية اعتبارات وافدة علينا من خارج حدود الوطن العربى ٠

٤٠ ـ أمين سعيد « مصر »

أمين سعيد من المؤرخين العرب المعاصرين الذين عملوا على بلورة الفكر الكامن وراء حركة التاريخ العربى الحديث ، والايجابيات التى يجب أن ندعمها فيه والسلبيات التى يتحتم أن نخلصه منها ٠ كذلك حرص أمين سعيد على كشف القناع عن وجه مصر العربى من خلال تحليلـه للأحداث التى مرت بها منذ مطلع القرن الحالى على وجه الخصوص ٠ يتجلى هذا الاتجاه فى كتابيه « تاريخ مصر السياسى » ١٩٥٩ ، و « العدوان ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ » ١٩٥٩ ، و « الجمهورية العربية المتحدة » ١٩٦٠ ٠ أما مفهومه للعلاقة العضوية بين حركة القومية العربيـــة ومسار التاريخ العربى فنجده فى كتابيه « الدولة العربية المتحدة » ، و « الثورة العربية الكبرى » ٠

يرى أمين سعيد فى العدوان الثلاثى الذى وقع على مصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ واشتركت فيه كل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، امتحانا حقيقيا وصعبا لحركة القومية العربية التى اعتمد عليها جمال عبد الناصر فى تأميمه لقناة السويس ٠ فقد كان هذا التأميم أول مواجهـــة عملية ومصيرية بين القومية العربية والقوى الاستعمارية ٠ وانعقد مؤتمر عربى للملوك والرؤساء العرب فى بيروت فى ١٣ نوفمبر ١٩٥٦ ـ دعا اليه كميل شمعون رئيس جمهورية لبنان فى ذلـــك الوقت ـ لاتخاذ موقف عربى موحد ، لتأييد مصر فى خطواتها ٠ وبالرغم من خطورة الموقف العربى ومصيرية المعركة الدائرة فان الاختلاف فى سياسات الدول العربية جعل الاتفاق بينها على حد أدنى منعا لانقسام الجبهة العربية ٠ وقد تمثل هذا الحد الأدنى فى البيان الذى صدر ليؤكد ضرورة تنفيذ قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وانذار انجلترا وفرنسا واسرائيل بالامتثال لقرارات الأمم المتحدة بدون قيد ولا شرط ، ومباشرة كل الدول الممثلة فى هذا

المؤتمر اختصاصاتها على أساس حق الدفاع المشروع عن النفس تطبيقا لأحكام المادة الحادية والأربعين من ميثاق الأمم المتحدة ، واتخاذ التدابير الفعالة التى تسمح بها أقصى امكاناتها وفقا لالتزاماتها بمقتضى المادة الثانية من ميثاق الدفاع المشترك العربى · كما ينص البيان على حل قضية القناة بما يقتضى سيادة مصر وكرامتها بعيدا عن التدخل والاكراه وعلى أساس معاهدة ١٨٨٨ والمبادىء الستة التى أقرها مجلس الأمن ·

لكن حركة القومية العربية تمثلت على حقيقتها فى الشعوب العربية التى لا تعانى من نفس الحساسيات والحزازات التى ترزح تحتها أنظمة الحكم فى العالم العربى · فقد قرر الاتحاد الدولى للعمال العرب حرمان المعتدين من البترول العربى وتعطيل القواعد والسفن والطائرات المعادية حتى لا تستخدم ضد مصر وجاء فى بيانه « ان هذه ليست معركة مصر أو معركة القناة ـ انها معركة الاستعمار والصهيونية للفتك بالأمة العربية واحتلال أرضها والسيادة عليها ، سنموت قبل أن يحدث ذلك » · كما عقد الطلاب العرب مؤتمرا عاما فى القاهرة يوم ١٠ ديسمبر ١٩٥٦ ، ناقشوا فيه قضايا الوطن العربى فى ضوء الأحداث التى وقعت ، وحيوا بطولة مصر وقادتها ثم قرروا تأييد مصر تأييدا تاما ، وطالبوا بانسحاب المعتدين كما طالبوا الدول العربية بقطع علاقاتها مع كل من بريطانيا وفرنسا · وطالبوا العراق بالانسحاب من حلف بغداد ، وقرروا المطالبة بدفع تعويضات كاملة لضحايا العدوان على مصر وتصفية جميع القواعد فى الوطن العربى ·

بهذا الأسلوب يظهر أمين سعيد التناقض الواضح بين الحركة المقيدة المترددة للحكومات العربية وبين الانطلاقة العفوية الحاسمة للشعوب العربية · فقد قام الشعب السورى بتخريب أنابيب البترول الممتدة من العراق الى البحر المتوسط عبر أراضى سوريا ولبنان وفى أماكن متعددة بالصحراء ، كما تم نسف محطات ضخ البترول · واذا كان الشعب السورى فى طليعة الشعب العربى الذى خاض معركة قناة السويس ، فان الشعب العربى فى مختلف الأقطار العربية عبر عن موقفه سواء بالسلوك أو بالشجب بقدر ما كانت تسمح له ظروفه الراهنة فى ذلك الوقت · وكان هذا المخاض العنيف ايذانا بميلاد الوحدة المصرية السورية فى فبراير ١٩٥٨ التى جاءت بنفس الاندفاع الذى وقع به العدوان الثلاثى الذى لم يستمر أكثر من ثلاثة أشهر ·

لكن كان من الطبيعى أن تقف قوى الاستعمار بالمرصاد للنصر الذى حققته مصر عليها فى ديسمبر ١٩٥٦ بجلاء قوات العدوان ، وهو النصر الذى توجته مصر بالوحدة مع سوريا كنواة للوحدة العربية الكبرى · فقد

وقعت عدة أحداث فى الوطن العربى فى الفترة ما بين عام الوحدة ١٩٥٨ حتى الانفصال ١٩٦١ ، ولم تترك ثورة ٢٣ يوليو حدثا من تلك الأحداث الا وتفاعلت معه بطريقة أو بأخرى حتى أصبحت شريكا فى كل ما يدور على ساحة الوطن العربى . أحيانا كانت تقابل بالترحاب والثناء ، وأحيانا أخرى تقابل بالهجوم والانتقادات والمؤامرات . لكنها كانت دائما تضع يدها على موطن الداء الكامن فى عوامل استعمارية أو رجعية أو طائفية أو اقليمية ، لذلك كانت تنادى الشعوب العربية كلها قبل أن تخاطب الحكومات العربية شاعرة فى ذلك أنها تقوم بواجبها الطبيعى تجاه المصير العربى بصرف النظر عن مدح الأصدقاء أو هجوم الأعداء .

يضرب أمين سعيد المثل بمحاولة الاستعمار عن طريق عملائه لايجاد فجوة وخلاف بين مصر والسودان لتحقيق هدفه فى عزل مصر عن الوطن العربى . وكانت « مشكلة الحدود » فى أواخر يناير ١٩٥٨ «ومشكلة ماء النيل » فى يوليو ١٩٥٨ اللتين أثارهما عبد الله خليل رئيس وزراء السودان فى ذلك الوقت . لكن الثورة المصرية حرصت على استمرار العلاقات الطيبة بين البلدين الشقيقين ، فقد آثرت الأخوة على التفرقة حتى عادت العلاقات كما كانت عليه بانقلاب ابراهيم عبود فى نوفمبر ١٩٥٨ . وتم التوصل فى جو ودى الى اتفاق ينظم الانتفاع بماء النيل والتعويضات واتفاق التجارة ، والمعاملات الجمركية .

أما عن موقف مصر من القضية الفلسطينية فان أمين سعيد يوضح انه على الرغم من كل الضغوط الاستعمارية والقيود السياسية والرواسب الاجتماعية التى عانت منها مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فانها لم تهمل القضية الفلسطينية بل اعتبرتها جزءا من قضيتها الوطنية بصفة خاصة ، وجزءا من قضيتها العربية بصفة عامة . يتتبع أمين سعيد بداية هذا الوعى منذ أن قامت لجنة الدفاع عن فلسطين بمصر ، بعقد اجتماع بالمركز العام لجمعية الشبان المسلمين فى ١٠ يوليو ١٩٣٧ للاحتجاج على تقسيم فلسطين ومناقشة ما يمكن عمله لمساندة الشعب الفلسطينى ، وانتهى باصدار بيان يدل على وعى كبير وفهم للقضية فى تأكيده لعروبة فلسطين بلغتها وتاريخها وعاداتها ، وتوضيحه انحياز الاستعمار البريطانى باعطاء اليهود أخصب الأراضى ، وخطر هذا التقسيم على الوحدة العربية المرتقبة ثم خطر هؤلاء السكان القادمين من الغرب ، ولهم معتقدات لا تناسب وطننا العربى كله .

واعتبر القرار مسألة فلسطين مسألة اسلامية يجب على كل مسلم الدفاع عنها ، ورفض اقتراح لجنة بيل لتقسيم فلسطين رفضا باتا ، ونادى بصيانة حقوق العرب من مسلمين ونصارى فى فلسطين وشرق،

الأردن ، صيانة تقوم على استقلالهم الصحيح ٠ وقرر البيان ما يجب على الاستعمار البريطــانى المتسبب فى المشــكلة أن يقوم به نحــو العرب الفلسطينيين ، وذلك بمنع الهجرة اليهودية منعا باتا ، ورفض التقسيم ، واعتبار القضية قضية عربية ، ومعاملة الأقليات باعطائها حقوقها كاملــة كسائر الدول المتقدمة مع عدم اهمال تقرير مصير العرب لحقهم فى الحرية والاستقلال ٠

واشتركت الأحزاب فى اظهار الاستيلاء والاحتجاج ومساندة الشعب الفلسطينى ، فأرسل محمد محمود زعيم حزب الأحرار الدستوريين برقية الى اللجنة العربية العليا فى ١٣ يوليو ١٩٣٧ تبدو فيها الروح العربية والاسلامية واضحة ، وعارض فيها التقسيم ، ويذكر بريطانيا بوعودهــا واتفاقاتها السابقة مع العرب عام ١٩١٥ ، وقد جاء فيها : « أبناء مصر يشاركون أبناء فلسطين بلاد الأماكن المقدسة فى الاحتجاج على تجزئة وطنهم وتمزقة ربوعه ٠ ويتضامنون واياهم فى رفض النتائج التى أثبتتها اللجنة البريطانية الملكية بشأن التقسيم فى تقريرها الأخير » ٠

أما حزب مصر الفتاة بزعامة أحمد حسين فيرى جريمة تاريخية فى مقابلة ما يحدث فى فلسطين بالاستخفاف ، لأن السياسة البريطانية تعمل على تأليف دولة يهودية على تخوم مصر ، وما يحدث سوف يكون عقبة فى سبيل الوحدة العربية ، وخطرا على سلام المنطقة وأمنها ، ثم تشير الى أن ذلك من شأنه اضعاف الصداقة العربية البريطانية ٠

والدليل العملى على نضج الوعى العربى فى مصر منذ مراحل متقدمة ومبكرة من التاريخ الحديث ، أن كل التوقعات والتنبؤات التى عبر عنها الساسة المصريون والمؤسسات والهيئات الشعبية والأحزاب السياسية فى مصر ، قد ثبتت صحتها تماما على مدى الأربعين سنة التالية ٠ فقد تم تقسيم فلسطين ، وتمزيق الوطن العربى ، واقامة الدولــة اليهوديــة ، واهدار فرص الوحدة العربية ، وتهديد سلام المنطقة وأمنها ٠ لكن الوعى القومى لم يكن مسلحا بالوسائل المادية والأدوات الفعالة لاخراجه الى حيز التنفيذ ، فقد حالت الظروف السياسية والاجتماعية دون ذلك ٠

أما فى كتاب « الثورة العربيــة الكبرى » فان أمين سعيد يحلل البدايات الأولى والأسباب التى عجلت بهذه الثورة على مستوى الوطــن العربى ، لكنها عجلت باجهاضها أيضا لأنها لم تكن قد امتلكت قوة الدفع اللازمة لاستمرارها ٠ فقد قامت تلك الثورة العربية بقيادة الشريف حسين ابن على والى الحجاز وكانت ترمى الى تحقيق هدفين : تخليص المشرق العربى من الاستعمار التركى ، بعد أن بلغت مذابح جمال باشا الحاكم التركى فى عرب الشام حدا وحشيا لا يحتمل ، ثم تكوين دولة عربية كبرى مستقلة ٠

ولتحقيق هذين الهدفين اتصل الشريف حسين بن على بالجمعيات السرية فى الشام التى كانت تمثل الحركة القومية العربية فى ذلك الوقت وكانت تلك الجمعيات تنادى بالاصلاح وباللامركزية فى الحكم نتيجة لنمو أبناء الطبقة الوسطى وأخذهم بنصيب التعليم وشعورهم بضرورة افساح مكان لهم فى ادارة شئون بلادهم ، ولذلك نادوا بالانفصال عن الدولة العثمانية وبوحدة الأمة العربية • وقد وجدت تلك الجمعيات فى الشريف حسين بن على المنقذ الأكبر لهم ولذلك التفوا حوله ونفذوا تعاليمه • وبالفعل قام الشريف حسين بثورته الكبرى فى عام ١٩١٦ ، وطرد الأتراك من الحجاز ، ثم تقدم ابنه الأمير فيصل على رأس جيش لتحرير الشام •

وفى أثناء تقدم الجيوش العربية والبريطانية لمحاربة الأتراك فى الشام ، سعت بريطانيا الى اكتساب يهود العالم بحيث أعلنت فى عام ١٩١٧ وعد بلفور الذى يصمم على مساعدة اليهود فى انشاء وطن قومى لهم فى فلسطين ، وذلك على الرغم من اتفاقها مع الشريف حسين على اقامة دولة عربية مستقلة • وقد أخفى البريطانيون عن العرب خبر وعد بلفور حتى يتمكنوا من استغلال القوات العربية فى احتلال فلسطين • وبرغم هذا الوعد لم يفقد الشريف حسين ثقته فى العهود البريطانية لدرجة أنه لم يصدق ما جاء فى الاتفاقية السرية بين سايكس وبيكو ، والتى أفشت الحكومة الروسية سرها الذى يؤكد نوايا انجلترا وفرنسا فى استعمار الشام • واستمرت الجيوش العربية فى مساندة بريطانيا حتى تم لها النصر واستولت على كل فلسطين ، ثم حنثت بوعدها للشريف حسين باخضاع كل الشام للاستعمار البريطانى والفرنسى •

ويأخذ أمين سعيد على تلك الثورة أنها بدأت قبل أن تأخذ للمعركة أهبتها ، ولذلك لم تستطع اجتناء الثمرات التى كانت مرتقبة فى ختام الثورة • ويقال ان تصرفات جمال باشا بعرب الشام وما قام فيها من مجازر للقوميين العرب قد عجلت فى اضرام الثورة قبل أن تعد معداتها • لكن حركات التحرر العربى استمرت برغم كل الخيانات والمؤامرات والاحباطات ، ولم تقتصر على انشاء الجمعيات السرية والعلنية ، والتى قامت بعض الصحف العربية بدور فعال فى تأييد أهداف تلك الجمعيات وأهمها استقلال الأمة العربية ووحدتها ، وأهم تلك الجرائد « المفيد » و « الحقيقة » فى بيروت ، و « المقتبس » ، و « القبس » فى دمشق ، و « كلمة الحق » و « الحضارة » ومجلة « لسان العرب » فى الآستانة ، و « طرابلس » و « الأجيال » فى طرابلس و « النهضة » فى بغداد ، و « المقطم » ، و « المؤيد » و « النهضة » فى مصر ، مما يدل على أن الأمة العربية لم تعرف الاستسلام بطول تاريخها •

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٧٣٦٠

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٩٥٧ - ١